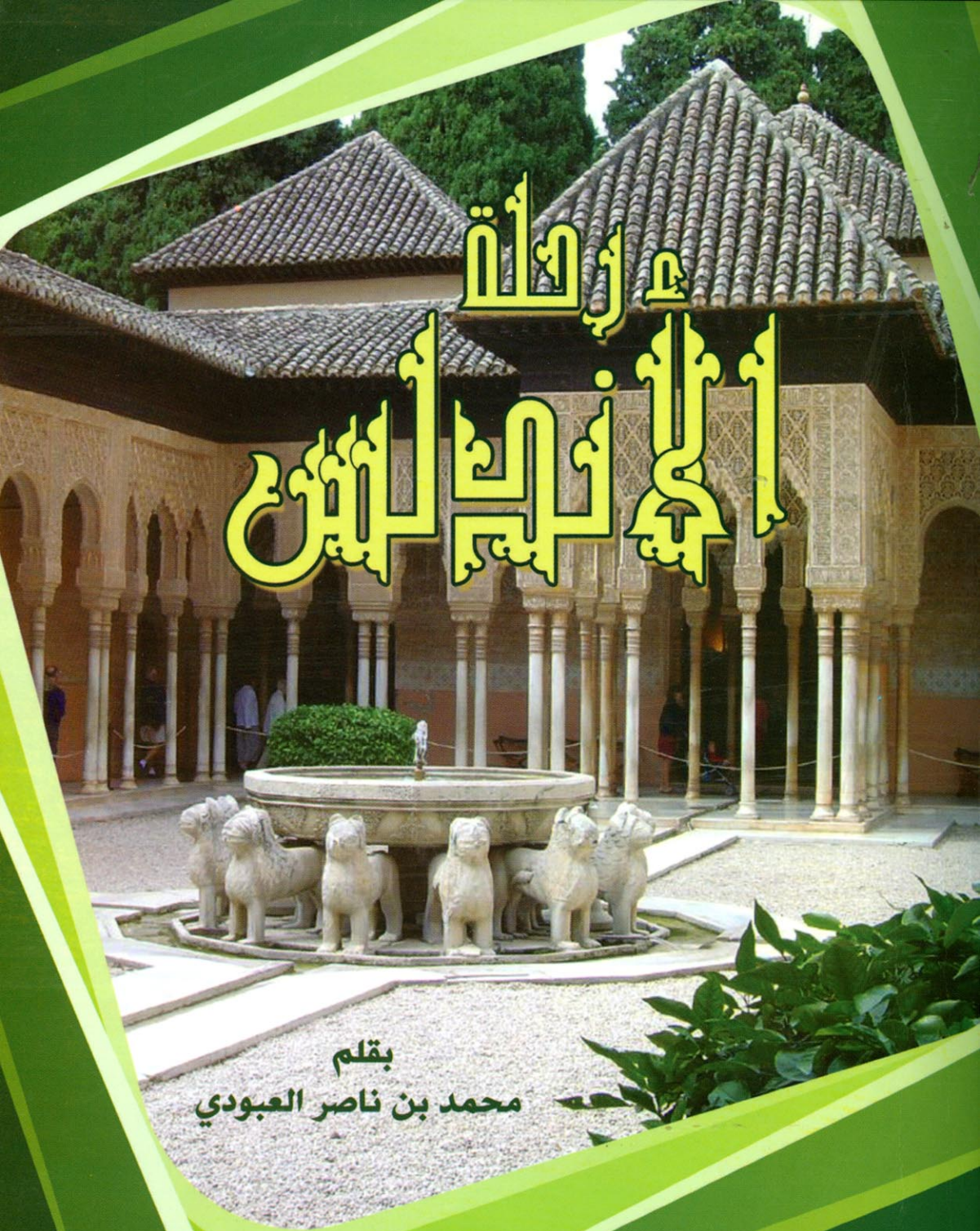

رحلة إلى الأندلس

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

نادي المدينة المنورة الأدبي
١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

رحلة الأندلس

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

نادي المدينة المنورة الأدبي

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

رحلة الأندلس/ محمد ناصر العبودي المدينة المنورة ، ١٤٣٥هـ

٤٣٥ ص ؛ ١٧×٢٤سم .

ردمك : ٢- ٩٨- ٦١٨- ٩٩٦٠-٩٧٨

١- الأندلس – وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي : ٩١٤.٦٨٠٤ ١٤٣٥/٣٢٢٥

رقم الإيداع : ١٤٣٥/٣٢٢٥

ردمك : ٢ -٩٨ - ٦١٨ - ٩٩٦٠-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

المملكة العربية السعودية – المدينة المنورة

تليفون : ٠١٤٨٤٧١٩٠٥

فاكس : ٠١٤٨٤٧٤٩١٣

Email: adabimadina@yahoo.com

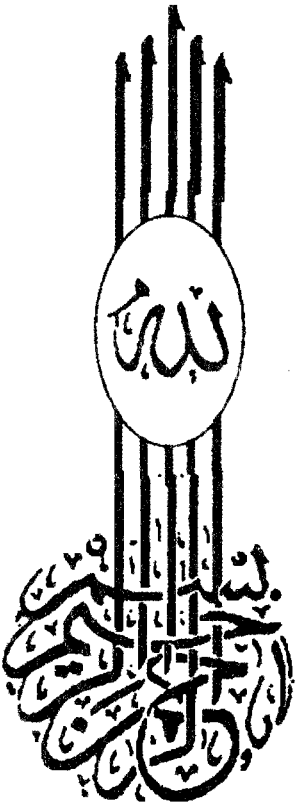
بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- طبع بيروت، دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا- الرياض، دار العلوم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين- الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي- الرياض، المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان- الرياض، جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- نشرته دار العلوم في الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين- نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي- مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية- طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين- الرياض، المطابع الأهلية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال- رحلة وحديث في شؤون المسلمين- الرياض، مطابع الفرزدق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحلات في أمريكا الوسطى- المطابع الأهلية للأوفست في الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي- الرياض، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل- نشره النادي الأدبي في أبها، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) على قمم جبال الأنديز- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر- طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقية الحديث عن إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي- مطابع الرياض الأهلية للأوفست، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٥) جمهورية أذربيجان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية- نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان- طبع ببيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال- طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين- طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) كنت في ألبانيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية- محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٥هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القريم- نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجريا (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان- نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية- نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غينيا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا- طبع في مطابع التقنية للأوفست- الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور- مطابع النرجس التجارية، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك (من سلسلة الرحلات الهندية) مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) العودة إلى الصين (من سلسلة الرحلات الصينية) طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية- طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٩هـ.

(٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية) طبع في مطابع التقنية للأوفست، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٢) بلاد التتار والبلغار (من سلسلة رحلات الشمال) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٣) بلاد الشركس: الإديغي- طبع مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٤) مواطن إسلامية ضائعة- مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٥) تائه في تاهيتي- طبعته مطابع التقنية، الرياض،١٤٢٠ هـ.

(٦٦) نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٧) ذكريات من الاتحاد السوفيتي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

(٦٨) نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي، طبع في مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٦٩) إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار

خضر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٧٠) في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٧١) قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية) مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٢) مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٣) مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢١هـ.

(٧٤) فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٥) المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٦) في جنوب البرازيل (من سلسلة الرحلات البرازيلية) مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(٧٧) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٧٨) بلغاريا ومقدونيا (من سلسلة الرحلات في بلاد البلقان) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٧٩) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٨٠) بيليز والسلفادور (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٨١) (العودة إلى ما وراء النهر) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون

المسلمين، طبع في مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(٨٢) (على سقف العالم) رحلة في التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٢٢هـ.

(٨٣) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٨٤) بلاد العربية الضائعة (جورجيا) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٥) الاعتبار في السفر إلى ماليبار (من سلسلة الرحلات الهندية)، نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٦) ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض،١٤٢٢هـ.

(٨٧) بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٨) غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨٩) إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ.

(٩٠) وراء المشرقين رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩١) إلمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى، مطابع النرجس عام ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

(٩٢) رحلة هونغ كونغ وماكاو، طبع في مطابع النرجس، الرياض،

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩٣) إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٩٤) شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبرية) مطابع النرجس، الرياض، عام ١٤٢٤هـ.

(٩٥) فوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين، طبعته مطبعة العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٩٦) إقليم أورنبورغ (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٩٧) إلى إريتريا بعد ٣٦ سنة، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ.

(٩٨) الشرق الشمالي من البرازيل: رحلة في ولايات: برنانبوكو وريوقراندي دي نورتي وبارايبا (من سلسلة الرحلات البرازيلية) طبع في مطابع العلا في الرياض.

(٩٩) من غينيا الاستوائية إلى ساو تومي: رحلات في القارة الإفريقية، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(١٠٠) من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية) مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(١٠١) إلى شمال الشمال: بلاد النرويج وفنلندا (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ.

(١٠٢) في غرب أستراليا (من سلسلة الرحلات الأسترالية) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

(١٠٣) (نظرات في شمال الهند) مجلدان، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

(١٠٤) جولات فنزويلية وحديث عن المسلمين في أحد أركان القارة (من سلسلة رحلات في أمريكا الجنوبية)، مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٧هـ.

(١٠٥) الحل والرحيل في بلاد البرازيل (ثلاثة مجلدات من سلسلة الرحلات البرازيلية)، (تحت الطبع).

(١٠٦) في وسط الهند، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٢٦هـ.

(١٠٧) قوادي لوب وانتقوا وسان مارتن (من سلسلة الرحلات في البحر الكاريبي) طبع مطابع النرجس عام ١٤٢٩هـ.

(١٠٨) في شمال شرق آسيا، رحلة في سيبريا ومنغوليا، طبع مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

(١٠٩) القلم وما أوتي، في جيبوتي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٥هـ.

(١١٠) خلال أوكرانيا بحثاً عن المسلمين، (تحت الطبع).

(١١١) مقال في زيارة منطقة الأورال، (من سلسلة الرحلات في وسط روسيا)، طبع مكتبة الطرفين في الطائف عام ١٤٣٠هـ.

(١١٢) بورتوريكو وجمهورية الدومنيكان، (من سلسلة الرحلات الكاريبية)، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

(١١٣) جمهورية القبائل الروسية (رحلات في جنوب روسيا)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

(١١٤) في غرب سيبيريا، مشاهدات وأحاديث في شئون المسلمين (الرحلات السيبيرية)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

(١١٥) شمال أستراليا، رحلة وحديث في أحوال المسلمين (الرحلات الأسترالية)- طبعته دار الثلوثية للنشر والتوزيع ١٤٣٤هـ .

(١١٦) إلمام بالمحيط الهادي من أستراليا إلى جزيرة قوام (الرحلات الأسترالية)، نشرته دار الثلوثية في الرياض.

(١١٧) إلى الشرق الأقصى الروسي نشرته دار الثلوثية في الرياض ١٤٣٣هـ .

(١١٨) في أقصى شرق الهند (الرحلات الهندية) طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

(١١٩) جنوب أستراليا (الرحلات الأسترالية)، نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٠هـ.

(١٢٠) رحلة أخرى إلى الحبشة بعد أربعين عاماً، مطبعة النرجس ١٤٣١هـ.

(١٢١) قول أوفى، في كوسوفا، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ.

(١٢٢) القول المجسّد من الجولة في الجبل الأسود، دار الثلوثية ١٤٣٣.

(١٢٣) رحلة إلى المدينة المنورة قبل ستين سنة: نشرته دار الثلوثية ١٤٣١هـ.

(١٢٤) في أعماق الصين الشعبية: رحلة في مقاطعة منقوليا الداخلية وحديث عن الإسلام والمسلمين: طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

(١٢٥) العودة إلى غرب إفريقية، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

(١٢٦) رحلة من بريدة إلى الظهران قبل ٦٠ سنة، دار الثلوثية للنشر ١٤٣٢هـ.

(١٢٧) غينيا الجديدة آخر الغينيات زيارة طبعته دار الثلوثية للنشر ١٤٣٤هـ

(١٢٨) الإشراف على أطراف من المغرب العربي – وزارة التعليم العالي ١٤٣٣.

(١٢٩) شرق أستراليا طبعته دار الثلوثية للنشر والتوزيع ١٤٣٥هـ .

(١٣٠) رحلة الأندلس (وهو هذا الكتاب).

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(١٣١) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات)-نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(١٣٢) أخبار أبي العيناء اليمامي- طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(١٣٣) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبدالعزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(١٣٤) كتاب الثقلاء- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٣٥) نفحات من السكينة القرآنية- طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس- نشرته دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ.

(١٣٦) مأثورات شعبية- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٣٧) سوانح أدبية- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

(١٣٨) صور ثقيلة- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

(١٣٩) العالم الإسلامي والرابطة- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

(١٤٠) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(١٤١) المقامات الصحراوية- مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(١٤٢) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة- بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية- نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي، الرياض، ١٤١٩هـ.

(١٤٣) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

(١٤٤) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة)- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.

(١٤٥) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبدالعزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١٤٦) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(١٤٧) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

(١٤٨) واجب المسلم في بلاد الأقليات، نشرته رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(١٤٩) (العالم الإسلامي: واقع وتوقعات) نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.

(١٥٠) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(١٥١) (حِكَمُ العوام)، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

(١٥٢) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، في مجلدين كبيرين.

(١٥٣) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

(١٥٤) أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(١٥٥) الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض، ١٤٢٣هـ.

(١٥٦) أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبدالله العبودي.

(١٥٧) معجم الألفاظ الدخيلة في لغتنا الدارجة، نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض في مجلدين- عام ١٤٢٥هـ.

(١٥٨) المقامات البلدانية، نشره النادي الأدبي في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

(١٥٩) الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة، أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها (ثلاثة عشر مجلداً) نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(١٦٠) الحوار في الإسلام، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(١٦١) دور الأقليات الإسلامية في الدعوة إلى الله، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(١٦٢) الأقليات المسلمة: الواقع والمأمول، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(١٦٣) العالم الإسلامي: الواقع والمعاناة، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

(١٦٤) هذا ما أستوحيته من الناس، كتاب أدبي طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

(١٦٥) جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله في مساعدة الإخوة المسلمين وبخاصة في بلاد الأقليات المسلمة، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

(١٦٦) العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ

(١٦٧) أخبار الملا ابن سيف تنشره دار الثلوثية في الرياض.

(١٦٨) أخبار قني تنشره دار الثلوثية في الرياض.

(١٦٩) أخبار مطوع اللسيب نشرته دار الثلوثية في الرياض.

(١٧٠) مشاهد من بريدة قبل ٧٥ سنة، تنشره دار الثلوثية في الرياض.

(١٧١) المطوع في باريس، نشره النادي الأدبي في الرياض.

(١٧٢) كلمات قضت (في مجلدين كبيرين: معجم بالفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت) نشرته دارة الملك عبدالعزيز في الرياض.

(١٧٣) معجم النخلة في المأثورات الشعبية، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

(١٧٤) معجم المطر والسحاب، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

(١٧٥) معجم الأنواء والفصول، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

(١٧٦) معجم الديانة والتدين، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

(١٧٧) معجم ألفاظ الصيد والقنص، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ،

(١٧٨) معجم ألفاظ المرض والصحة في المأثور الشعبي (تحت الطبع).

(١٧٩) معجم ألفاظ الحرف والصنائع في المأثورات الشعبية (تحت الطبع).

(١٨٠) معجم الحيوان عند العامة، نشرته مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض ١٤٣١هـ.

(١٨١) الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن حميد كما عرفته في مجلدين: نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٢هـ.

(١٨٢) معجم أسر بريدة في٢٣ مجلداً، نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٠هـ.

(١٨٣) المستدين: قصة طبعت في مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

(١٨٤) الأصدقاء الثلاثة: رواية، مطابع الفرزدق في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

(١٨٥) العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا، دار الثلوثية للنشر .

(١٨٦) القضاء في المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر

(١٨٧) أهمية الوثائق في المحلية في تاريخ الأفراد والأسر – دار الثلوثية ١٤٣٤

(١٨٨) الرحلات العالمية وآثارها في الدعوة إلى الله (تحت الطبع).

(١٨٩) **أفكار حول معالجة الزحام الشديد في المسجد الحرام في المواسم (تحت الطبع).**

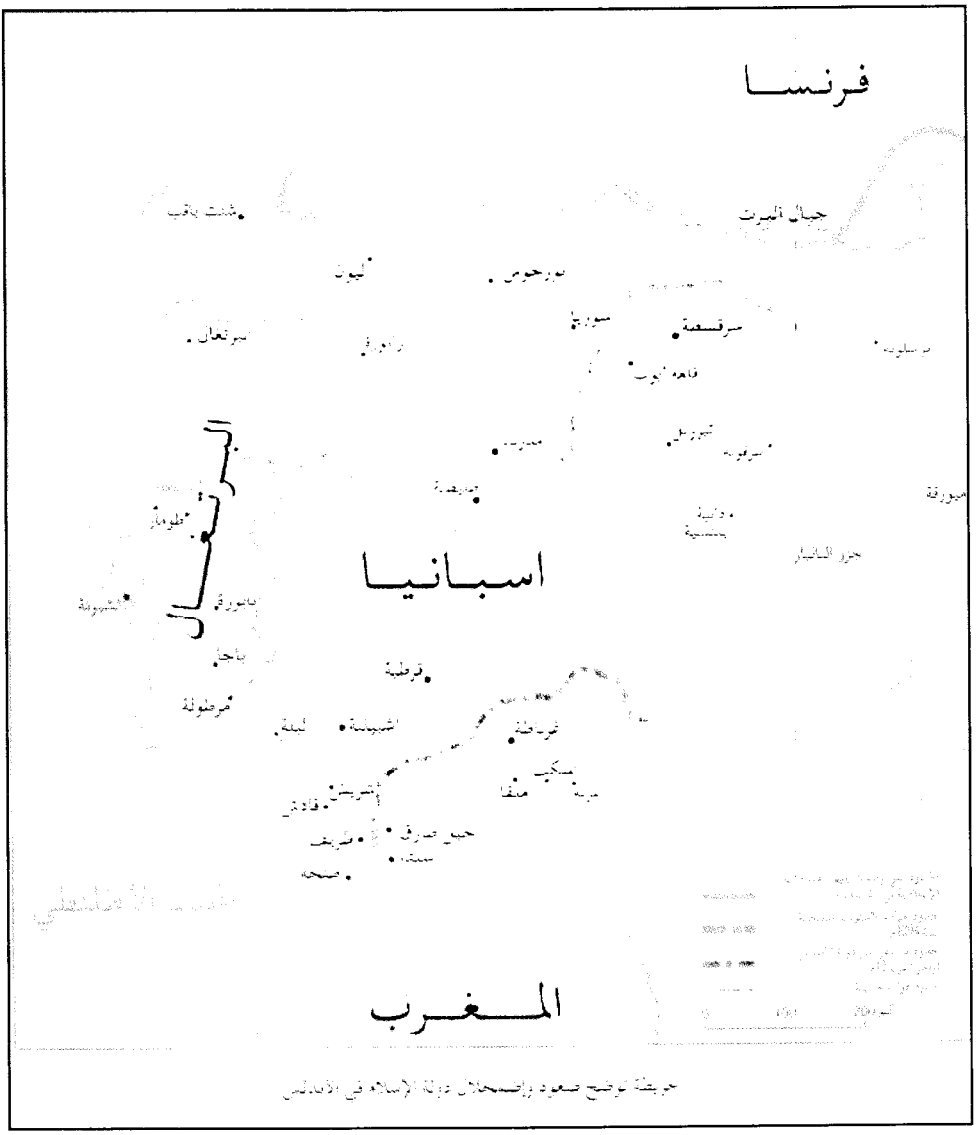

خريطة توضح صعود وإستقلال دولة الإسلام في الأندلس

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين الذي أنالنا من نعمه، وأفاض علينا من كرمه ما جعلنا نصل إلى ما تمنيناه من زيارة الإخوة المسلمين في سائر أنحاء العالم، وجعل زياراتنا خيراً للإخوة المسلمين تدخل البشرى على قلوبهم، وتساعد على إنماء مؤسساتهم الإسلامية من بناء المساجد وتسيير المدارس، وتخصيص المنح الدراسية في العلوم الدينية الإسلامية لأبنائها، حتى لم يبق مكان في العالم لم تطأه قدمي، ولم يصفه قلمي سواء ما كان داخل قارات العالم المعروفة، وما كان خارجاً منها، ولكنه ملحق بها مثل نيوزلندا وفيجي ومملكة تونغا في المحيط الهادئ الجنوبي ومثل مدغشقر وموريشيوس ورينيون الواقعة في البحر الزنجي شرقاً من القارة الإفريقية وجزر مالديف الواقعة إلى الجنوب من الهند.

وجزر ليست ملحقة بقارة من القارات مثل جزر الخالدات التي تسمى جزر الكناري وهي الآن إسبانية التبعية، وجزر نيوفوندلند الواقعة شرق القارة الأمريكية الشمالية وتتبع الآن كندا.

فضلاً عن مناطق داخل الدائرة القطبية الشمالية أو على حافتها في لينين قراد التي صار اسمها (بطرس بورج) وهذه تقع إلى الشمال مباشرة من مدينة موسكو.

وخلاف جزر في بحر الكاريب بين القارتين الأمريكية الشمالية والجنوبية ومناطق في أمريكا الوسطى التي هي أرض يابسة بين الأمريكيتين المذكورتين، وكل ذلك كتبت عنه ما كتبت بما شاهدته أو سمعته متصلاً بما شاهدته، وكانت لذكره فائدة.

وكنت أحرص على زيارة المدن والقرى التي تكون فيها آثار خلفها ملوك المسلمين أو حتى الزعماء الدينيين سواء أكان ذلك في روسيا وآسيا الوسطى أم في الهند والسند.

ولكن من العجيب أن قطراً قريباً منا قرباً نسبياً وهو مليء بآثار المسلمين، وحتى ما لم يبق من آثاره فإن أخباره تملأ كتبنا، وتغني أدبنا وهو بلاد الأندلس في إسبانيا، فذلك البلد لم أذهب إليه متجولاً من بلد إلى بلد ومن قرية إلى مدينة إلى أثر من الآثار الإسلامية، أو مرابع قوم من العلماء والفضلاء والزهاد العباد من قومنا كانوا فيه، وكانت لهم جميع نواحيه.

وإذا أمعنت النظر في سبب ذلك، أي عدم الذهاب إليه لم أجد جواباً في نفسي لنفسي شافياً.

فقد زرت إسبانيا في وقت مبكر ولكنها زيارة عابرة لعاصمتها مدريد ومدينتها الكبيرة الشرقية برشلونة، وذلك في عام ١٣٩٠هـ الذي يوافقه سنة ١٩٧٠م، عندما كنت في المغرب الشقيق في اجتماع لجمعية الجامعات الإسلامية، كما كانت تسمى، وكنت آنذاك أعمل في وظيفة (الأمين العام للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة) فدعانا الأستاذ الشيخ محمد الفاسي وزير الثقافة المغربي التي كانت جامعة الملك محمد الخامس في فاس تتبع وزارته.

وعقدنا اجتماعاتنا في الرباط فانتقلت بعدها إلى طنجة في آخر بلاد المغرب، وكانت آخر المدن في المغرب العربي، بل آخر المعمور المعروف في العالم القديم لقرون طويلة، وهي بلد الرحالة بل شيخ الرحالة العرب والعجم ابن بطوطة رحمه الله.

وبعد طنجة التي لم ألبث فيها إلاّ يومين وكنت أزورها أول مرة، ولكنني التقيت فيها بصديقي الشيخ عبدالله كنون الحسني وهو كبير علماء المغرب الباحثين فكرم وأرسل معي سيارته ومرافقين طافوا بي على معالم طنجة.

ومن هناك من طنجة سافرت إلى (مدريد) عاصمة إسبانيا، ليس معي مرافق، ولم أخبر أحداً بوصولي إليها، لذلك تعبت في الحصول على غرفة في فندق فيها،

ولكن الفرج جاء عاجلاً عندما زرت السفارة السعودية في مدريد، وكان القائم بالأعمال فيها هو الأستاذ محمد السليمان من أسرة السليمان القصيمية النابهة التي يأتي على رأسها الوزير عبدالله بن سليمان الحمدان وزير المالية بل كان وزير المملكة العربية السعودية ردحاً من الزمن لا وزير فيها غيره، لذلك كان الناس إذا قالوا الوزير وأطلقوا هذا الاسم أو الوصف لم ينصرف إلى غيره.

فقد قام الرجل خير قيام، وأرسل معي سيارته إلى بعض ما أريد من معالم مدريد غير أنني لم أقنع بذلك لأن سائقه لم يكن يعرف ما أريده أن يعرفه لذلك خرجت في جولة سياحية عامة (تور) على حافلة كانت مليئة بالسياح من أنحاء العالم، فشفيت النفس من رؤية مدريد.

غير أنني لم أكتب شيئاً عن تلك الرحلة لأنني كنت في فترة فترت فيها همتي عن الكتابة في الرحلات لا عجزاً ولا تعاجزاً، ولكنه عدم الإدراك لأهمية مثل تلك الكتب.

ثم أفضل الأستاذ السليمان فأبرق إلى معتمد بلادنا في مدينة برشلونة ليستقبلني في مطارها، وينزلني في أحد أنزالها ويلازمني حتى أتركها.

وكان ذلك توفيقاً كبيراً لأنني وصلتها في ليل كان قد اشتد برده وغزر مطره، وكنا في شهر يناير شهر البرد والزمهرير في أوروبا.

ثم جعلت زيارة إسبانيا في برنامج آخر رحلة زرت فيها ثلاثاً بل أربعاً من دول جنوب القارة الإفريقية وهي جمهورية جنوب إفريقية (عندما كانت عنصرية) وناميبيا واسوازيلند وليستو، ومن مدينة كيب تاون في جنوب إفريقية سافرت إلى مدينة (ريودي جانيرو) في البرازيل من أجل الإطلاع على أحوال المركز الإسلامي في عاصمتها (برازيليا) الذي تديره رابطة العالم الإسلامي التي

أعمل فيها، ولحضور مؤتمر إسلامي كنت دعيت إليه وألح القائمون عليه بأن أشترك فيه، وقد عقد في مدينة (سان باولو) الضخمة في البرازيل، فغادرت سان باولو في نهاية ذلك إلى مدريد، ولم أدخلها وإنما سافرت من مطارها بالطائرة إلى مدينة (مالقة) ولكنني كنت وحدي، وقد نفد الوقت الذي كنت خصصته للرحلة فأسرعت بالسفر بالحافلة إلى مدينة ماربله (ماربيا الآن)، فلم أبق فيها إلا يوماً واحداً، عدت بعده إلى (مالقه) حيث ركبت من مطارها إلى الدار البيضاء ثم جدة.

وبعد ذلك بفترة وفي عام ١٤١٣هـ الذي يوافق عام ١٩٩٢م سافرت سفرة سياحية مع زوجتي واثنتين من بناتي هما (مريم) وكانت مدرسة للغة الإنجليزية في مدارس الرياض والتي أصغر منها (مي) وكانت طالبة في الكلية آنذاك، فسارفنا معاً من طنجة إلى مدينة (الجزيرة الخضراء) وتجولنا فيها، ومن الجزيرة الخضراء ذهبنا إلى ماربله (ماربيا) ثم عدنا إلى الجزيرة الخضراء فركبنا منها بالسفينة، أو لنقل: إنها العَبَّارة إلى مدينة سبتة المغربية المحتلة من إسبانيا ومن (سبتة) إلى تطوان، وقد قيدت عن هذه الرحلة أشياء ذكرتها في كتاب: (الإشراف على أطراف من المغرب العربي).

وبذلك لم أتجول في الأندلس، لذلك جعلت في برنامج زيارتي بعد زيارة (البرتغال) التي كنت ذاهباً إليها في مهمة تتعلق بعملي، وحسب أمر ملكي وافق فيه الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، على تخصص مبلغ من المال لمساعدة المساجد التي أكثرها أماكن للصلاة وللمشروعات الإسلامية في البرتغال، على أن يتم توزيعها بمعرفة رابطة العالم الإسلامي وبالتشاور مع السفارة.

لقد رأيت كما هي عادتي أن انتهز فرصة زيارة البرتغال والمنطقة لزيارة إسبانيا وأداء مهمة للرابطة، وقد كان زميلنا الدكتور صالح بن محمد السنيدي

مدير المركز الإسلامي في مدريد الذي يتبع رابطة العالم الإسلامي، بمعنى أن رابطة العالم الإسلامي هي التي تديره وتنفق عليه قد ألح عليَّ في زيارة إسبانيا، وقال: لكي تطلع على سير العمل في المركز الإسلامي، وسوف نضع لك برنامجاً مناسباً لما اعتدت عليه في زياراتك للبلدان الأخرى.

وكان الأهم من ذلك أن اطلع على سير العمل في المركز الإسلامي لأن ذلك من صميم عملنا ومسئوليتنا.

وهكذا سافرت من البرتغال إلى إسبانيا في رحلة هذه قصتها والله أعلم.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

إسبانية أم الأندلس؟

هذه البلاد التي تعرف الآن بـ(إسبانيا) كان أسلافنا العرب يسمونها (الأندلس) مع أنهم لم يحكموا تلك البلاد كلها، وإنما امتد حكمهم شمالاً إلى (سنت ياقوب) التي تقع إلى الشمال من مدريد ووصلها المنصور بن أبي عامر فاحتلها وألحقها ببلاد الأندلس.

ويظن بعض القراء أن اسم (إسبانيا) هذا محدث وأن الاسم القديم الأصيل هو الأندلس، والواقع أن الأمر ليس كذلك، وأن علماءنا الأوائل من أهل الأندلس وغيرهم صرحوا بأن اسم هذه البلاد القديم كان (اشبانيا) هكذا بدون تغيير عما يعرف به اليوم إلاّ السين شيناً، ولكن هذه عادة لعرب الأندلس أن يلفظوا بالسين شيناً في الأعلام الأندلسية ومن ذلك عدة أماكن تبدأ أسماؤها بلفظ سانت بمعنى قديس عند الأسبان قد كتبها المسلمون (شانت) بالشين، وحتى غيرها مثل مدينة شنتيرين التي توجد الآن في البرتغال كان عرب الأندلس يسمونها بهذا الاسم واسمها عند المواطنين من أهلها (سنتريم) بالسين المهملة، وقد مررنا بها في رحلتنا في البرتغال، وذكرتها في كتاب: (تجوال في بلاد البرتغال).

بل إن اسم البرتغال الذي لم يكن شهيراً عند عرب الأندلس المتأخرين وهو الذي سميت به تلك البلاد كان معروفاً للعرب ممن أورده بلفظه الشريف الأدريسي الذي عاش في آخر القرن السادس، ولكن العرب اعتبروها جزءاً من الأندلس.

وسوف نورد من النصوص العربية القديمة تحت عنوان (الأندلس) ما يثبت ما ذكرته من أقوال بأن بلاد الأندلس كان يقال لها عند أهل الأندلس الأوائل (إشبانيا).

أما الأندلس فهو اسم قديم ولا يزال الأسبان يحتفظون به منذ القديم، ولكنهم يجعلونه لقسم من بلادهم مخصوص بهذا الاسم، سوف نزوره ونتحدث عن ذلك في موضعه إن شاء الله، ويلفظون به (اندلوسيا) ولكنهم يجعلونه ضيق المحتوى بالنسبة لما كان يمثله عند أسلافنا العرب فيجعلونه جزءاً من جنوب البلاد وهو من أخصب البلاد وأكثرها وأنفسها محاصيل زراعية.

على أية حال فإننا سوف نلتزم بالتسمية العربية القديمة (بلاد الأندلس) ولذلك عنونت هذا الكتاب بهذا الاسم (رحلة الأندلس) وإنما أردت بما ذكرته التنويه على شيء لا يعرفه بعض الناس حتى المثقفين في بلادنا.

الأندلس في المصادر العربية القديمة:

كتب العرب الكثير عن الأندلس مما لو أراد المرء إحصاءه فضلاً عن حصره لأعجزه ذلك حتى إن كتاباً واحداً متأخراً هو (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) يعتبر بحق معلمة أندلسية ومع ذلك لم يستوعب كل ما ذكر الأقدمون فيها، بل لم يستوعب كل ما من شرطه أن يذكره في كتابه من النصوص القديمة.

وكيف يستطيع نقلها بل حصرها ولسان الدين ابن الخطيب الذي ذكره كتب كتاباً في خمسة مجلدات في تاريخ غرناطة وحدها أسماه (الإحاطة بتاريخ غرناطة) وهو كتاب مطبوع ولذلك سوف ننقل نصوصاً قليلة مما ذكره العرب عن الأندلس تكون بمثابة الشواهد لما ذكرناه، واخترت أن أصدرها بما ذكره الشريف الإدريسي الذي هو مغربي المولد ولكن سافر إلى الأندلس وتكلم عليها عن خبرة ومعرفة.

قال الشريف الإدريسي وهو يعرف الأندلس معرفة مشاهدة ودراسة:

وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات، وفي جنوب هذا الجبل تأتي مدينة طليطلة، ومدينة طليطلة مركز لجميع بلاد الأندلس، وذلك أن منها إلى مدينة قرطبة بين غرب وجنوب تسع مراحل، ومنها إلى لشبونة غرباً تسع مراحل، ومن طليطلة إلى شنت ياقوب على بحر الانقليشين تسع مراحل، ومنها إلى جاقا شرقاً تسع مراحل، ومنها إلى مدينة بلنسية بين شرق وجنوب تسع مراحل، ومنها أيضاً إلى مدينة المرية على البحر الشامي تسع مراحل.

ومدينة طليطلة كانت في أيام الروم مدينة الملك ومناراً لولاتها، وبها وجدت مائدة سليمان بن داؤود عليه السلام مع جملة ذخائر يطول ذكرها، وما خلف الجبل المسمى بالشارات في جهة الجنوب يسمى إشبانية وما خلف الجبل في جهة الشمال يسمى قشتالة، ومدينة طليطلة في وقتنا هذا يسكنها سلطان الروم القشتاليين.

والأندلس المسماة (اشبانية) أقاليم عدة ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدن نريد أن نأتي بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى، ولنبدأ الآن منها بإقليم البحيرة، وهو إقليم مبدؤه من البحر المظلم ويمر مع البحر الشامي وفيه من البلاد جزيرة طريف، والجزيرة الخضراء وجزيرة قادس وحصن اركش وبكة وشريش وطشانة ومدينة ابن السليم وحصون كثيرة كالمدن عامرة سنأتي بها في مواضعها.

وقال الحميري صاحب الروض المعطار في أخبار الأقطار:

واسم الأندلس في اللغة اليونانية (اشبانيا)، والأندلس بقعة كريمة طيبة التربة كثيرة الفواكه، والخيرات فيها دائمة وبها المدن الكثيرة والقواعد العظيمة وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والزئبق واللازورد والشب والتوتيا والزاج والطفل.

والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم[1] الذي لا عمارة وراءه، ويقال إن أول من إختط الأندلس بنو طويال بن يافث بن نوح سكنوا الأندلس في أول الزمان، وملوكهم مائة وخمسون ملكاً.

ويقال إن الأندلس خربت وأقفرت وانجلى عنها أهلها لمحلّ أصابهم فبقيت خالية مائة سنة، ثم وقع ببلاد إفريقية محل شديد ومجاعة عظيمة فرقت أهلها، فلما رأى ملك إفريقية ما وقع ببلده اتخذ مراكب شحنها بالرجال وقدَّم عليهم رجلاً من إفريقية ووجّههم، فرمى بهم البحر إلى حائط إفرنجة وهو يومئذ مجوس، فوجههم صاحب إفرنجة إلى الأندلس.

وقيل اسمها في القديم ابارية ثم سميت بعد ذلك باطقة ثم سميت أشبانية من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه اشبان، وقيل سميت بالأشبان سكنوها في الأول من الزمان وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها.

وسميت جزيرة الأندلس جزيرة لأنها شكل مثلث، وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى يكون بين البحر الشامي والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة ايام ورأسه العريض نحو من سبعة عشر يوماً، وهذا الرأس هو في أقصى المغرب

---

(١) هو المحيط الأطلسي.

في نهاية انتهاء المعمور من الأرض محصور في البحر المظلم، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ولا وقف منه بشر على خبر صحيح لسعوبة عبوره وإظلامه وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوايه وهيجان رياحه.

وبلد الأندلس مثلث الشكل كما قلناه ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث، فجنوبها يحيط به البحر الشامي وجوفيها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر صنفٍ من الروم.

وطول الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجب المسمى هيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميل وعرضها ستمائة ميل.

والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدن، والركن الواحد من أركانها الثلاثة هو الموضع الذي فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة.

والركن الثاني شرقي الأندلس بين مدينة تربونة ومدينة برذيل بازاء جزيرتي ميورقة ومنورقة، والركن الثالث حيث ينعطف البحر من الجوف إلى الغرب حيث المنارة في الجبل الموفي على البحر وفيه الصنم العالي المشبه بصنم قادس وهو في البلد ا لطالع على بلد برطانية.

والأندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها أهوازية في عظم جناتها صينية في جواهر معادنها عدنية في منافع سواحلها، وفيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار الأندلسية هرقلش، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس وصنم جليقية والأثر في مدينة طركونه الذي لا نظير له، وفي غربي شنترين على مقدار خمسين ميلاً فيما بين الأشبونة وشنترة في جبل هناك كان

حصناً فيما مضى يوجد الحجر المعروف بالحجر اليهودي، وهو على شكل البلوط سواء من خاصيته تفتيت الحصا التي تكون في المثانة والكلية ويقع في الأكحال، وفي جوفي بطليوس على قدر أر بعين ميلاً معدن المها.

والأندلس دار جهاد وموطن رباط قد أحاط بشرقيها وشمالها وبعض غربها أصناف أهل الكفر.

وروي عن عثمان رضي الله عنه أنه كتب إلى من انتدب إلى غزو الأندلس: أما بعد، فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس، وانكم إن فتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأجر والسلام.

وعن كعب الحَبر أنه قال: يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها يعرفون بنورهم يوم القيامة، ودخل الأندلس رجل واحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال عبد الملك بن حبيب: اسمه المنيذر الإفريقي وإنه يروى عنه عليه السلام أنه قال: (من قال رضيت بالله رباً إلى آخرها فانا الزعيم لآخذن بيده فأدخله الجنة)، ودخلها من التابعين حنش بن عبدالله الصنعاني وهو الذي أسس جامع سرقسطة وكان مع علي رضي الله عنه بالكوفة، فلما قُتِل علي رضي الله عنه انتقل إلى مصر، وقبره بسرقسطة معروف.

ومنهم علي بن رباح اللخمي وعمرو بن العاص وعلقمة بن عامر وأبو عبدالرحمن عبدالله بن زيد الحبلي الأنصاري وعياض بن عقبة الفهري وموسى بن نصير، يقال بكري ويقال لخمي، ويقال إن نصيراً من سبي عين التمر أعتقه صبيح مولى أبي العاص بن أميّة، يقال أصابه خالد في علوج عين التمر وادعوا أنهم من بكر بن وائل فصار نصير وصيفاً لعبدالعزيز بن مروان وأعتقه فمن أجل هذا يختلف فيه.

وعقد الوليد لموسى على إفريقية سنة ثلاث وثمانين وكان مولد موسى سنة تسع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنه.

وكان معاوية رضي الله عنه قد جعل نصيراً أبا موسى على حرسه فلم يقاتل معه علياً رضي الله عنه، فقال له معاوية رضي الله عنه: ما منعك من الخروج على علي رضي الله عنه، ولم تكاف يدي عليك؟ قال: لم يمكن أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكري منك، قال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل.

ومسافة ما يملكه المسلمون من الأندلس ثلثمائة فرسخ طولاً في ثمانين فرسخاً عرضاً والذي يملك منها النصارى مثل ما يملك المسلمون أو أشفّ، ثم حدث فيها من تغلب الثوار ما أضاع ثغورهم وأذهب أكثر بلادهم ولم يبق من تلك إلا الأقل.

وبها الجبال المشهورة والحمّامات الكثيرة.

قال الرازي: أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلش بالشين معجمة بهم سمي البلد ثم عرّب، وكانوا أهل تمجس فحبس الله تعالى عنهم المطر حتى غارت عيونهم ويبست أنهارها فهلك أكثرهم وفرَّ من قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلس وبقيت خالية مائة عام وملكهم اشبان بن طيطش وهو الذي غزا الأفارقة وحصر ملكهم بطالقة، ونقل رخامها إلى اشبيلية وبه سميت فاتخذها دار ملكة وكثرت جموعه، فعلا في الأرض وغزا من اشبيلية إيليا بعد سنتين من ملكة، خرج إليها في السفن وهدمها وقتل من اليهود مائة ألف واسترق مائة ألف وفرَّق في البلاد مائة ألف، وانتقل رخام ايليا وآلاتها إلى الأندلس، والغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس كمائدة سليمان التي ألفاها طارق بن زياد بكنيسة طليطلة، وقليلة الدر التي ألقاها

موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرها من الذخائر كانت مما حـــازه صـــاحب الأندلس من غنيمة بيت المقدس إذ حضر فتحها مع بخت نصر.

واتصلت مملكة الأشبان إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً، ثم دخل عليهم من حجر رومة أمّة أخرى تعرف بالشبونقات وذلك زمـــان مبعـــث المسيح عليه السلام، فملكوا الأندلس وإفرنجة معها واتخذوا دار مملكتهم مدينـــة ماردة واتصلت مملكتهم إلى أن ملك منهم أربعة وعشرون ملكاً، ويقال إن منهم كان ذو القرنين.

ثم دخل على هؤلاء الشبونقات أمّة القوط فغلبوا على الأندلس واقتطعوهـــا من يومئذ عن صاحب ماردة وانفردوا بسلطانهم واتخـــذوا مدينـــة طليطلـــة دار سلطانهم وخنشوش، ملك القوط هو أول من تنصّر من هؤلاء فدعا الحـــواريين ودعا قومه إلى النصرانية، وكان أعدل ملوكهم وأحسنهم سيرة، وهو الذي أصّل النصرانية، والإنجيلات والمصاحف الأربعة من انساخه وجمعه وتثقيفه، فتنافست ملوك القوط بالأندلس بعده حتى غلبهم عليها العرب، وعدد من ملك منهم إلـــى آخرهم وهو لذريق ستة وثلاثون ملكاً.

ولذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب في القوط وإنما نـــال الملك من طريق الغصّب والتسور، ولما مات غيطشة الملك وكان أثيـــراً لديـــه فاستصغر أولاده واستمال طائفة من الرجال مالوا معه، فانتزع الملك مـــن ولـــد غيطشة، وغيطشة آخر ملوك القوط بالأندلس ولي سنة سبع وسبعين من الهجرة فملك خمس عشرة سنة.

وكان من سير الأعاجم بالأندلس أن يبعث أكابرهم بأولادهم إلى بساط الملك ليتأدبوا بأدبه وينالوا من كرامته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضاً استئلافاً لآبائهم وحمل صدقاتهم وتولي تجهيز إناثهم، فاتفق أن فعل ذلك بليان عامل لذريق على سبتة، وجَّه ابنة له بارعة الجمال تكرم عليه، فوقعت عين لذريق عليها فأعجبته فاستكرهها على نفسها، واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً بمكاتبة خفية، فأحفظه شأنها وقال: ودين المسيح لأزيلن سلطانه، فكان امتعاضه من فاحشة بنته السبب في فتح الأندلس للذي سبق من قدر الله سبحانه.

ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في شهر مجيئه في ذلك الوقت، وسأله عن السبب في ذلك، فذكر له أن زوجته أشتد شوقها إلى ابنتها التي عنده وتمنت لقاءها قبل الموت وألحت عليه في إحضارها وأحبَّ إسعافها بها، وسأل الملك إخراجها إليه وتعجل إطلاقه للمبادرة بها ففعل، وأجاز الجارية وتوثق منها بالكتمان عليه وأفضل على أبيها، فانقلبت عليه.

وذكر أنه لما دخل عليه قال له لذريق: إذا أنت قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات[1]، فقال له: أيها الملك، والمسيح لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك بمثلها قط- يعرض له بما أضمره من السعي في إدخال رجال العرب الأندلس عليه وهو لا يفطن- فلم يتنهنه يليان إذ وصل سبتة أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير، فأتاه بإفريقية، فحرَّضه على غزو الأندلس، ووصف له حسنها وفوائدها وفضلها وهوَّن عليه حال رجالها، فعاقده موسى على الانحراف إلى المسلمين وسامه مكاشفة أهل ملته من أهل الأندلس، ففعل يليان ذلك وحل بساحل

---

(١) كأنما هي الهدايا.

الجزيرة الخضراء فقتل وسبى وغنم وأقام بها أياماً يشن الغارات، وشاع الخبر عند المسلمين، فأنسوا ببليان، وذلك عقب سنة تسعين.

وكتب موسى إلى الوليد يعلمه بما دعاه إليه يليان ويستأذنه في افتتاح الأندلس، فكتب إليه الوليد أن خُضْها بالسرايا حتى تختبر شأنها ولا تغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعه إنه ليس ببحر وإنما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه، فكتب إليه: وإن كان فلا بُدَّ من اختباره بالسرايا، فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البربر اسمه طريف بن مالك المعافري يكنى أبا زرعة، في أربعمائة رجُل يغير بهم، ونزل في الجزيرة المنسوبة إليه.

ثم أغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها، فأصاب شيئاً لم يرّ موسى وأصحابه مثله حسناً وأصاب مالاً جسيماً وأمتعة، وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين، فلما رأى ذلك الناس تسرعوا إلى الدخول، فدعا موسى مولى له كان على مقدماته يسمى طارق بن زياد، قيل هو فارسي وقيل هو من الصدف وقيل ليس بميل وقيل هو بربري من نفزة، فعقد له وبعثه في سبعة آلاف من البربر، والموالي ليس فيهم عربي إلا القليل، فهيأ له يليان المراكب وحمل بجبل طارق يوم سبت في شعبان من سنة اثنين وتسعين وهو من شهور العجم شهر أغشت، وقيل في رجب من السنة، في اثني عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً لم يكن فيهم من العرب إلا قليل.

وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة قالت: إنه كان لي زوج عالم الحدثان وكان يحدّث عن أمير يدخل بلدنا هذا ويصفه ضخم الهامة وأنت كذلك، ومنها أن بكتفه الأيسر شامة عليها شعر فإن كانت بك هذه الشامة فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة على كتفه كما ذكرت العجوز، فاستبشر بذلك هو ومن معه.

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به فبشّره النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد.

وفي حكاية أنه لما ركب البحر غلبته عينه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: (يا طارق تقدم لشأنك)، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه، فهبَّ من نومه مستبشراً وبشّر أصحابه ولم يشك في الظفر.

فنزل بالجبل شأناً للغارات في البسائط ولذريق يومئذ غائب في غزاة له واتصل به الخبر فعظم عليه أمره وفهم الخبر الذي منه أتى مع يليان، وأقبل مبادراً في جموعه حتى احتل بقرطبة أياماً والجنود تتوافى عليه، وكان لحينه ولي شئبت بن الملك غيطشة ميمنته وأخاه ميسرته وهما موتوران قد سلبهما ملك أبيهما، فبعثا إلى طارق يسألانه الأمان إذا مالا إليه عند اللقاء بمن معهما وعلى أن يسلم إليهما ضياع والدهما غيطشة إن ظفر، فأجابهما طارق إلى ذلك، وعاقدهما عليه فلما التقى الجمعان انحاز هذان الغلامان إلى طارق فكان ذلك سبب الفتح، وكان الطاغية لذريق في ستمائة ألف فارس.

قال:

وافتتحت الأندلس في أيام الوليد بن عبدالملك فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملة الحنيفية، وكان عمر بن عبدالعزيز معتنياً بها مهتماً بشأنها وهو الذي قطعها عن نظر والي إفريقية وجرد لها عاملاً من قبله.

انتهى كلام الحميري.

قبل الوصول إلى إسبانيا

لمحة عن إسبانيا:

تعد إسبانيا إحدى الدول المهمة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وهي ثانية دولة أوروبية مساحة إذ تبلغ ٥٠٤.٤٩٦ كلم مربعاً منها ٤٩٢.٢٠٩ كلم مربعاً داخل شبه جزيرة ايبيريا وتبلغ مساحة جزر البليار ٥.٠١٤ كلم مربعاً ، وجزر الكناري ٧.٢٤٢ كلم مربعاً ، وسبتة ١٩ كلم مربعاً ، ومليلة ١٢.٣ كلم مربعاً وعليهما نزاع مع المغرب. كما يصل عدد سكان إسبانيا ٣٩ مليون و٧٠٠ ألف نسمة، وحسب الدراسات فإنها ستدخل القرن ٢١ بـ: ٤٠ مليون و٨٠٠ نسمة، منهم ٦ ملايين تتجاوز أعمارهم ٦٥ عاماً.

عدد العاملين في إسبانيا ١٢.٤٥٧.٧٠٠ شخصاً والعاطلين ٢.٦٨٦.٧٠٠ نسمة أي بنسبة ١٧% من إجمالي من هم في سن العمل.

وكان عدد العاطلين سنة ١٩٧٥م ٥٤٠ ألف شخص ووصل عام ١٩٨٥م إلى ٢ مليون و ٩٧١ ألفاً.

عاشت إسبانيا حرباً أهلية طاحنة اندلعت عام ١٩٣٦م واستمرت حتى عام١٩٣٩م قاسى فيها الأسبان جوعاً شديداً إذ كانوا يأكلون البرتقال ظهراً وقشره ليلاً.

وعانى مواليد هذه الفترة من لين في العظام وارتفعت معدلات الوفيات بين الأطفال.

وانتصر الجنرال فرانكو في نهايتها وحكم البلاد وهي مفلسة اقتصادياً ومنقسمة داخلياً ومعزولة دولياً. وفر الكثيرون من الأسبان من ذوي الأيديولوجيات اليسارية

إلى الإتحاد السوفيتي وبعض دول أوروبا وأمريكا اللاتينية وعلى وجه الخصوص المكسيك حيث أقاموا جمهورية في المنفى.

وحكم فرانكو البلاد بسياسة الحديد والنار ومنع إقامة الأحزاب. وأدانت الأمم المتحدة هذا النظام الديكتاتوري وسحبت دول كثيرة سفراءَها من إسبانيا.

بدأ فرانكو إعادة بناء البلاد وكسر هذه العزلة الدولية حيث انضمت إسبانيا إلى منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٥١م، وإلى اليونسكو في عام ١٩٥٢م، وإلى منظمة العمل الدولية في عام ١٩٥٣م.

وفي نفس هذا العام أبرمت اتفاقية عسكرية مع الولايات المتحدة تقيم بمقتضاها أمريكا قواعد عسكرية على الأراضي الإسبانية مقابل حصول إسبانيا على مساعدات وقروض اقتصادية وقد إنتهى العمل بهذه الاتفاقية في ديسمبر ١٩٨٨م.

وانضمت إسبانيا إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٥٥ وللبنك الدولي وصندوق النقد الدولي في عام ١٩٥٨ ، وقدمت أول طلب لها للتعاون مع الجماعة الأوروبية في فبراير ١٩٦٢ ووقعت على إتفاق مع هذه الجماعة كي تحظى بمعاملة تفضيلية عام ١٩٧٠ وتجدد في عام ١٩٧٣ وطلبت الانضمام رسمياً لهذه الجماعة في عام ١٩٧٧ وتحقق لها ذلك في عام ١٩٨٦م.

وحققت إسبانيا خلال حكم الجنرال فرانكو تقدماً ملحوظاً وكانت عند وفاته في عام ١٩٧٥ عاشر دولة صناعية في العالم وذلك بفضل الخطط الاقتصادية والنهضة السياحية وكفاح الأسبان وجدهم ، وكان فرانكو يصر على وصف نظامه بالانتقالي ومنصبه رئيس دولة إسبانيا أي أنها لم تكن جمهورية ولا ملكية ، وفي عام ١٩٦٩ قرر فرانكو أن يكون خوان كارلوس الأول أمير إسبانيا في

ذلك الحين خلفاً له في رئاسة الدولة ، وكان هذا الأمير قد ولد في روما وقدم إلى إسبانيا عام ١٩٤٨ لتلقي تعليمه وتبناه ورعاه فرانكو.

وبدأت إسبانيا مرحلة جديدة في تاريخها الحديث بعد وفاة فرانكو في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥ وأصبحت دولة ملكية برلمانية تقوم على تعدد الأحزاب، وصدر دستور جديد للبلاد وافق عليه الشعب إثر استفتاء عام في ديسمبر ١٩٧٨ وأرسى هذا الدستور أسس الحياة الجديدة في البلاد ووفر ضمانات وحقوق للشعب ، ونص على إقامة إنتخابات عامة تتقدم لها مختلف الأحزاب كل ٤ سنوات ، أحقية الذي يفوز بأغلبية الأصوات في تشكيل حكومة تدير أمور البلاد وتشكيل برلمان من مجلسين الأول للنواب والثاني للشيوخ وتقسيم البلاد إلى ١٧ إقليماً لكل منها حكومة ، تشكل إثر إقامة انتخابات عامة داخله وبعد موافقة البرلمان الخاص بهذا الإقليم.

وانضمت إسبانيا إلى الحلف الأطلسي في عام ١٩٨١م، وأجرت استفتاءاً شعبياً في ١٢ مارس ١٩٨٦ لتأكيد هذا الانضمام، ورأست الجماعة الأوروبية لأول مرة منذ انضمامها لها في الفترة من أول يناير إلى ٣٠ يونيو ١٩٨٩م، وباتت الآن دولة لها وزنها في المسرح الاقتصادي والسياسي الأوروبي والدولي. ودخلت تماماً في الفلك الأوروبي والأمريكي رغم أن لها مواقف دفاعية كثيرة لصالح الدول النامية والدول العربية ودول أمريكا اللاتينية، ووصلت إسبانيا إلى مرتبة عالمية من الخدمات السياحية، إذ أن عدد السياح في السنة الأخيرة وصل إلى أكثر من ٥٣ مليون شخص، وعدد الإسبان الذين عادة يقضون إجازتهم خارج البلاد يصل لـ ١٦ مليون شخصاً.

والشعب الإسباني كبقية شعوب دول البحر الأبيض المتوسط مرح ومنفتح وينفق ببذخ ويكرم الضيف ، ويعيش حياته في الشارع تقريباً وقلّما يذهب إلى داره قبل ساعات نومه.

وتضم إسبانيا ٥٦ محافظة وتوجد آثار عربية إسلامية في قرطبة وغرناطة وأشبيلية وطليطلة وترويل وفالنسيا.

ومدينة مدريد هي عاصمة البلاد منذ ١٥٦١ م وتبلغ مساحتها ٦٠٠٧ كلم مربعاً وترتفع عن سطح البحر بـ ٦٥٠ متراً ، وأصل هذا الاسم عربي " مجريط "[١].

ويوجد في إسبانيا ١٠ مدن تحمل اسم مدريد وفي أمريكا اللاتينية ٢٢ مدينة وفي الولايات المتحدة ٩ مدن وفي فرنسا والفيلبين مدينة في كل منها.

وتنتمي العاصمة الإسبانية إلى محافظة مدريد التي يعيش فيها ٥ مليون نسمة، أما المدينة نفسها فعدد سكانها ٣.١٢١.٠٠٠ نسمة، وبها ٧٥٠٠ شارعاً و ١٦٥ خطاً للأتوبيس وأكثر من ١٦ ألف سيارة أجرة ، ويوجد بها قصر إقامة الملك وقصر لضيافة ملوك ورؤساء الدول الأجنبية وقصر إ قامة رئيس الحكومة ومقر مجلس النواب ومجلس الشيوخ وقصر كبير للمؤتمرات، ومطار دولي وآخر للخطوط الداخلية وجسر جوي يربط العاصمة بمدينة برشلونة ويبعدون عن وسط العاصمة حوالي ١٢ كلم.

كما يوجد بها عدد من محطات القطارات التي تربطها ببقية المدن الإسبانية ومختلف العواصم الأوروبية ومحطات للأتوبيسات التي تربط مدريد بمدن إسبانيا الأخرى وبعض العواصم الأوروبية.

---

(١) يراد بالعربي أن العرب الذين حكموا اسبانيا هم الذين اسموها بهذا الاسم، وإلا فهو من اللغة البربرية.

وتستقبل مدريد سنوياً أكثر من ٣ ملايين سائحاً، وتتسم بنشاط تجاري واقتصادي بارز ويمكن للزائر أن يجد كل ما يحتاج إليه دون مشقة، فهناك الآلاف من المحال التجارية والمطاعم والمقاهي والفنادق والمراكز التجارية ، وعادة تفتح المحال أبوابها من العاشرة صباحاً إلى الثامنة ليلاً وهناك محال تجارية كبيرة تفتح في هذه المواعيد من الاثنين إلى السبت وأحياناً أيام الأحد . كما توجد محال يطلق عليها اسم " VIPS " مفتوحة جميع أيام الأسبوع حتى الثالثة فجراً تبيع الكتب والأطعمة والحلويات والهدايا.

وتقدم غالبية الفنادق في مدريد خدمات تأجير السيارات والخدمات البريدية والتيلكس والفاكس ، وهناك مقر رئيسي لهذه الخدمات هو قصر الاتصالات الواقع في ميدان ثيبيليس (Cibeles) في منتصف المدينة ويعمل لمدة ٢٤ ساعة بالإضافة إلى مكاتب أخرى كثيرة داخل المدينة ولها مواعيد عمل رسمية.

ويستطيع زائر إسبانيا أن يتناول أي طعام يحلو له إذ أن بها جميع أنواع الأطعمة الموجودة في العالم ، كما أن الأطعمة الإسبانية كثيرة ومتنوعة سواء من اللحوم أو الأسماك أو الطيور وعلى المسلم الالتزام بما هو مشروع وحلال في دينه وهو ميسر وموجود سواء في المطاعم العربية أو غيرها .

ورغم أن إسبانيا ثاني دولة في العالم استهلاكا للأسماك بعد اليابان إلاّ أنها تستورد بعض احتياجاتها من الخارج ومن أشهر الأطباق الإسبانية طبق " البائية وأصل هذه الكلمة عربي البقية" ويتكون من الأرز والفاصوليا الخضراء والفلفل والبصل ولحم الدجاج وبعض الأسماك وعادة يأكله الأسبان في عطلة نهاية الأسبوع .

كما أنه من الأطباق الثابتة في غالبية المطاعم ، بالإضافة إلى وجود مطاعم متخصصة فيه وهو طبقها الوحيد في مدريد.

وعلى رغم أن المحلات الكبرى لا تغلق أبوابها طوال العام سوى أيام الأحد والعطلات الرسمية إلا أن هذا لا ينسحب على المطاعم والمحلات الصغرى وكل مطعم في مدريد يختار يوماً من أيام الأسبوع كي يكون إجازته الأسبوعية.

وخلال شهر أغسطس تغلق مطاعم كثيرة أبوابها لفترة تتراوح بين أسبوعين وشهر ، ويمكن لزائر مدريد أن يتابع أخبار وأحداث بلده والعالم من خلال الصحف العالمية التي تصدر بكل اللغات بما فيها اللغة العربية والمتوفرة في محلات " VIPS " والكورت إنجلز وغيرها.

ويعتز الأسبان بلغتهم كثيراً وقلما تجد صحفاً أو مجلات أو وسائل إعلامية أخرى بغير هذه اللغة.

كما أن قدراً كبيراً من قنوات التلفزيون الإسباني تقدم برامجها باللغة الإسبانية والأجنبي منها مدبلج وقلما تجد مادة تلفزيونية تبثها هذه القنوات بلغتها الأصلية.

تقرير عن الأقلية المسلمة في إسبانيا:

تتكون الأقلية المسلمة في إسبانيا في غالبيتها من الحرفيين والصناع والعمال والتجار الذين قدموا من أقطار عربية وإسلامية، حيث دفعت بهم الظروف الصعبة إلى الهجرة، بالإضافة إلى الطلبة الذين وفدوا إلى إسبانيا من أجل طلب العلم، وقد استقر نسبة كبيرة منهم وخاصة من السوريين و الفلسطينيين منذ الستينات والمغاربة منذ التسعينات.

وحسب المصادر الرسمية للدولة فإن عدد المسلمين في إسبانيا يصل تقريباً إلى ٦٠٠.٠٠٠ نسمة، ولكن بسبب الهجرة السرية وغير القانونية وخاصة من دول المغرب العربي (المغرب والجزائر) وبعض الدول الإفريقية فإن عددهم قد تضاعف بشكل ملموس، وخاصة في السنوات الأخيرة، حيث شهدت الهجرة السرية تدفقاً ملحوظاً، يشكل المغاربة و الجزائريون منهم السواد الأعظم في هذا البلد وغالبيتهم من الحرفيين والصناع والعمال والتجار تليهم الجالية السورية والفلسطينية وهي طبقة مثقفة ويعمل الكثر منهم في مجال الطب والأعمال الحرة، بالإضافة إلى مسلمي سبتة ومليلية الواقعتين تحت الاحتلال الإسباني، أما المسلمون الإسبان فعددهم يقدر بما يزيد على ٢٥.٠٠٠ ويتمركزون في إقليم الأندلس (غرناطة، قرطبة وإشبيلية ومالقا).

وتعتبر نسبة المسلمين في إسبانيا ضعيفة جداً بالمقارنة مع نسبتهم في بعض دول الاتحاد الأوروبي، وتتوزع الأقلية المسلمة في جميع الأقاليم وعددها سبع عشرة وخاصة في إقليم كطلونيا (برشلونة ونواحيها) ومدريد والاندلس ومرسية وبلنسية وإقليم الباسك وجزر الكناري.

موقع الإسلام في قانون الدولة:

صدر قانون حرية الأديان سنة ١٩٦٧م يخول بموجبه تسجيل المراكز والجمعيات الدينية في سجل الهيئات الدينية بوزارة العدل الإسبانية، وقد مثل الدستور الإسباني لعام ١٩٧٨هـ لدى صياغته لدولة ديمقراطية تعددية تحولاً عميقاً في موقف الدولة التقليدي تجاه الحدث الديني، حيث أرسى مبادئ المساواة والحريات الدينية كحقوق أساسية، وهذه الحقوق التي كانت تعتبر أصلاً كحقوق فردية للمواطنين أصبحت تأخذ أبعادها لتشمل الأديان أو المذاهب التي ينضم المواطنون إليها لممارسة الحقوق الدينية من خلال العمل الجماعي.

كما أن قانون الحريات الدينية ينص على إمكانية قيام الدولة بتحديد التعاون بين هذه الأقليات الدينية بواسطة اتفاقيات تعاون مع هذه الأخيرة عند تسجيلها في سجل المؤسسات الدينية، إضافة إلى تميزها بعمق جذورها في المجتمع الإسباني ويعدد المعتنقين لها وانتشار عقيدتها، وهذا الوضع ينطبق على حالة الدين الإسلامي بصفته الديانة الثانية بعد الكاثوليكية وهو الدين السائد في إسبانيا والذي يتمتع بعراقة أصيلة وتاريخية فيها وبأهمية بارزة في تكوين الهوية الإسبانية.

ويمثل الدين الإسلامي مجموعة من المؤسسات والهيئات الدينية المسجلة في وزارة العدل والمنضوية إلى اتحادين هما:

- الفدرالية الإسبانية للهيئات الدينية الإسلامية.
- اتحاد الجمعيات الدينية في إسبانيا.

وقد قامتا بتكوين هيئة دينية (اللجنة الإسلامية) مسجلة كهيئة تمثيلية للإسلام في إسبانيا أمام الدولة لإجراء المفاوضات والتوقيع والمتابعة فيما يخص الاتفاقيات المبرمة.

وبعد المفاوضات تم التوصل إلى توقيع اتفاقية تعاون بين الدولة واللجنة الإسلامية وذلك بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٩٢م، وصادق مجلس النواب عليها، وبذلك أصبح الإسلام ديناً رسمياً معترفاً به من طرف الدولة. (مرفق صورة من اتفاقية التعاون بين الدولة واللجنة الإسلامية).

ملحوظة:

تم توقيع اتفاقيات تعاون مماثلة مع بقية الأقليات الدينية (اليهودية والبروتستانت) بنفس التاريخ في حفل أقيم في وزارة العدل الإسبانية.

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية:

بعد الانفتاح الديمراطي عززت إسبانيا مكانتها ضمن المجموعة الأوروبية وأصبحت قوة اقتصادية داخل الاتحاد الأوروبي ومنحت المهاجرين القانونيين إليها امتيازات وحقوقاً (حق الإقامة والعمل، والتأمينات الاجتماعية، والتأمينات ضد البطالة)، مما أدى إلى تدفق أعداد كبيرة من المهاجرين المسلمين إليها وخاصة من دول شمال إفريقيا بحثاً عن تحسين أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

وبما أن معظم الأقلية يشتغلون في المهن الريفية والزراعية والخدمات المتواضعة والأشغال الصعبة، فإن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية متردية

بشكل ملحوظ بالإضافة إلى ارتفاع نسبة البطالة في صفوف الأقلية المسلمة مما نتج عنه تورط بعض أبنائها في بيع المخدرات والسرقات وغيرها، ويتجلى هذا بشكل واضح أثناء زيارة مندوب المركز الإسلامي في مدريد للسجناء والاطلاع على نوعية الجرائم المقترفة من طرف ابناء الأقلية المسلمة، وكذلك أثناء توزيع المساعدات الغذائية على الأسر الفقيرة والمحتاجة، ونستطيع أن نؤكد بصورة إجمالية أن طبيعة الاستخدام للعمال في إسبانية متردية وأدت إلى:

- عدم الاستقرار النفسي والاجتماعي.
- التعرض للأذى والاضطهاد والتهديد بالطرد في بعض الأحيان.

وانطلاقاً من هذه الوضعية فإن مستقبل الأقلية المسلمة في إسبانيا يتوقف على عدة عوامل منها:

- طبيعة المركز الاجتماعي الذي تحتله الأقلية في المجتمع الإسباني.
- التضامن والتكافل الإسلامي في حماية وحفظ المهاجرين من طرف المؤسسات الإسلامية.
- إنشاء مصالح اقتصادية تنموية.

الأوضاع التعليمية:

في هذا الاطار يمكن تقسيم الأقلية المسلمة في إسبانيا إلى قسمين:

١- الجيل الاول (الآباء والأمهات).

٢- الجيل الثاني والثالث (الأولاد).

وبالنسبة للجيل الأول فيمكن تقسيمه أيضاً إلى فئتين:

- فئة مستواها التعليمي متدن وتتمثل في العمال والحرفيين والباعة المتجولين ونسبتها عالية.
- فئة مثقفة، ممثلة في الأطباء والمهندسين ورجال الأعمال والطلبة الوافدين إلى إسبانية بقصد الدراسة، ونسبتها قليلة.

وفيما يخص الجيل الثاني فإن التربية والتعليم هما الموضوعان الرئيسيان من بين مشكلات الجيل الثاني والثالث من أبناء الأقلية، فهم يتلقون قسطاً من تربيتهم وتعليمهم في المدارس الحكومية، لكن المدرسة في الوقت نفسه تخلق لهم بعض المشكلات أثناء الدراسة وتزيد في حيرتهم حين تؤدي دراستهم إلى الفشل ولا تعينهم على الالتحاق بسوق العمل المتميز.

وتدل الإحصاءات على أن الكثير من أبناء الأقلية المسلمة لا يذهبون إلى المدارس الثانوية، فإن ذهبوا فإنهم ينجذبون إلى معاهد التدريب المهني ولا يدخل في التعليم الثانوي والجامعي إلى قلة قليلة منهم.

ومن بين هذه الصعوبات نذكر:

- عدم استطاعة الوالدين بصورة عملية متابعة المسيرة التعليمية لأبنائهم وبالتالي ينمون في مناخ ثقافي متدن.
- اضطراب العلاقة بين الأبناء والآباء من جراء التربية التي يتلقاها الأبناء في المدارس الإسبانية وهي تختلف في طبيعتها وأصولها عن تربية الآباء.
- عدم الاستقرار الأسري.

- رضا كثير من الآباء بالاندماج السلبي لأبنائهم في المدارس الحكومية وعدم إدراكهم بخطورته المستقبلية.
- صعوبة التلاؤم المباشر لأبناء الأقلية في المدارس من حيث السن والدراسة والذين تلقوا في الأصل مرحلة معينة من التعليم في بلادهم الأصلية ويعود هذا إلى الضعف في اللغة وفقدان لغة المخاطبة مع المناهج التعليمية في البلد المضيف.
- ضياع اللغة العربية لدى الجيل الثاني والثالث لأن الأمهات غير عربيات وعجز الكثير من الأسر المسلمة عن إدراك هذا الخطر.

ورغم اعتراف إسبانيا بالدين الإسلامي وتوقيع اتفاقية تعاون بين الدولة واللجنة الإسلامية التي تنص في أحد بنودها على تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي لأبناء الأقلية المسلمة في المدارس الحكومية من قبل مدرسين تدفع الدولة رواتبهم وضمانهم الاجتماعي، فإن المشروع ظل حبراً على ورق منذ توقيع اتفاقية التعليم في سنة ١٩٩٦م.

والسبب في ذلك راجع إلى الخلاف القائم بين الفدرالية واتحاد الجمعيات الإسلامية في إسبانيا (اللجنة الإسلامية) مما ينذر بخطر عظيم على مستقبل الأجيال الصاعدة في إسبانيا ويخشى عليهم من الانسلاخ عن هويتهم الثقافية الإسلامية، فهم يتعرضون يومياً في المدرسة والشارع وفي البيت عبر وسائل الإعلام إلى أنواع شتى من الضغوط تجرهم جراً إلى تيار التغريب والذوبان والاندماج في المجمع الإسباني، وقد تزداد هذه الوضعية تشابكاً إذا كان الأطفال من آباء مسلمين وأمهات أوروبيات فيعيشون انفصاماً في شخصيتهم وانشطاراً محيراً بين ثقافتين وتكون الغلبة في أغلب الأحيان للثقافة الغربية.

أما المؤسسات التعليمية العربية الخاصة فتتمركز في العاصمة مدريد فقط وهي:

- المدرسة العراقية.
- المدرسة الليبية.
- المدرسة السورية.

ولا يستفيد منها إلى قلة قليلة من أبناء الأقلية المسلمة المتواجدة في مدريد وضواحيها.

وتبقى مهمة المسؤولية ملقاة على عاتق المراكز الإسلامية والثقافية والمساجد والجماعات المختلفة التي تبذل جهوداً مشكورة في تعليم أبناء المسلمين اللغة العربية والتربية الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم ضمن المدارس التكميلية في نهاية الأسبوع على ما في برامجها من ضعف وبعد عن المنهجية العلمية وعدم تصور علمي لطبيعة الحاجة التي يجب توفيرها للتعليم والتربية.

كما أن الأسرة تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية فهي لو حافظت على عاداتها وتقاليدها الإسلامية ولو حرصت على تربية أبنائها تربية إسلامية وخاطبتهم باللغة العربية دائماً لأمكنها التخفيف من هذا الوضع المتردي.

ومن جهة أخرى لابد من إلقاء الضوء على الوسائل والمناهج المتبعة في تعليم أ بناء المسلمين، من حيث اختلاف المناهج والطرق من ناحية وانعدام الكتاب والوسائل التعليمية من ناحية أخرى، وخاصة أن هذه الدروس تعطى غالباً في أوقات راحة التلميذ الذي إذا ما أحسّ بنقصان الفائدة منها نقص شغفه بها ومن ثم يتحتم علينا توفير كل الوسائل وأسباب التشجيع وخلق محيط مشوّق حتى يقبل هذا التلميذ بكل حماس على دروس اللغة العربية.

ويمكن أن يتم ذلك بما يلي:

- ايجـــاد محيط إســـلامي وتوطيد المحبـــة بـــين التلميـــذ والمـــدرس والمدرسة أو المركز أو المسجد.
- تسخير الوسائل العصرية المفيدة لاستغلال كل الفرص المتاحة حتى يكـــون هـــذا التعليم ناجحاً وفعالاً (عرض أفلام وثائقية إسلامية مفيدة وغيرها).
- وضع مقررات موحدة انطلاقاً من دراسة معمقة تراعي جميـــع الجوانـــب العلمية التربوية والأهداف الرئيسية لها.
- وضع كتب إسلامية موحدة المضمون عصرية الأسلوب كي تكون مشوقة وناجحة.
- محاولة الاستفادة من جهود المنظمات المختصة مثل الإيسيســـكو بالربـــاط التي قطعت أشواطاً محمودة في هذا المضمار.

مع الإشارة إلى أن المدرسين العاملين على مختلف درجاتهم لم يؤهلوا في الأصل للقيام بمهام تعليمية في وسط الأقلية ومن ثم يواجهون عنـــد مباشـــرتهم عملهم الجديد صعوبات جمّة وهم مع ذلك قليلـــو العـــدد والعـــدة والإمكانـــات ويطالبون بما فوق قدراتهم.

كما أن وسائلهم التعليمية إذا ما قارناها بالوسائل المتوفرة فـــي المـــدارس الحكومية نجدها بدائية بصورة لا ترغب التلميذ في الإقبال علـــى تعلـــم اللغـــة العربية وعليه نجد المدرس نفسه وتلميذه في حيرة.

الأوضاع الدينية والثقافية:

الأوضاع الدينية:

تأتي الأقلية المسلمة في إسبانيا على رأس قائمة الأقليات الدينية قبل اليهود والبروتستانت، والإسلام هو ثاني الديانات انتشاراً بعد الكاثوليكية في البلاد، وبعد توقيع اتفاقية التعاون بين الدولة واللجنة الإسلامية في إسبانيا بصفتها الناطق الرسمي للمسلمين أمام الحكومة الإسبانية، أصبح المسلمون يتمتعون نظرياً بالحرية الدينية وعملياً بقدر زهيد منها، وهذا راجع إلى الخلاف القائم بين الفدراليين منذ سنة ١٩٩٢م (تاريخ توقيع الاتفاقية) والتي تنص في هذا المجال على:

- تمتع أماكن العبادة (الجماعات الدينية والمساجد والمصليات) المنتمية إلى اللجنة الإسلامية إلى إسباينا بالحصانة وفقاً للنصوص المحددة في القانون.
- تمتع المقابر الإسلامية بالمكاسب القانونية بحيث يحق للجنة الإسلامية الحصول على قطع من الأراضي في مقابر البلديات لإقامة مقابر إسلامية، وكذلك بحقها بإقامة مقابر إسلامية خاصة مع تطبيق الشعائر الإسلامية وفق شريعتنا الإسلامية بالنسبة لتجهيز الموتى (الغسل التكفين والصلاة على الميت) والدفن والجنائز والاعتراف أيضاً بحق نقل جثث موتى المسلمين الذين دفنوا في مقابر البلديات إلى المقابر التابعة للمؤسسات الإسلامية التابعة للجنة الإسلامية أو نقلهم إلى بلادهم الأصلية.
- تمتع القائمين على العمل الإسلامي والأئمة والدعاة في المؤسسات الإسلامية بالضمان الاجتماعي حيث تقوم هذه الأخيرة بتحمل كافة الواجبات المبيتة لأصحاب العمل ضمن النظام العام للضمان الاجتماعي.

- لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يجبر الأئمة والمسئوولون الإسلاميون على التصريح حول أحداث اطلعوا عليها خلال ممارستهم لمهامهم الدعوية أو تقديمهم للخدمات الدينية وفقاً للنصوص المحددة قانوناً بالنسبة لسر المهنة.

- تمنح الدولة صفات مدنية للزواج المنعقد وفقاً للشريعة الإسلامية والاعتراف الكامل بتلك الصفات المدنية مع وجوب تسجيل الزواج في السجل المدني.

- التمتع بالإشراف والخدمات الدينية والاجتماعية للسجناء المسلمين في السجون ولمرضاهم في المستشفيات.

- تمتع العسكريين الإسبان المسلمين بالرعاية الدينية الإسلامية خلال خدماتهم في القوات المسلحة (البريّة والجويّة والبحريّة) مع الاشتراك في الأنشطة والأعياد الدينية وإقامة الفرائض الدينية.

- ضمان التعليم الديني واللغة العربية لأبناء المسلمين في المدارس الحكومية من قبل مدرسين معينين من الجمعيات والمراكز والجماعات الإسلامية التابعة للجنة الإسلامية في إسبانيا بتمويل من الدولة.

- إعفاء الهيئات الدينية التابعة للجنة الإسلامية في إسبانيا من دفع الضرائب على:

١- الأملاك التابعة للمساجد ودور العبادة والمرافق التابعة لها ومساكن الأئمة وا لمسئولين الإسلاميين.

٢- المراكز المخصصة لتكوين وتدريب الأئمة والمسئولين الإسلاميين.

٣- الشركات التي تخصّص الأملاك والحقوق المكتسبة للأنشطة الدينية الإسلامية أو بهدف الرعاية.

٤- نقل الملكية والمحاضر القانونية الموثقة وذلك في حال تخصيص الممتلكات المعينة أو الحقوق المكتسبة لنشاطات دينية أو كخدمات ورعاية.

- السماح بالصور الشمسية للمحجبات في الوثائق الرسمية والإدارية (جواز السفر، الهوية وبطاقة الإقامة).
- السماح والاعتراف بالذبح الإسلامي وفق الشريعة الإسلامية.
- السماح بإنهاء العمل قبل ثلاث ساعات من موعده لاداء الصلاة[1]، وكذلك إنهاء العمل قبل ساعة واحدة من الغروب في شهر رمضان، على أن تسترجع تلك الساعات التي لم يتم العمل خلالها ودون أي تعويض عنها.
- التمتع بالأعياد والاحتفالات ذات الصفة الدينية وهي مدفوعة الراتب ولا يجب العمل في أيام أخرى للتعويض عنها وهي:
- الأول من محرم.
- ١٢ ربيع الأول (المولد النبوي).
- ٢٧ رجب (ذكرى الإسراء والمعراج).
- الأول من شوال (عيد الفطر).
- العاشر من ذي الحجة (عيد الأضحى).
- إعفاء الطلبة المسلمين الذين يدرسون في مراكز الدراسة العامة والخاصة المنضوية تحت اتفاقية تمويل من الدولة من حضور الدروس ومن تقديم الامتحانات في أيام الجمع والأعياد والاحتفالات الدينية.

---

(١) المراد هنا صلاة الجمعة وصلاة العيدين.

ملاحظة:

أثناء التوقيع على اتفاقية التعاون، لم يعترف ببعض القوانين الإسلامية في مجال الطلاق والإرث والتعدد، ومؤخراً تم الإعتراف بالطلاق حسب القانون الإسباني وبالنسبة لحضانة الأبناء بعد الطلاق يلاحظ أن القانون الإسباني يجنح دائماً في صالح المرأة ضد الرجل.

الأوضاع الثقافية:

يسمح القانون الإسباني بتأسيس جمعيات ومراكز ونواد ثقافية ولكن هذه المؤسسات الثقافية معدودة على رؤوس أصابع اليدين (المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مؤسسة الثقافة الإسلامية) ولا تفي بدورها الثقافي والحضاري للنهوض بمستوى الأقلية المسلمة وفي تعريف ونشر الثقافة والحضارة الإسلامية في المجتمع الإسباني بالإضافة إلى قلة الإمكانات المادية لتغطية الأنشطة الثقافية.

الأوضاع السياسية:

يحظر على الأقلية المسلمة تشكيل أو الانضمام إلى أحزاب سياسية دون الحصول مسبقاً على الجنسية الإسبانية، علماً أنه كانت هناك سابقاً فكرة تكوين حزب إسلامي تحت اسم حزب تحرير الأندلس، بيد أن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع.

صورة الهجرة المسلمة في الإعلام الإسباني:

إسبانيا تحتاج إلى ما يزيد عن ٣٠٠ ألف يد عاملة سنوياً موزعة على الفلاحة والبناء والخدمات، وفي نفس الوقت يسلك المسئولون سياسة إدارة الظهر لبلدان الجنوب وإغلاق كل الأبواب المؤدية إلى أوروبا من جهتها.

كما يلاحظ داخل إسبانيا أن هناك تناقضاً في المواقف إذ نجد أن المؤسسة الوطنية للإحصاء حذرت المسئولين في إسبانيا منذ ١٩٩١م من أن إسبانيا ستفقد في حدود ٢٠٠٤م ما يزيد على عشرة ملايين نسمة، ولهذا اقترحت حلين أحدهما إعطاء منح للأزواج من أجل التشجيع على الإنجاب وهو حلّ مستبعد بفعل العوامل الاقتصادية والاجتماعية، لأن المرأة الإسبانية الشابة لا تريد أن تربي وأن تفقد مكان الشغل، والاقتراح الثاني هو فتح الباب للمهاجرين.

كما أن هناك تحذيراً من مجلس الأمن الدولي الذي نبّه إلى مشكل شغور الكثير من مناصب الشغل في غياب الشباب وما يسترتب عن ذلك من العجز لضمان السلم الاجتماعي لانه ليس هناك أناس في سن العمل يمكنهم أن يؤدوا الضرائب.

ورغم كل هذه المعطيات، فإن الإعلام الإسباني قد ضخّم صورة الهجرة المسلمة أمام الرأي العام وهيّجه هيجاناً وذلك بنعتها بعبارات مثيرة مثل الخطر أو الزحف القادم من الجنوب أو الغزو الجديد وغيرها من النعوت حتى أصبحت ظاهرة الهجرة من الاهتمامات الأولية للمجتمع الإسباني وهاجسه اليومي بعد ظاهرة الإرهاب المحلي (منظمة إيتا الإنفصالية) والدولي.

علماً أن نسبة المهاجرين الإسبان إلى بعض الدول الأوروبية وأمريكا اللاتينية تفوق نسبة المهاجرين إليها، حتى قامت بعض الدوائر المختصة بشئون الهجرة

بالتضييق على المهاجرين وتعقيد إجراءات الهجرة إلى إسبانيا وخاصة من الدول الإفريقية والعربية والإسلامية لأسباب اجتماعية وثقافية وارتفاع نسبة البطالة، مما أدى إلى طرد عدد كبير منهم كانوا قد دخلوا الأراضي الإسبانية بصورة غير قانونية، وبسبب صعوبة اندماج أفراد الأقلية المسلمة في المجتمع الإسباني وتورط بعض أبنائها في تهريب وبيع المخدرات والسرقات فإن هناك اتجاهين:

الأول: ينادي في حالة الحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة إلى الاستعانة بالعمالة من دول أوروبا الشرقية وذلك لعدة أسباب منها سرعة الاندماج في المجمع.

الثاني: ينادي باستقدام اليد العاملة الرخيصة من دول أمريكا اللاتينية رغم تورط مواطنيها في شبكات عالمية لتهريب المخدرات والدعارة والسرقات والإجرام بصورة خاصة حيث يعتبر المهاجرون من هذه الدول من أكثر المجرمين الأجانب في ارتكاب هذه الجرائم، ورغم كل هذا فهم مفضلون على رفاقهم في الهجرة من الدول العربية والإسلامية.

علماً أن معظم الأقلية المسلمة يقومون بأعمال يهرب منها الإسبان ولا يرون فيها أي ترقية مهنية، ورغم هذا كله فهم غير مرغوب فيهم.

المشكلات والعقبات:

يمكن حصر المشكلات والعقبات والصعوبات التي تواجه الأقلية المسلمة في إسبانيا حسب أولويتها في ما يلي:

- ضعف التمثيل الرسمي للمسلمين أمام الحكومة الإسبانية وذلك بسبب وجود ممثلين اثنين للمسلمين أمام الدولة، واحد من الفدرالية الإسبانية للهيئات الدينية الإسلامية وآخر عن اتحاد الجمعيات الإسلامية في إسبانيا وعدم التنسيق

والتعاون بينهما، مما أثر سلباً على تنفيذ بنود اتفاقية التعاون المبرمة بتاريخ ٢٨ أبريل ١٩٩٢م، علماً أن الأقليات الدينية الأخرى (اليهود والبروتستانت) لها ممثل واحد، وقد ضيّع هذا الاختلاف وما زال على الأقلية المسلمة في إسبانيا حقوقاً كثيرة من أهمها وأخطرها تجميد مشروع تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس الحكومية.

- ضياع اللغة العربية لدى الجيل الثاني والثالث بسبب غياب المؤسسات التعليمية والتربوية الكافية.
- الافتقار إلى المراكز والنوادي الاجتماعية الإسلامية الفاعلة لتنظيم الرعاية الاجتماعية الضرورية على مستوى الأطفال والناشئة والشباب والنساء.
- عجز الجمعيات والمراكز الثقافية الإسلامية والمصليات عن إيجاد الحلول الناجعة للمشكلات التي تتعرض لها الأقلية المسلمة، فضلاً عن أهلية القائمين عليها.
- قلة التجمعات العمالية التي تهتم بالدفاع عن حقوق المهاجرين.
- قلة الأئمة والدعاة المؤهلين والمتفرغين للعمل الدعوي في صفوف الأقلية لتعريفها بواجباتها ومسئولياتها وتغيير الواقع المتناقض الذي تعيشه الأقلية.
- إشكالية اندماج الأقلية في المجتمع.
- التقصير في رعاية المسلمين الجدد.

الحلول المقترحة للنهوض بمستوى الأقلية المسلمة في إسبانيا:

احتياجات ومتطلبات الأقلية المسلمة كثيرة وهي تعلق آمالاً كبيرة على المؤسسات الإسلامية في حلها وفي هذا الإطار نقترح بعض الحلول التي نراها من أولويات العمل الإسلامي في إسبانيا لعلها تسهم في التخفيف من آلام ومعاناة الأقلية المسلمة في إسبانيا منها:

- بذل الجهود والمساعي الجادة لتوحيد الصف الإسلامي بين العاملين في الحقل الإسلامي بصفة عامة واللجنة الإسلامية بصفة خاصة وذلك لضمان تنفيذ وتطبيق اتفاقية التعاون المبرمة مع الدولة، لما فيها من حقوق وفوائد لصالح الأقلية المسلمة في إسبانيا وخاصة فيما يتعلق بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس الحكومية.
- التفكير الجاد في إنشاء المدارس العربية الإسلامية من أجل الحفاظ على الهوية الإسلامية للأجيال الصاعدة وإيجاد الوسائل المادية الكافية للقيام بمهمتها.
- العناية بالمؤسسات الإسلامية العاملة في الساحة من أجل تطوير وتحسين خدماتها لفائدة الأقلية.
- العمل على تكوين المراكز الاجتماعية الإسلامية لتنظيم الرعاية الاجتماعية الضرورية على مستوى الأطفال والشباب والنساء والأسر.
- العناية القصوى باللغة العربية وإيجاد الكتب والمناهج والأساليب المناسبة لتعليمها للأجيال الصاعدة على مختلف مستوياتها.
- العناية بنشر الثقافة الإسلامية وذلك عن طريق انتقاء الكتب والمصادر الإسلامية المعتمدة وترجمتها من ذوي الاختصاص.

- العناية بالعمال المسلمين والاهتمام بجمعياتهم و تجمعاتهم وتزويدها بالوسائل العصرية التي تساعد على رفع مستواهم الاجتماعي والثقافي وتقوية انتمائهم للإسلام عقائدياً وفكرياً وسلوكياً.
- الاهتمام بالمسلمين الجدد وإنشاء دور لرعايتهم.
- الانفتاح على المجتمع وخاصة الجهات الجامعية والثقافية والاجتماعية والإعلامية وغيرها ذات الاهتمام بالإسلام والمسلمين، مما يساعد على تحديد مجالات التعامل معها وأساليبه بصورة تحقق النفع وتجعل التعريف بالإسلام وقضايا المسلمين في هذا البلد موضوعياً ومجدياً.
- إيجاد أرضية مشتركة للتعاون والتنسيق فيما بينها وذلك بإنشاء رابطة أو مكتب للإشراف والمتابعة المباشرة عليها في كل دولة أوروبية.
- السعي من خلال مكاتب الإشراف والمتابعة إلى وضع خطط وبرامج عمل تربوية ودعوية وثقافية واجتماعية لتوحيد وجمع شمل الجالية.
- الإهتمام بإعداد الأئمة وخطباء المساجد بشكل مستمر وذلك عن طريق إقامة دورات شرعية في كل بلد أوروبي.
- السعي إلى عقد اجتماعات للأئمة وخطباء المساجد والمصليات على الصعيد القطري والقاري للتنسيق والتعاون وتبادل الخبرات والتجارب وتعميم الأهم منها.

توصية مهمة:

نوصي جميع المسئولين عن العمل الإسلامي في البلدان الأوروبية التي لم تعترف بعد بالدين الإسلامي بالإستفادة من التجربة المرّة التي عاشتها الأقلية المسلمة في إسبانيا ومازالت، وذلك بتفادي التوقيع على الاتفاقيات المماثلة بأكثر من ممثل وبضرورة توحيد الصفوف قبل التوقيع على أية اتفاقية.

والله ولي التوفيق.

حدود النشاط الإسلامي في إسبانيا وفقاً للدستور والتشريعات السائدة:

تقرير مقدم من الدكتور صالح بن محمد السنيدي مدير المركز الإسلامي في مدريد:

مدخل:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

رغبة في مشاركة إخواني وزملائي في هذه التظاهرة العلمية المباركة أعددت هذه الورقة على عجل لأضع ولو تصوراً مختصراً لما عليه وضع الأقلية المسلمة في إسبانيا، لذا أقدم اعتذاري سلفاً عما يعتورها من نقص وعدم ترتيب.

وقبل الدخول في هذا الموضوع علينا أن نتذكر النقاط التالية:

١- تتسم إسبانيا عبر تاريخها ومنذ خروج آخر ملوك المسلمين من غرناطة عام ١٤٩٢هـ وإقامة محاكم التفتيش بالتعصب الديني وعدم التسامح مع المعتقدات الأخرى.

ويكفي للتدليل على هذا أنها لعبت دوراً بارزاً في نشر الكاثوليكية داخل جميع الدول التي استعمرتها منذ الاكتشافات حتى أواخر القرن التاسع عشر (١٩) على خلاف جميع الإمبراطوريات الأخرى الفرنسية أو الإنجليزية.

وكان للكنيسة في إسبانيا وزنٌ وثقلٌ تجاوزا الحدود الدينية ووضع بصماتها على المسار السياسي والاجتماعي والاقتصادي للبلاد، وظل الأمر كذلك بصورة صارخة حتى وفاة الجنرال فرانكو في ٢٠ نوفمبر ١٩٧٥م وبداية الحياة الديمقراطية وتغير الأمر بعض الشيء، ولكن لا تزال الكنيسة تتمتع بهيمنة لا يستهان بها الآن وتتلقى مساعدات من ميزانية الدولة، رغم أن

إسباينا وفقاً لدستورها الصادر في عام ١٩٧٨م تصف نفسها، بأنها دولة لا دينية.

وقد وصل التعصب وعدم التسامح إلى حد تشويه الحقائق التاريخية نفلسها وتحريف المعلومات الخاصة بالمعتقدات غير الكاثوليكية في الكتب الدراسية الرسمية التي تصدر عن الدولة.

من ناحية اخرى تُعدّ إسبانيا دولة حتى الآن مصدرة للهجرة حيث هناك حوالي ٣ ملايين إسباني يعيشون في الخارج من إجمالي عدد سكان لا يتجاوز الأربعين (٤٠) مليون نسمة، وعلاقتها باستقبال الهجرة الأجنبية تعود إلى حقبة الثمانينات، وإجمالي المهاجرين فيها لا يصل إلى مليون نسمة ما بين مقيم بصورة مشروعة أو بصورة غير مشروعة.

والهجرة الإسلامية في إسبانيا لا تمثل الأغلبية على الرغم من أن الإسلام هو الديانة الثانية بعد الكاثوليكية (٣٠٠ ألف مسلم) حسب الإحصائية الرسمية لأن اليهود لا يتجاوز عددهم العشرة (١٠) آلاف نسمة.

والفرق بين المسلمين واليهود مثلاً هو أن كافة اليهود تقريباً أصلاً إسبان ولهم ثقلهم الداخلي بينما المسلمين كلهم تقريباً قادمين من الخارج من دول إسلامية، باحثين عن عمل يرتزقون منه.

٢- التواجد الإسلامي في إسبانيا على خلاف التواجد الإسلامي في الدول الأوروبية الأخرى أغلب أفراده قدموا إلى إسبانيا بالصدفة وعن جهل بأوضاعها وعاداتها ولغتها عكس التواجد الإسلامي في فرنسا أو إنجلترا مثلاً.

٣- إسبانيا تدرك حاجتها للهجرة الأجنبية داخلها نظراً لأنها أدنى دول العالم في معدلات المواليد وتعلم أن للحفاظ على مستوى المعيشة والرفاهية فيها تتعين الاستعانة بالأيدي العاملة المهاجرة واختيارها لهذه الأيدي لا يتجه نحو المسلمين بل تجاه الكاثوليكيين والقادمين من دول أوروبا الشرقية.

٤- بعد وفاة فرانكو وتحول إسبانيا نحو الديمقراطية تنفست الأقليات الصعداء وأتيح لها ممارسة شعائرها التعبدية بحرية تامة وسمح بالتعددية السياسية والدينية وأصبح الحق لكل مواطن ومقيم اعتناق ما يروق له من مبادئ دون أية مساءلة قانونية.

حدود الحرية الدينية والثقافية للمسلمين في إسبانيا:

تُرسي القوانين والتشريعات السائدة في إسبانيا خطوطاً عامة للأنشطة الدينية داخل البلاد وأبرزها في الشق الإسلامي ما يلي:

أن تكون هناك هيئة دينية إسلامية ذات سمة فيدرالية أقيمت في ظل التشريع الإسباني الحالي ويحكمها دستور وقواعد لنظامها الداخلي تضم الاسم وعنوان المقر والتمتع بشخصية اعتبارية، وأن تقتصر أهدافها على النشاط الإسلامي القائم في القرآن والسنة وعليه إقامة الشعائر الخاصة بالأركان: الشهادة، أداء الصلوات الخمس يومياً، الزكاة، الصوم، الحج.

تسمح هذه التشريعات أيضاً بتعليم وتدريس الإسلام ونشر المعلومات الخاصة به عبر أي أسلوب مشروع، وحق الآباء في تعليم هذا الدين للأطفال والأبناء داخل وخارج الإطار المدرسي فضلاً عن إنشاء المدارس ودور التعليم لخدمة هذا الهدف.

كما أن التشريعات تعطي الحق للجمعيات الرسمية المسجلة في إسبانيا بإقامة الاجتماعات والملتقيات العامة واحتفالات الزواج ومراسيم الدفن وفقاً للشعائر الإسلامية وإنشاء مقار للاجتماعات ومساجد وتعيين وتأهيل أئمة لها.

كما تحق للجمعيات نشر الدعوة والعقيدة الإسلامية عبر وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري وإقامة علاقات مع هيئات إسلامية وغير إسلامية داخل الأراضي الإسبانية وخارجها وتعطي هذه التشريعات الحق للجمعيات الإسلامية بتوفير وتقديم الخدمة الدينية الإسلامية داخل الهيئات الحكومية والعسكرية والمستشفيات ودور الخدمات العامة والسجون وأي أماكن أخرى تابعة للدولة

ودوائرها الرسمية بالإضافة إلى تدريس الإسلام للطلبة في دور التعليم الحكومية والخاصة.

ويحق لهذه الجمعيات إبرام اتفاقيات ومعاهدات للتعاون مع الدولة ترمي إلى التمتع بمنافع ضريبية منصوص عليها في التشريعات لصالح الهيئات الخيرية التي لا تسعى إلى الربح من نشاطها.

التركيبة الاجتماعية للجالية المسلمة في إسبانيا:

لابد في هذا المجال أن نلقي نظرة سريعة على تركيبة الجالية المسلمة في هذه البلاد ومؤهلاتها الثقافية ووضعيتها الاقتصادية والاجتماعية.

كانت إسبانيا بلداً مُصدراً للبشر فظروفه الاجتماعية والاقتصادية دفعت بأهل البلاد إلى البحث عن مكان يجدون فيه الأمن ويؤمنون فيه قوتهم وقوت من يعولون ويمارسون ما يعتقدونه بحرية تامة، لكن تحوّل البلد إلى الديمقراطية بعد وفاة فرانكو ليستعيد عافيته ويُصبح محط أنظار قاصديه، وتأكد عامل الجذب هذا بعد انضمام إسبانيا للسوق الأوروبية المشتركة في عام ١٩٨٩م وتحولها إلى سوق للاستثمارات الأجنبية، هذه التفاعلات جعلت من إسبانيا أملاً لمن صعبت الحياة في بلادهم خاصة جيران إسبانيا الأقربين الذين ساءت ظروفهم المعاشية أو تزعزعت عرى الأمن والأمان في ديارهم (المغرب الجزائر) بإضافة إلى آخرين قصدوا البلد للدراسة فوجدوا في العودة إلى بُلدانهم ضرباً من المغامرة لندرة فُرص العمل وقلة المردود المالي (سوريا والأردن) أو لظروف عدم الاستقرار السياسي وحالة الحرب التي تعيشها بلادهم (العراق فلسطين).

إذاً تشكيل الجالية في غالبيته يتكون من خليط بشري يشترك في اللغة والدين ويختلف في العادات والتقاليد ونمط الحياة اختلافاً ظاهرياً لكنه يغلب عليه الطابع المتميز ثقافياً ومهنياً في جالية المشرق الإسلامي، فعلى سبيل المثال تشير إحصائية غير مؤكدة أن هناك حوالي ٥٠٠٠ طبيب من سورية وحدها، بينما جالية المغرب العربي يغلب عليها صفة مهاجري طلب الرزق أو بمعنى آخر العمال والطلاب الذين لهم نمط آخر ووقع آخر في البلد المُضيف.

هذا هو الوضع العام للجالية في غالبيتها لكن علينا أن نُنوه بفئة ثالثة لها دورها الفاعل والمؤثر في المجتمع الإسباني رغم قلة أعدادها وهم المسلمون الأسبان الذين هداهم الله ودخلوا الإسلام فهم أدرى بشؤون قومهم وأحرى بمعرفة مجتمعهم وطريقة مخاطبته والتأثير عليه، لكن يغلب على هذه الفئة تفرّق صفها وتشتتها.

كل هذه الفئات تصنف وتدخل ضمن إطار هذه الجالية متعددة الأعراق والتوجهات لكنها متفقة في أهدافها ومطالبها الإسلامية.

وضعية المسلمين الثقافية في إسبانيا:

في العقدين الأخيرين من هذا القرن تزايدت الهجرة إلى بلاد الغرب (أوروبا وأمريكا) وحظي مهاجرو البلاد الإسلامية بالنصيب الأوفر من هذه الأعداد خاصة في أوروبا.

وقد حمل هؤلاء المهاجرون معهم هماً جديداً لم يكن بحسبانهم ولا بحسبان الدول المضيفة ألا وهو ما يحملونه من مبادئ وقيم وعادات وتقاليد جديدة على مجتمع هذه البلاد، توقع المضيف أن تندثر بسهولة ويذوب هؤلاء المهاجرون في

ثنايا وتجاويف مجتمع الأغلبية المطلقة خاصة الأبناء الذين انخرطوا في سلك التعليم وتشربوا مناهج ونظم هذا المجتمع، لكن الحسابات اعتراها التقصير وسوء التقدير، نظراً لزيادة أعداد المهاجرين من ناحية وتنامي الوعي الإسلامي من ناحية أخرى، فظهرت مشكلة التعليم الإسلامي كأهمّ المشكلات التي يواجهها المغترب وتتعامل معها الدول المضيفة بحذر، لأنها تريد من هذا المهاجر الذي ارتضى هذه الدولة أو تلك كمقرّ دائم أن يندمج فيها وينصهر في بوتقتها، لكن تنامي هذه الجالية وتكاثرها أصبح لزاماً على مسؤولي هذه الدول أن يتعاملوا مع هذا الحدث بعقلية أخرى وأن يرضخوا أمام الأمر الواقع، خاصة إذا وضعنا في الحسبان الصوت الانتخابي لهذه الجالية وما تتمتع به هذه البلدان من ديمقراطية، لذا جاء الاعتراف من أغلب الدول الغربية بالدين الإسلامي، وما يستدعيه هذا الاعتراف من مستلزمات كممارسة العبادة والتعليم وقانون الأحوال الشخصية والذبح الحلال..الخ.

فعلى سبيل المثال أكد الدستور الإسباني في عام ١٩٧٨م على الحرية الدينية والتعبدية للأفراد والجماعات وتبلور ذلك بشكل صريح تجاه الإسلام والمسلمين في إسبانيا حينما تم الاتفاق بين الحكومة الإسبانية والهيئة الإسلامية الممثلة للمسلمين في ١٩٩٢/٤/٢٨م، الذي وقعه الملك خوان كارلوس شخصياً، ويقضي هذا النظام بحرية العبادة وإنشاء الدور الخاصة بها ووضع الصفة الاعتبارية للقائمين عليها مع التأكيد على حق معتنقي هذه الديانة بالأخذ بكل ما ينادي به الإسلام في شأن الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وحجاب وغيرها، ويهمنا في هذا المجال ما يتعلق بالتعليم إذ ينص الدستور في مادته ٢٧ على (أن

القانون يضمن للآباء اختيار ما يرونه لأبنائهم من تربية وأخلاق حسب ما يتوافق مع معتقداتهم الخاصة بهم).

ويصرح في فقرة أخرى أن للتلاميذ المسلمين ولآبائهم وللمدارس الحكومية الحق بتعليم الدين الإسلامي في المدارس الحكومية والخاصة بشرط ألا يتعارض ذلك مع الأهداف العامة للتعليم.

من هنا وكما نرى جاءت الموافقة واضحة وجلية وإن كانت مزاولة التعليم ومدارسه الخاصة قد انتشرت قبل توقيع هذا القانون أخذاً بدستور ١٩٧٨م العام، لكن مع ذلك ظل التعليم الإسلامي في إسبانيا يراوح مكانه لعدة اعتبارات يتحمل الجانب الإسلامي أهم اخفاقاتها نظراً لتأخره في استثمار هذا القانون الذي يضمن حق أبنائه في التعليم الإسلامي في مدارس الدولة، مع تحملها تكاليف التدريس وما يترتب على ذلك من مصروفات، وذلك لعجز الجالية عن بلورة جهودها ومفاوضة الدولة بممثل واحد يمثلها، وعدم إيجاد المنهج والصيغة المتفق عليها من قبل هذه الجالية، فأصبح هذا القانون الذي كان نصراً حبراً على ورق غير قابل للتطبيق.

وعندما تقادم الزمن وتحركت الجهود لجعله في حيزّ التنفيذ وضعت العثرات في طريقه، وأصبح في حكم الملغي نظراً للشروط التعجيزية التي ظهرت بها الاتفاقية الأخيرة مثل حمل المعلم للجنسية الإسبانية مع مؤهل تربوي عال إلى جانب اشتراط عدد لا يقل عن عشرة من الطلاب في الصف الواحد، مع أن هناك محاولات نرجو أن تكون جادة في إعادة النظر بهذه الشروط يقوم بها ممثلوا المسلمين في إسبانيا لجعلها أكثر واقعية وقابلية في الميدان العملي.

وتجدر الإشارة هنا أن تجربة التعليم الإسلامي قد طبقت في بعض المقاطعات الإسبانية بالمدارس الحكومية ولاقت بعض النجاح مع عدم التأهيل الكافي للمعلمين الذين تبرعوا بهذه المهمة دون أن يقبضوا من الدولة أي مكافآت على هذا العمل نظراً لعدم اعتراف وزارة التربية والتعليم بهذا النوع من التعليم، فدفعت لبعضهم خاصة في ساحل الشمس مكافآت على جهودهم تبرع صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد حفظه الله مشكوراً بها وصرفت عن طريق المركز الثقافي الإسلامي بمدريد.

يبقى التعليم الخاص ومؤسساته التي تمارس دورها بشكل أو بآخر بين أبناء هذه الجالية، وهذا ما سنسلط الضوء عليه في موضوعنا هذا.

وضع المركز الثقافي الإسلامي بمدريد:

يتمتع المركز بوضع قانوني وشرعي ويتميز عن غيره بما يلي:

- جهاز رسمي معترف به من جميع الأجهزة الرسمية في إسبانيا، استناداً على اعتراف هذه الأجهزة برابطة العالم الإسلامي التي يتبعها المركز.
- ويتمتع بصلاحيات لا تتوفر للجمعيات الإسلامية المسجلة في إسبانيا مثل الاعتراف بتوقيعاته وأختامه الخاصة بالخدمات التي يقدمها للمسلمين مثل عقود الزواج والطلاق ودفن الموتى وإصدار شهادات إشهار الإسلام والشهادات التي تنص على حجاب المرأة وصورها في الأوراق الرسمية الإسبانية والذبح الحلال.
- من داخل أحضان المركز تم الاعتراف بالتعليم داخل المدرسة العربية الوحيدة في إسبانيا التي اعترفت السلطات التعليمية بشهاداتها.

- رابطة العالم الإسلامي التي تحظى بوضع استشاري في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة يعطي صفة إضافية لوضع المركزكي يميزه عن بقية الجمعيات الداخلية.
- للمركز جهاز ملتزم بالقوانين الإسبانية في لوائحه ونظام العمالة فيه، كما أن له موارد خارجية ثابتة تمثل دخلاً خارجياً للدولة ينفق داخل المملكة الإسبانية.
- ضرورة تأسيس مجالس للأئمة في كل قطر كنواة لاتحاد قاري في المستقبل.
- ضرورة تخصيص معونات سنوية مقطوعة للمساجد والمصليات التي تحتاج إلى مساعدات.

يوميات الرحلة

يوم الاثنين ١ شعبان ١٤٢٣هـ- أكتوبر ٢٠٠٢م:

من لشبونة إلى مدريد:

ولشبونة هي عاصمة البرتغال كما هو معروف ومدريد عاصمة إسبانيا كما هو معروف أيضاً، وكلتا العاصمتين كانت مدينة عربية إسلامية، بل إن الأخيرة وهي مدريد أنشأها العرب وعمروها ولم تكن معمورة قبلهم.

أما لشبونة فإنها كانت مدينة قديمة معمورة عندما دخلها العرب ولكنهم عمروها، بل طوروها كما عمروا وطوروا المنطقة التي تقع فيها.

وكلتا العاصمتين تغير اسمها عن الاسم العربي القديم فلشبونة صارت على أفواه البرتغاليين (لزبوا) ومدريد كان اسمها العربي (مجريط) فصار على ألسنة الأسبان مدريد.

وكلتاهما كانت عند العرب القدماء من بلاد الأندلس، أما الآن فإنهما اعتبرتا خارجتين عن الأندلس، حسب اصطلاح إداري إسباني مبني على اعتبارات وطنية عندهم ضيقة.

أما بالنسبة إلينا نحن العرب الحديثين فإننا نخرج الآن من بلد لنا ضائع إلى بلد آخر ضائع أيضاً، ولكنه إن ضاع من السياسة والرئاسة لنا فإنه لم يضع من التاريخ وبخاصة التاريخ الناصع الصفحات، ويكفي أن نقول حقاً: إننا بقينا في الأندلس ثمانمائة سنة كانت حافلة بالمدنية والعلم لهم، وكانت أنصع تاريخ لأوروبا في تلك العصور، و الشواهد على ذلك لا تحصى، وقد اعترفوا بها وصاروا يدرسونها في جامعاتهم ومعاهدهم العلمية.

كنا في مطار لشبونة الذي هو قريب من وسط المدينة وقد قضينا قليلاً من الوقت في غرفة الدرجة الأولى مع أن الطائرة التي سنسافر عليها ليست فيها درجة أولى، وإنما أعلى ما فيها درجة رجال الأعمال مثلها في ذلك مثل أكثر الرحلات بين مدن الاتحاد الأوروبي، ولا شك في أن السبب في ذلك هو أن الأوروبيين صاروا لا يرغبون في الركوب في الدرجة الأولى في المطار داخل أوروبا، لأنهم يجدون في الدرجة السياحية ما يطلبونه من نظافة وخدمة جيدة، وإذا أراد أحدهم التميز والزيادة في الراحة والخدمة الممتازة وجدها في درجة رجال الأعمال.

ثم خرجنا من غرفة الدرجة الأولى في المطار قبيل النداء لدخول الطائرة فألفينا الطائرة من طراز الحافلة الجوية (إير باص) (٣٢٥) الصغيرة.

وقد ركبنا في درجة رجال الأعمال والفرق بينها وبين مقاعد الدرجة السياحية أن الصف في السياحية فيه ستة كراس أما في درجة رجال الأعمال التي ركبنا فيها فإن فيه أربعة كراس فقط.

أول ما استرعى انتباهي فيها أن الإعلان من مكبر الصوت فيها كان بلغة إسبانية مستعجلة كالتي كنت ألفتها من قبل في أقطار أمريكا الجنوبية التي تتكلم كلها بالإسبانية ما عدا البرازيل التي يتكلم أهلها بالبرتغالية، وإذا أردت- أيها القاري الكريم- أن تطلع على شيء مما كتبته عن أمريكا الجنوبية أمكنك أن ترجع إلى كتبي عنها التي طبع منها أكثر من عشرة وذلك غير الكتب التي لا تزال مخطوطة.

والركاب كثر في درجة رجال الأعمال وتخدمها مضيفات إسبانيات رأيتهن أكثر جمالاً من البرتغاليات وأقرب إلى الطابع العربي والذوق العربي منهن.

ومن الطريف أن المضيفة أحضرت قبل إقلاع الطائرة حبوباً في يدها تستعمل ضد الصداع وضد دوار السفر، وهذا لم أجد لها نظيراً عند شركات الطيران في السنين الأخيرة.

تحركت الطائرة في المدرج والمطر يتساقط خفيفاً كأنما ليبرد لوعة أحزاننا على ملكنا الضائع في هذه البلاد أو كأنما ليسقي أعشاب المطار الخضر التي لا تحتاج إليه لكيلا تنافس أعشاب صحرائنا العربية العطشى.

ولسان الحال ينشد عندما رأى المطر يجود أرض الأندلس قول الشاعر الأندلسي القديم:

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما كالكرى أو خلسة المختلس

وقد أقلعت الطائرة في الخامسة والثلث عصراً متأخرة ثلث ساعة عن موعد إقلاعها المحدد في الأصل فصارت تطير فوق لشبونة التي لم نر من أهلها أي مضايقة أو نحوها، و إن كان الظرف العالمي ظرفاً ليس في صالح المسلمين في أمريكا وأوروبا، بل إن التعنت والمضايقة هو البادئ على تصرفات الأمريكيين تجاه المسلمين حتى المسلمين الأمريكيين.

أما في لشبونة فإنها لم تضايقنا، ولم نر فيها ترحيباً، ولكن عدم المضايقة في أوروبا هذه الأيام هو في حد ذاته ترحيب جيد.

وقد قال لنا الإخوة في السفارة السعودية إن أهالي البرتغال لا يعادون العرب، ولا يضايقونهم ولا يعتبرونهم من المشتبه بهم، فهم يشكرون على ذلك.

وحتى الإخوة المسلمون الين يعيشون الآن في البرتغال قالوا لنا إنه لا أحد في هذه البلاد البرتغالية يضايقهم، بل إنهم يستجيبون لطلباتهم في إنشاء الجمعيات الإسلامية وفي تخصيص المصليات.

حالما نهضت الطائرة تجاوزت سماء الشبونة فمرت فوق نهر (تاجو) وأبصرنا أطول جسر في أوروبا فوق خور لشبونة الذي هو نهرها الذي تختلط مياهه بمياه البحر عند إلتقائهما وطوله ١٨ كيلومتراً.

ثم فوق الشاطئ الصخري الذي تتمدد حوله مدينة (شنترة) العربية التي تسمى الآن (سنترا) كأنما لاسمها علاقة بكلمة (سنتر) الإنكليزية أو سنترو اللاتينية بمعنى الوسط، ثم عطفت يميناً إلى اليابسة الأندلسية، وهي في الحقيقة أرض الأندلس الخضراء التي تعرف الآن بأرض البرتغال وكنا نعرفها في تاريخنا المشرق القديم بأرض الأبطال، ثم حال بيننا وبينها سحاب كالنقاب لولا أنه أبيض لأنه لون ظهور السحاب، ومع ذلك ستر و جهها الجميل عنا لوقت قليل وكأنما كان يفعل ذلك ليستر حياءها من أهلها الذين ضيعوها وهم نحن الأخلاف التافهون لأولئك الأسلاف العظام.

وقد استقام سير الطائرة للشمال الشرقي جهة مدينة مدريد.

ثم صحا الجو وتجاوزنا الغيم، فكأنما صحونا من النوم على واقع نستحق عليه اللوم فرأينا المضيفات الإسبانيات يبادرن بضيافة سخية مع ابتسامات مصلحية.

وتلفاز الطائرة يعرض مناظر متميزة من إسبانيا كشواطئ الجنوب وأبنية العاصمة، وقلت في نفسي: لم لا نعرض في طائراتنا مناظر مما تتميز به بلادنا كرمال الدهناء أو جبال السراة، بل كرمال القصيم الحمر بين البساتين الخضر التي

تتمايل فوقها فروع النخيل السمر، وألا نعرض مناظر حية عن مصافي النفط، وشوارعنا التي تفوق شوارع أوروبا، بل طرقنا التي لا نظير لها إلا في أمريكا.

بل لما لا نعرض مشاهد دينية روحية خص الله بلادنا بها، كشعائر الحج والعمرة في الحرمين الشريفين وفي منى وعرفات؟

ولماذا لا نعرض مناظر من سهول المملكة كالصمان التي جادها الغيث فانتشرت فيها بيوت الشعر للأعراب حولها الإبل وبخاصة النوق ذوات اللبن الغزير، و الحيران- جمع حوار وهو الولد الصغير للناقة، ورعايا الأغنام التي لا تكاد تقوى على السير بسبب ألبانها التي نفختها أعشاب الربيع حتى صارت كأنها تجاذب الأغنام السير إلى الأمام.

والأغنام النجدية معروفة بجمالها سواء في أشكالها أو ألوانها التي هي سواد الأجسام وبياض الرؤوس وارتفاع القوام.

وإذا كنا نريد الترف والشرف لماذا لا نعرض الخيول العربية الأصيلة والمهار الجميلة.

وحتى الشواطيء فلدينا شواطيء بحرية عديدة متنوعة المناظر بعضها تخللها الخلجان الصافية، وبعضها تجللها الرمال المنهالة وبعضها تشرف عليها الصخور التي أتخذت أشكالاً متمايزة متغايرة معجبة مطربة.

وعلى أية حال فإن في بلادنا ما يشوق ويروق، وما يصح عرضه في السوق فيفوق على كثير مما هو معروض من الآخرين.

وحتى ما نكافح به الصحراء ونروي به الأرض الغبراء من مشروعات تحلية مياه البحر حتى تغدو أعذب من مياه النهر.

ولم لا نعرض مباني الجامعات السعودية والمعاهد العالية، بل والمستشفيات الراقية، بل الرائدة في مجال الطب والعلاج مثل مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض وجدة، ومثل مستشفيات القوات المسلحة المتعددة.

كانت هذه الأفكار تتوارد على ذهني والطائرة تمعن في ذهابها إلى مدينة مدريد، بل مجريط التي كانت عربية وصارت إسبانية والمضيفات الإسبانيات يغدقن الإبتسامات من دون أن يكون لذلك صدى عند من يبتسمن لهم.

حتى بدأت الطائرة تتدنى وهي تتدلى تقترب من مطار مدريد فوق آراضٍ معمورة بالحقول التي يبدو أكثرها كما لو كان من حقول القمح الحصيد ولكن خضرتها دون خضرة أوروبا المعهودة بل إنها تبدو كما تبدو بلاد الشام في فصل الربيع.

وقد كثرت القرى في الريف وتقاربت ولكن في تقارب أقل من تقارب القرى في البرتغال لأن أرض إسبانيا أوسع بل أرحب من أرض البرتغال.

ورأينا نهراً واسع المجرى لم يذكر لنا أحد اسمه.

وقبيل الوصول راينا تلالاً تكسوها أشجار الغابات تبين من مرآها أن المنطقة كانت معمورة بمثل هذه الأشجار في القديم، ولكنهم قطعوا الغابات ليفسحوا المجال للحقول إلا ما كان منها فوق التلال.

ثم كثرت مناظر الأشجار المثمرة وكثرت أشجار الزيتون المغروسة التي يبدو بعضها كأنما هو حديث الغرس ولكنهم غرسوه بكثرة مفرطة بدت كأنما هي مبالغ فيها وبخاصة في الأماكن المرتفعة وفي أكتاف التلال، إلا أن المناظر هنا كئيبة لأن لون التربة أغبر، بل هو أحياناً يميل إلى أن يكون باهتاً قريباً من اللون الأصفر.

إلا أن الأشجار المثمرة المغروسة وبخاصة أشجار الزيتون الحديثة الغرس بعشرات الألوف إن لم تكن بمئات الألوف بددت منها بعض الكآبة.

وقرب الوصول إلى مطار (مدريد) كثرت حقول فيها خضرة ويتخللها نهر صغير وطريق سريع للسيارات ولكن السيارات فيه أقل مما يكون في طرقنا السريعة القريبة من المدن.

ثم كثرت أماكن الشركات وما هو أشبه بالمستودعات الكبيرة.

ثم صرنا نطير ونحن نقترب جداً من المطار فوق شارع سريع (هاي وي) زاخر بالسيارات.

هبطت الطائرة في مطار مدريد في السادسة وخمس وعشرين دقيقة وقد استغرق طيرانها ٥٥ دقيقة أي دون المسافة بين الرياض وجدة بنحو الربع، مع أنها بين عاصمتين إندلسيتين هما لشبونة ومدريد.

وكان الدكتور صالح بن محمد السنيدي مدير المركز الإسلامي في مدريد قد هتف بي وأنا في لشبونة قائلاً: إن الأفضل أن نرسل إليكم السيارة إلى لشبونة لتأتوا إلى مدريد بالسيارة حتى تشاهدوا أرض المنطقة كلها، وقد أبيت عليه ذلك، قائلاً إننا سنكتفي بالسفر بالسيارة من مدريد إلى منطقة الأندلس.

كانت أعشاب المدارج في المطار قصيرة ويابسة مما يدل على أن البلاد كانت تشهد موسماً مطيراً وليس هذا وقته.

وتطل على المطار جبال من بعيد تبدو حمراء في أعتابها وأكتافها قطع من أشجار الغابات القصيرة ورأينا الطائرات في هذا المطار كثيرة جداً أكثر منها في

مطار لشبونة بكثير، ومنها طائرات شركة (ايبريا) الواسعة المشهورة وشركة اسبانيا إير الأصغر منها.

وقفت الطائرة أمام كم متحرك من أكمام المطار وإن شئت قلت: إنه دهليز من دهاليزه.

وقد غيرنا ساعاتنا فقدمناها ساعة واحدة لأن وقت مدريد متقدم على وقت لشبونة بساعة واحدة.

وجدنا في استقبالنا في المطار الدكتور صالح بن محمد السنيدي مدير المركز الإسلامي في مدريد ونائبه في إدارة المركز الدكتور إبراهم بن عبدالكريم الزيد ومعهما شخصان أحدهما سائق سيارة المركز وهو مغربي من تطوان مقيم في إسبانيا منذ مدة طويلة.

في مدينة مدريد:

ذهب بنا الإخوة إلى فندق (نوفتيل) حيث كانوا حجزوا لنا فيه غرفتين بأجرة مخفضة لأن المركز مؤسسة خيرية معروفة وهو قريب جداً من المركز الإسلامي بحيث إن المرء يسير على قدمه بيهما بسهولة.

عندما دخلت غرفتي وجدتهم كتبوا على التلفاز بالإنجليزية وليس بالعربية أو الإسبانية اسمي ((شيخ محمد بن نا) ولم يكملوا اسم ناصر لطول الاسم، (شيخ محمد بن نا) نأمل أن تقضوا إقامة جميلة في فندقنا.

والتوقيع: إدارة الفندق، وهذه مجاملة دأبت بعض الفنادق على اتباعها وقد رأيتها في فنادق متباعدة من العالم كان آخرها في مدينة (مانيلا) عاصمة الفلبين.

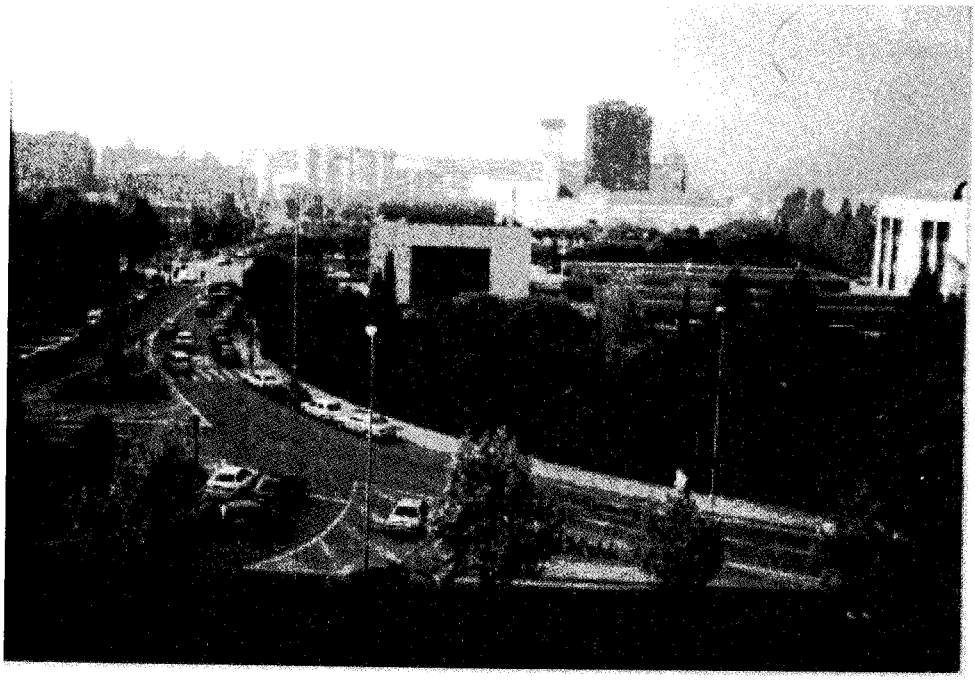

من نافذة الفندق في مدريد، أرى منارة المركز الإسلامي

أما فندق (نوفتيل) فإنه واحد من سلسلة من الفنادق الفرنسية موجودة في أنحاء العالم نزلت في بعضها في أماكن عديدة من أبرزها مقر إدارتها الأصيل (باريس).

وفي الساعة العاشرة ليلاً حضر إلينا في الفندق الدكتوران صالح السنيدي وإبراهيم الزيد وذهبنا معهما سيراً على الأقدام إلى مطعم المركز الإسلامي في مدريد لتناول العشاء مع أننا لسنا بحاجة إليه لأننا أكلنا في الطائرة ما يكفينا لبقية هذا اليوم، ولكن كان أعدّ الطعام من قبل الموظفون في المطعم ينتظروننا كما قالا.

وقد باشرنا ضابط الحراسة في المركز وله مساعدون بالترحيب الحار باللغة العربية لأنه مغربي، وقد قبل جبيني، وقال: أنا أعرفك من قبل وزرتك في

مكتبك في رابطة العالم الإسلامي، فرأيت بعض كتبك والمقالات التي ذكرتك في الجرائد.

أما مطعم المركز الإسلامي الذي انتقلنا إليه فإنه واسع جميل ذو زينة من الرخام الفسيفساء أندلسية وأثاثه جيد ذكر مديره أنه يكسب الآن مكسباً جيداً، وجميع ما يكسبه يعود إلى المركز الإسلامي.

مائدة المركز الإسلامي في مدريد في مطعم المركز

وكانت المفاجأة أن أكثر الذين يأكلون فيه ويفضلونه على غيره هم من غير المسلمين مع أنه لا يقدم مشروبات كحولية ولكنهم يأتون إليه لنظافته ونكهة الطعام العربي الذي يقدم فيه.

أخبرنا الإخوة أننا لا نريد كثير طعام فأسرعوا بإحضار بعض ما كانوا أعـــدوه من قبل وهو الكباب وأنواع الشواء الأخرى من الدجاج وغيره وقدموا الخبـــز والأرز وأما الشراب فإنه عصير العنب مضافاً إليه أشياء تعطيه نكهة خاصة.

ولاحظنا أن قائمة الطعام في المطعم هـــي اثنتـــان إحـــداهما بالإســـبانية والأخرى بالعربية.

وانصرفنا بعد الفراغ من العشاء إلى منزل الدكتور إبراهيم الزيد نائب المـــدير في داخل المركز فشربنا فيه الشاي والقهوة وصلينا المغرب والعشاء جمعاً.

وكان معي مرافقي في الرحلة الدكتور عبدالرحمن العيفان مـــدير إدارة الثقافـــة في الرابطة، و ذلك منذ أن غادرنا بلادنا في بدء الرحلة حتى عدنا منها.

وبحثنا خلال ذلك معهم علاقتهم بالحكومة الإسبانية وعامـــة النـــاس هنـــا فأخبرونا من و اقع التجربة أن الجميع هنا لا يكره العرب، ولا يعاكس المركـــز الإسلامي، ويحاول أن يحد من نشاطه.

يوم الثلاثاء ١٤٢٣/٨/٢هـ:

صابح مدريد:

صباح مدريد مليء بالمشاعر المتناقضة ما بين السرور لزيارة الأندلس التي سنبدأها غداً بل نحن الآن في اصطلاح قومنا أهل الأندلس في أرض الأندلس فما مدريد إلا مدينة أندلسية أسسها العرب وأقاموا فيها كما يقيمون في الأندلس واعتبروها أندلسية.

أما الإسبان المعاصرون فإنهم يعتبرونها خارج الأندلس بموجب التخطيط الذي خططوا به مناطق بلادهم.

وبين الحسرة على هذا الفردوس الذي أضعناه بسبب اختلاف أهله من المسلمين، والشقاق الواقع بينهم وانضمام بعضهم إلى الكفار في محاربة إخوتهم المسلمين فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

غير أن مما يسر العين والفؤاد أنني ألقيت نظرة من خلال غرفتي في الفندق فرأيت مباشرة منارة جامع المركز الإسلامي شامخة ناهضة من مبناه الواسع الذي غدا بحق معلماً من المعالم المميزة في هذا الحي من مدينة مدريد.

ومنارته صومعة وهي المأذنة الأندلسية المربعة الشكل.

جولة في المركز الإسلامي:

مع الإخوة في محراب جامع المركز الإسلامي في مدريد (من اليمين) عبدالرحمن العيفان فالدكتور صالح بن محمد السنيدي فالمؤلف فالدكتور إبراهيم الزيد

المركز الإسلامي في مدريد يستحق أن يقال فيه جولة لأن فيه من الأقسام والإدارات أكثر مما في كثير من الوزارات، وفيه مما يستحق الزيارة من مؤسسات في طبقات عديدة منه.

ذهبنا إليه سيراً على الأقدام من فندقنا المجاور له (فندق نوفتيل) بصحبة الدكتور ين صالح السنيدي مدير المركز وإبراهيم الزيد نائبه، فكان أول ما وقفنا عليه

فيه مسجده الرائع جمالاً ومظهراً وهندسة حتى إن أعمدته رشيقة متميزة عن الأعمدة التي يعرفها الناس في هذه البلاد، وهو فسيح نظيف غاية النظافة.

تلاميذ المدارس في المركز:

الطالبات الإسبانيات في جامع المركز الإسلامي في مدريد يستمعن إلى شرح عن الدين الإسلامي

إن منظر جامع المركز هو منظر سار من جميع الاعتبارات: اعتبار المظهر واعتبار المخبر، بل حتى فيما وراء المظهر من كونه يوجد في هذه العاصمة الأوروبية المهمة التي كانت مدينة أندلسية مسلمة.

والأهم من ذلك ما رأيناه فيه وهم جماعات من تلاميذ المدارس الإسبانية وتلميذاتها جاء بهم أساتذتهم إلى المركز الإسلامي ليطلعوا عليه وليسمعوا شيئاً عن الدين الإسلامي ومبادئه.

وقد رأينا فيه عند وصولنا مجموعتين كبيرتين إحداهما لتلميذات مدرسة ثانوية للبنات وهن كبيرات نسبياً لذلك ألبسوهن كلهن بدون استثناء أقنعة للرأس- جمع قناع- والمراد به غطاء كأنه المنديل يغطي شعورهن ما دمن في المسجد، بل ما دمن في المركز وينزعنه عند الفراغ من زيارة المركز.

أما بقية لباسهن فهو محتشم بمعنى أنه ساتر بالنسبة إلى ما تلبسه النساء في هذه البلاد لأنهن أولاً تلميذات مدرسة ثانوية ذات لباس خاص وثانياً أن أساتذتهن واستاذاتهن يعرفون جميعاً أن زيارة المركز الإسلامي تتطلب أن يكن في ثياب ساترة.

وقد تجمعت التلميذات في أرض المسجد فوق السجاد بدون كراس ومقاعد بطبيعة الحال، وتحلقن حول الأستاذ محمد العفيفي وهو أحد العاملين النشطاء في المركز الإسباني ويجيد اللغة الإسبانية لأنه كان قضى سنوات طويلة في إسبانيا وهو مصري متجنس بالجنسية الإسبانية، فكان واقفاً وهن جالسات على الأرض وهو يشرح لهن مبادئ الدين الإسلامي وأهدافه والغرض من إنشاء المركز الإسلامي وما يقوم به الآن من عمل.

ووظيفة الأستاذ العفيفي هي مسئول الشئون الثقافية والإعلامية في المركز.

وقد نوهوا بأن هؤلاء الطالبات المصغيات الآن لما يقوله العامل في المركز الأستاذ محمد العفيفي هن طالبات مدرسة ثانوية سوف يدرسن دراسة خاصة بالتوجيه التربوي، وإذا يكون عملهن مهما في غاية الأهمية ومجئهن مع معلماتهن إلى المركز أمر مهم.

ثم إن الأمر لا يقتصر على مجرد زيارة المركز والإطلاع على ما فيه وإنما يتعدى ذلك إلى سماع الشرح والتحليل والتعليل لمبادئ الدين الإسلامي مع إتاحة الفرصة لمن يشاء منهن أن يطرح سؤالاً من الأسئلة أو يستفسر عن شيء يتعلق بالإسلام، مهما كان نوع السؤال والاستفسار، لانهن في بلد مفتوحة، والعجيب من أساتذتهن بل والقائمين على مدرستهم في كونهم يرسلون طلبتهم وتلامذتهم إلى المركز الإسلامي لمعرفة ما يحتاجون إلى معرفته حول الدين الإسلامي ولا يمنعهم تعصبهم لمذهبهم المسيحي عن ذلك.

طلبة إسبان يستمعون في جامع المركز الإسلامي في مدريد إلى شرح عن الدين الإسلامي

ولا شك في أن مرجع ذلك إلى شيئين أولهما تحررهم الثقافي من قيود الكنيسة بحيث أن الشخص منهم يريد أن يحصل على المعلومات من مصادرها المباشرة وليس مما يقوله رجال الكنيسة.

الشيء الثاني: ضعف تأثير الدين الكاثوليكي في نفوسهم، نظراً لمبادئه المعقدة التي لا يفهمها كثير منهم بمعنى أنهم لا يستسيغونها مثل التثليث الذي من مبادئه أنه اختلط الناسوت وهو مريم باللاهوت وهو الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً فنشأ عنهما الروح القدس وهو عيسى.

وقولهم: إن عيسى ابن الله وأشياء كثيرة مما أدخله رجال الكنيسة على الدين المسيحي الذي كان الأولون منهم قد حرفوه وغيروه عما كان عليه عند ما أنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام.

وهذا ليس خاصاً بمدرسة دون مدرسة ولا باتجاه دون اتجاه من اتجاهات المدارس وإنما هو عام لأكثر المدارس وقاعدة عندهم بحيث إن الزيارات تكون في أربعة أيام من أيام الأسبوع هي الاثنين إلى نهاية الخميس يأتي عدد بمعدل ١٥٠ شخصاً في كل يوم.

أما أيام الجمعة والسبت والأحد فلا يأتي أحد حسب البرنامج الذي وضعه المركز.

أما الجمعة فإن ذلك قد يصادف حضور بعض المصلين للصلاة مبكرين وأما السبت والأحد فإنهما يوما عطلة للجميع.

وطلاب مدرسة إعدادية:

المركز الإسلامي في الطابق الأسفل من المركز

والمجموعة الثانية التي رأيناها في المركز أيضاً هي طلاب مدرسة إعدادية مختلطين ما بين إناث وذكور وهم أيضاً يستمعون إلى شرح من رجل آخر من العاملين في المركز.

والرجل يشرح لهم أيضاً مبادئ الإسلام ولكن بدرجة أكثر تبسيطاً نظراً إلى أسنانهم الصغيرة نسبياً.

والشيء الذي أعجبني أكثر في الموضوع أن طلاب المدرستين هاتين كلتيهما يلقون بأذهانهم ويرهفون أسماعهم لما يقوله مؤظف المركز الإسلامي عن الدين الإسلامي ومنه رد مهذب على ما ألصق من مفتريات بالإسلام وما ألحقوه به- بزعمهم- من أضاليل وأكاذيب.

ومسجد المركز الإسلامي اسمه (مسجد عمر بن الخطاب) وما كانوا بحاجة إلى تسميته لأنه المسجد الوحيد في المركز وإن كان كبيراً يمكن أن يكون بمساحة وتكلفة بنائه ثم تأسيسه يعادل ثلاثة مساجد صغيرة أو أربعة.

المؤلف بين التلاميذ الإسبان الذين يزورون المركز الإسلامي وقد طلبوا التقاط هذه الصورة

وليست زيارة المركز الإسلامي في مدريد مقتصرة على طالبات المدارس وطلابها، وإنما تشمل أيضاً روادا كباراً من طلاب المعرفة والإطلاع وحتى من المسئولين بالدولة ومن ذلك زيارة مدير الشئون الدينية في وزارة العدل.

فقد قامت (مرثيديس ريكو جارابيا) مديرة الشئون الدينية بوزارة العدل الإسبانية بزيارة للمركز الثقافي الإسلامي بمدريد في يوم الاثنين ١١ من جمادى الأولى ١٤٢٥هـ الموافق ٢٨ يونيو ٢٠٠٤م، ورافقها أحد مساعديها بالوزارة، واسمه خواكين مانتيكون.

وكانت هذه الزيارة تلبية لدعوة من مدير المركز الدكتور إبراهيم الزيد ورداً على الزيارة التي قام بها لها في الأسبوع السابق لتهنئتها على ثقة رئيس الحكومة فيها وتوليها هذا المنصب الرفيع الجديد.

ووجهت (مرثيديس) الشكر لمدير المركز على دعوته لها وأثنت على الدور الذي يقوم به المركز من أجل خدمة الإسلام والمسلمين ومد جسور التفاهم مع المجتمع الإسباني، وقالت إن الوزارة لديها خطة لتنظيم العمل الإسلامي وسد ثغرات الماضي تقوم على دفع التسيير الذاتي للجمعيات الإسلامية وحثها على ضرورة تسجيلها في الدائرة المختصة بوزارة العدل كي نتمكن من بعد ذلك من التمتع بالمزايا والمنافع، وعزم الوزارة على إعطاء دفعة للحوار مع ممثلي اللجنة الإسلامية وتفعيل الاتفاق المبرم عام ١٩٩٢م.

وأضافت أن هناك حاجة لمواصلة التعاون مع المركز وأثنت على سياسته الهادئة التي جلبت له الاحترام والتقدير والمصداقية أمام كافة سلطات الدولة.

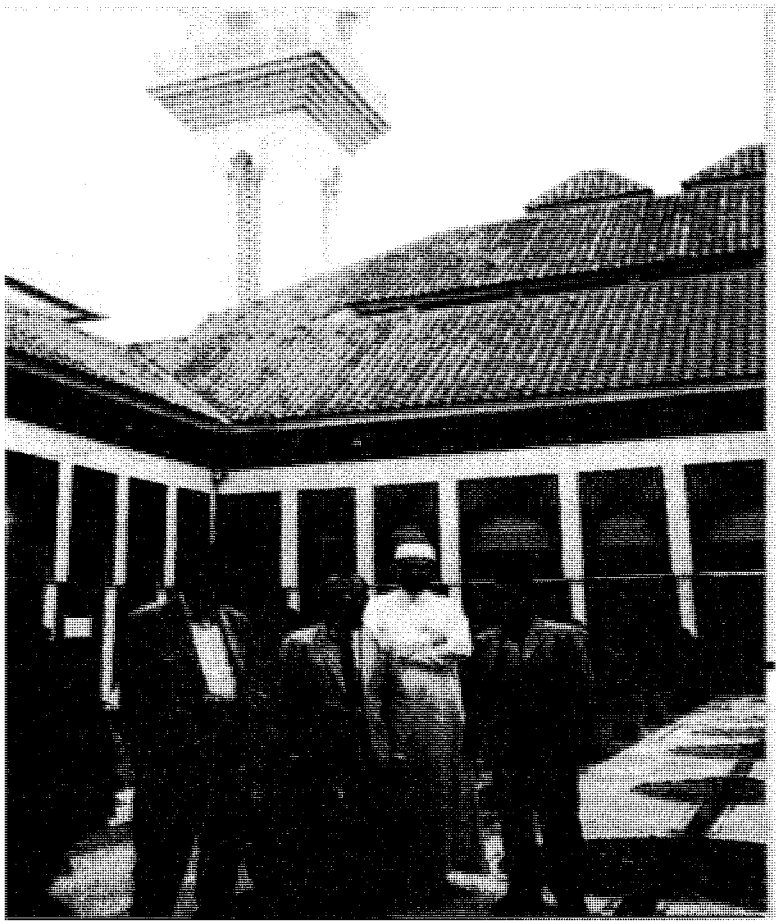

في جانب من صحن المركز الإسلامي في مدريد مع مدير المركز الدكتور صالح السنيدي ونائبه الدكتور إبراهيم الزيد

وأشارت إلى علمها بتعاون المركز الوثيق مع مختلف أجهزة الدولة، وقالت إن المرحلة الجديدة سوف تحتاج إلى بعض الوقت لجني ثمارها الإيجابية كما أن هناك اتجاها لإقامة معهد أو أكاديمية لإعداد الأئمة والدعاة الذين يحترمون القيم والمثل الدستورية والديمقراطية في إسبانيا وسيتم الاستعانة بـــوزارة الخارجيـــة

الإسبانية لبذل مساعيها لدى الدول الإسلامية الصديقة من أجل التعاون في إسبانيا في هذه المرحلة.

وأعربت المسؤولة عن سعادتها من التحريات حول تفجيرات الـ ١١ من مارس التي وقعت في مدريد والتي كشفت حتى الآن عن تورط عناصر إجرامية مرتبطة بتهريب المخدرات وجرائم عامة، وأبعدت- نوعاً ما- شبهات توجهات دينية خلفها، وهذا مدعاة للفرح خاصة وأنه كان هناك انطباع مخالف لهذا في البداية، وشددت على أن الغالبية الساحقة للجالية الإسلامية أناس صالحون.

وقالت: إن الأحداث الأخيرة قد جذبت الانتباه إلى ضرورة حل بعض المشكلات الخاصة بالمسلمين وتوجد الآن إرادة وعزم لذلك.

وقدم مدير المركز الشكر لها لقبولها دعوته واستعرض مختلف الأنشطة التي يقوم بها المركز والخدمات الدينية والثقافية والتعليمية والاجتماعية والرياضية، وقال بأن المركز دار خدمات مفتوحة للجميع، ويعرف نبض الجالية الإسلامية وشواغلها.

وتطرق في حديثه عن خدمات المركز إلى المسجونين واشتراك المركز في دورتين عن الدين الإسلامي في سجون مدريد في صيف هذا العام.

وناشدها ضرورة أن يكون هناك دعاة داخل مختلف السجون من أجل الصالح العام تتولى وزارة العدل أو الداخلية مسئولياتهم وأشار في حديثه إلى أن المعلومات التي وردت بشأن الذين تورطوا في الأحداث الأخيرة كشفت عن أنه إذا كان بعضهم قد تردد على المركز لفترة ما بحكم أنه المسجد الكبير في مدريد، فقد ابتعدوا جميعاً عن المركز بعد ذلك وهذا يعد دلالة على أن فكرهم لم يجد

أرضاً خصبة في المركز، وأن كافة نشاط المركز يدور في إطار الشرعية والشفافية الكاملة، ولذا فهو لا يناسب هذه النوعيات من الناس.

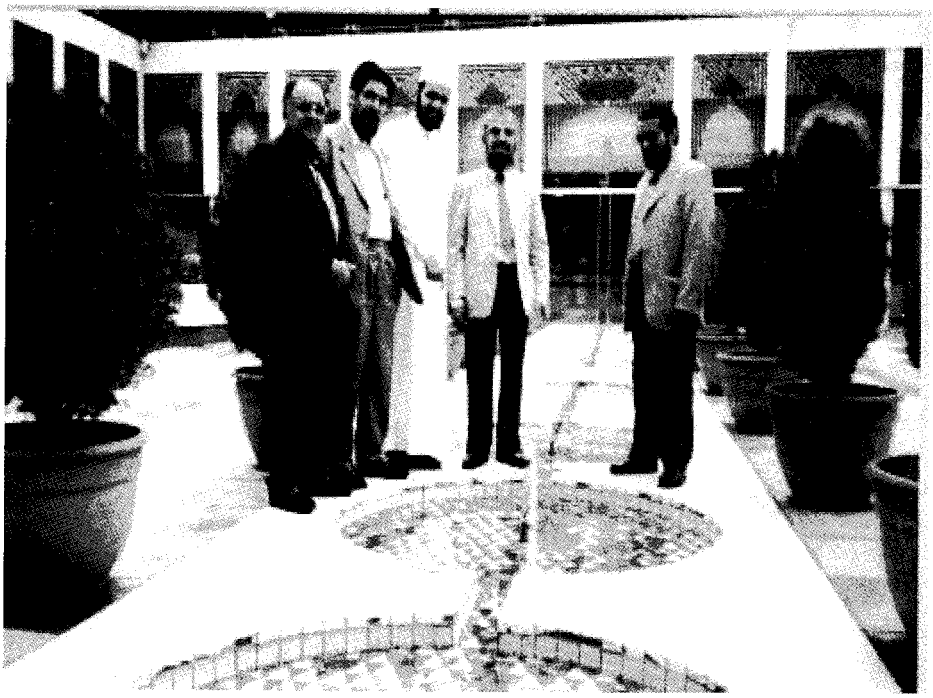

مع الرفقة في صحن المركز الإسلامي في مدريد (على يسار المؤلف الدكتور صالح السنيدي مدير المركز)

وأشار إلى أن هناك فكرة تدور في ذهن إدارة المركز لتنظيم مؤتمر عن نظرة الإسلام للإرهاب ودعوة علماء ومفكرين من إسبانيا وخارجها للحديث عن هذا الموضوع، وقد راقت لها كثيراً هذه الفكرة وأعربت عن مساندتها لها، ووعدت بإبلاغ الوزير بمضمون ما دار في هذا اللقاء والتنسيق معه لزيارة المركز في المستقبل.

وبعد ذلك قامت بجولة تفقدت فيها مختلف منشآت ودوائر المركز ثم تناولت طعام الغداء بدعوة من مدير المركز و غادرت المركز على وعد بمواصلة الاتصالات.

حضر المقابلة مساعد المسؤولة خواكين مانتيكون، ومدير العلاقات العامة بالمركز الأستاذ محمد العفيفي.

زيارة خريجي أكاديمية الشرطة:

تلبية لرغبة مفتش الشرطة في حي ثيوداد لينيال الذي يقع فيه المركز الثقافي الإسلامي بمدريد (خوان لاماركا) استقبل المركز وفداً من الدارسين في الفصل النهائي لأكاديمية الشرطة وإعداد المفتشين بمحافظة أبيلا وذلك في صباح يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى ١٤٢٥هـ الموافق ٢٨ يونيو ٢٠٠٤م، وقد ضم هذا الوفد ١٣ دارساً ودارسة مع أحد الأساتذة وبرفقتهم مفتش شرطة الحي.

ونظمت إدارة المركز جولة للوفد تفقد فيها مختلف المنشآت والدوائر كما قدمت عرضاً شاملاً لأهم الأنشطة التي يقوم بها المركز لخدمة الإسلام والمسلمين والتعريف بالإسلام في إسبانيا، ثم شرحاً وافياً عن تعاليم الإسلام و حواراً للرد على كافة الأسئلة والاستفسارات.

وقد رحب مدير المركز بالوفد الزائر وشكرهم على اختيار المركز لهذه الزيارة والاهتمام بشئون الإسلام والمسلمين وحرصهم على معرفة الحقائق.

وقدمت إدارة المركز في إطار حفل صغير بعض الهدايا التذكارية والمرطبات في نهاية الزيارة.

وأعرب الوفد عن شكره لإدارة المركز للحفاوة التي حظي بها واللمسات والمعلومات التي حصل عليها.

وجدير بالذكر أن هذه هي الزيارة الثانية من هذه الأكاديمية إلى المركز حيث إنه كانت هناك زيارة سابقة تمت في العام الماضي ولاقت استحساناً من جانب المسئولين عن الأكاديمية المذكورة، وعليه رأت تكرار هذه الزيارة هذا العام.

كما أن هذه الزيارة والزيارة السابقة تعكس طبيعة العلاقات الطيبة التي تربط المركز بمختلف أجهزة الأمن الإسبانية والمصداقية التي يتمتع بها لدى هذه الدوائر وقدر الثقة والتعاون بين مخفر شرطة الحي الواقع به المركز وإدارته.

العبودي العراقي:

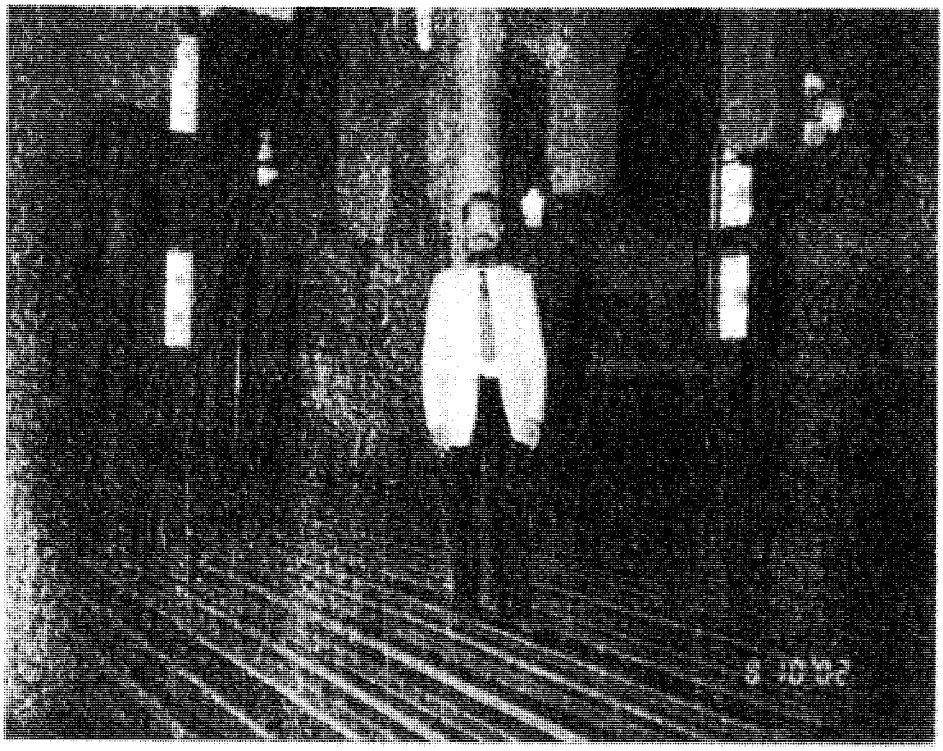

المؤلف في مسجد المركز الإسلامي في مدريد

قمنا بجولة مع الدكتورين وبعض موظفي المركز وبخاصة المسؤول عن الضيافة فيه، فكان أن أرونا أول الأمر مكاناً لتجهيز أموات المسلمين، حيث توجد ثلاجة مناسبة لحفظ الجثث يغسلون الميت ويكفنونه ويجهزونه ثم يصلون عليه في المسجد، وقد خصصوا موظفاً من موظفيهم لهذا الغرض، وهم يتقبلون جنازة أي رجل مسلم سواء أكانوا يعرفونه أو لا بشرط أن يعرفوا أنه مسلم بوساطة من يثقون به من المسلمين.

وكان تجهيز الجنازة بجانب المسجد خارجاً عنه بحيث لا يوجد اتصال بينهما إلا من ا لباب الخارجي للمسجد، وقد قابلنا أثناء تجوالنا أحد موظفي المركز وهو عراقي اسمه جاسم عيد العبودي على لفظ (العبودي) الذي هو اسمي الأسري، وذكر أنهم ينطقون به هكذا وكذلك يعرفه أهل المركز بالعبودي وقال أحدهم ممازحا: أيكم الأصل العبودي السعودي أم العبودي العراقي؟ فقلنا: كلنا أصل، وقد ذكر أنه من منطقة في العراق قريبة من مدينة النجف.

قاعة حمزة بن عبدالمطلب:

هذه قاعة واسعة في المركز ليست بعيدة من المسجد يستعملونها لغرضين مهمين أولهما كان المقصود منها في الأصل وهي أن توضع فيها موائد الإفطار في رمضان لما بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ شخص، والثاني: هو الإتساع بها يوم الجمعة حيث صار المصلون صلاة الجمعة يكثرون ويملؤن المسجد فصاروا يفرشونها ويلحقونها به، وقد أخبروني أن عدد المصلين صلاة الجمعة في مسجد المركز الإسلامي وهذه القاعة يبلغ ٢٥٠٠ مصلٍ، هكذا قالوا وأرى أن المسجد والقاعة لا تتسع لهذا العدد وربما كان بعضهم يصلي في ممرات بينهما أو حول القاعة.

ونظراً لكثرة المصلين رأيتهم الآن يعملون على فتح باب من المسجد إلى الخارج، وكان بابه الذي يدخل منه المصلون يدخل منه إلى المركز الذي يدخل إليه مع بابه، ولكن نظراً لكثرة المصلين يعملون الآن على فتح باب مباشر من المسجد إلى الشارع حتى لا يضطر المصلون إلى الدخول إلى المركز ثم المسجد الذي يقع بطبيعة الحال داخل المركز ولكن إلى جهة من جهاته وهي الجهة الشرقية.

وذكروا أنهم يريدون توسعة المسجد من ركن بجواره وهذا ممكن، ولكنه سيكون بمثابة الملحق لأن كونه يبدو جزءاً منه يقتضي أن يكون مظهره مثله وسقفه مساوٍ لسقفه وهذا فيه صعوبة، ولكنه أمر مفرح أن يزداد عدد المصلين في هذا المركز الإسلامي في مدريد بهذه الصفة.

ثم انتقلنا إلى البهو الرئسي الداخلي وقد وضعوا فيه صفاً مستقيماً من النوافير التي تمج الماء بطريقة فنية جميلة ذكرتني بمنظر النوافير في البهو الذي يقع أمام (تاج محل) الشهير في الهند، وإن كانت هذه أصغر وأشد تقارباً، إلا أنها ربما كانت أكثر أناقة.

والبهو هو الصحن كما يعرف في الأندلس وهو المكان المكشوف الذي تفتح عليه الغرف والمساكن من البيت والقصر مثلاً.

وهذا البهو محاط بأقواس أندلسية جميلة تتقدم الأبنية التي تحيط به.

وقد لاحظت أن سقوف الأبنية المحيطة بالبهو هي من الفخار الأحمر، وقلت لهم: هل مثل هذه السقوف موجودة عند العرب في الأندلس، وكان من بين الذين معنا من العاملين في المركز المهندس محمد نبيل محمد فهمي وهو مسئول

عن الشئون الهندسية فيه فأفادني أنها موجودة حتى قيل، إن العرب هم الذين أدخلوها إلى الأندلس أو قال: إنها من مميزات السقوف في الأندلس.

المؤلف في صحن المركز الإسلامي في مدريد

وينزل من ركن من البهو إلى قاعة منيرة تشبه أن تكون طابقاً أرضياً لولا أن بعضها مكشوف فوجدنا فيها بعض الطلبة الإسبان الذين كنا رأيناهم في المسجد يستريحون ويقدم لهم المركز المرطبات أي الأشربة الباردة من باب الضيافة والإكرام لهم.

وقد أعطاهم المشرفون عليهم الحرية في الحركة والكلام فوجدنا أنهم مؤدبون مهذبون هنا إلا فيما يتعلق بالأصوات فإنهم كانوا يرفعون أصواتهم وقد اختلطت بعضها ببعض كما يفعل طلاب المدارس في العادة.

وهم ما بين صبايا وصبيان رأيتهم في غاية الإنشراح والسعادة، ربما كان ذلك لأنهم رأوا شيئاً جديداً عليهم.

ومن الطريف أن إحدى الصبايا أظنها في الثانية عشرة بادرت عندما وصلت إلى هذه القاعة فالتقطت صورة لي من مصورة بيدها.

ثم اجتمع إليها زملاء لها وزميلات وطلبوا التقاط صورة لي معهم من مصوراتهم وانهتزت أنا الفرصة لالتقاط صورة أيضاً حية للقراء لبعض أولئك الطلبة الإسبانيين الذين يزورون المركز الإسلامي.

قاعة المحاضرات:

استمر تجوالنا على المركز ومنشآته فوصلنا إلى قاعة المحاضرات التي وجدناها واسعة مرتبة مجهزة بما يلزم لها يتقدمها مسرح كبير، بل هو كبير جداً يتسع لفرقة من الممثلين ذكروا أن فيها ما يزيد قليلاً على ٥٠٠ كرسي وظني أنها أكثر من ذلك، ولم يكن هذا العدد من الكراسي ليسترعي انتباهي إنما الذي خطط لقاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة إبان عملي فيها وكنت المسئول آنذاك عن مثل هذه الأمور فيها، فجعلت فيها ألفاً وخمسين كرسياً.

ومن الطريف في أمر قاعة المحاضرات في الجامعة الإسلامية تلك انها ما كادت تكتمل حتى نقل عملي من المدينة المنورة إلى الرياض في عام ١٣٩٤هـ

ولكنني دعيت في مهرجان المدينة المنورة من الجامعة الإسلامية نفسها إلى إلقاء محاضرة في تلك القاعة فألقيت فيها محاضرة بعنوان (أثر الأقليات المسلمة في الدعوة إلى الله) ولكن الحضور الذي كان عددهم كبير نسبياً لم يملأ تلك القاعة.

ومن قاعة المحاضرات في المركز الإسلامي انتقلنا إلى العيادة الصحية ولا أحد فيها الآن، وقد ذكر السبب في ذلك وأنسيته.

النادي النسائي:

بعد ذلك انتقلنا إلى النادي النسائي في المركز وهو يتبع مدرسة فاطمة الزهراء للخياطة وقد وجدنا فيه خمس نساء يعملن على بعض (مكائن) الخياطة الكثيرة الموجودة فيه وهو يدرب نساء المسلمين على الخياطة على أيدي نساء مسلمات عارفات بذلك، أما المسئولة عنه عندما دخلنا إليه فهي أخت مغربية اسمها عزيزة.

قاعة المعارض:

انتقلنا بعد هذا مع الإخوة إلى (قاعة المعارض) وهي واسعة جداً فيها معرض للمدرسة وهي تتبع المركز ومقرها فيها، وبخاصة لرسوم الأطفال ولتعليمهم الرسم وتربية الذوق الفني عندهم.

وقد واصلنا تجوالنا في المركز فعدنا إلى جهة المسجد حيث دخلنا مصلى النساء ويصلي فيه وبخاصة الجمعة والتراويح في رمضان عدد من النساء ذكروا أنه كثير.

ودخلنا قاعة تجهيز الأموات وكنا مررنا بها ولم ندخلها من قبل وقد تكلمت عليها فسألتهم الآن عن معدل العدد الأسبوعي للأموات الذين يجهـزونهم فيهـا فذكروا أنهم أربعة في الأسبوع.

فقلت: هذا يدل على كثرة الأحياء من المسلمين.

ولاحظت أنهم عملوا عملاً جيداً في مصلى النساء فهو في شرفة في آخـر المسجد فوق مصلى الرجال والجيد فيه أنهم جعلوا الحاجز الذي أمام النساء الذي هو جدار الشرفة مما يلي الإمام مخرقاً حتى ترى النساء الإمام وبعـض مـن يصلون خلفه، وليس على ما عليه الحال في بعض مساجد أهل الهنـد وبعـض المساجد في بلادنا من تخصيص غرفة منفصلة، أو قسم منعزل منفصـل عـن مصلى الرجال لا يصل النساء به إلاّ خيط لمكبر الصوت، فلا يرين الإمـام ولا من خلفه من المصلين.

وكثيراً ما يرتبكن لأنهن أحياناً لا يميزن التكبيرات بعضها من بعض فـلا يعرفن هل التكبيرة للقيام أو للقعود إلا إذا كن تابعن الإمام متابعة كاملـة بغايـة الانتباه من أول الصلاة وكن يفقهن كل الركعات والسجدات فيها مع أن ذلك ليس كثيراً في نساء أهل الأمصار وخصوصاً منهن المتبدئات بالصلاة.

وإنما السنة أن تكون النساء خلف الرجال في الصلاة يرين الإمام أو مـن خلفه فهذا هو الذي كان موجوداً على عهد رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم وصحابته و(لو كان خيراً لسبقونا إليه).

مكتبة المركز:

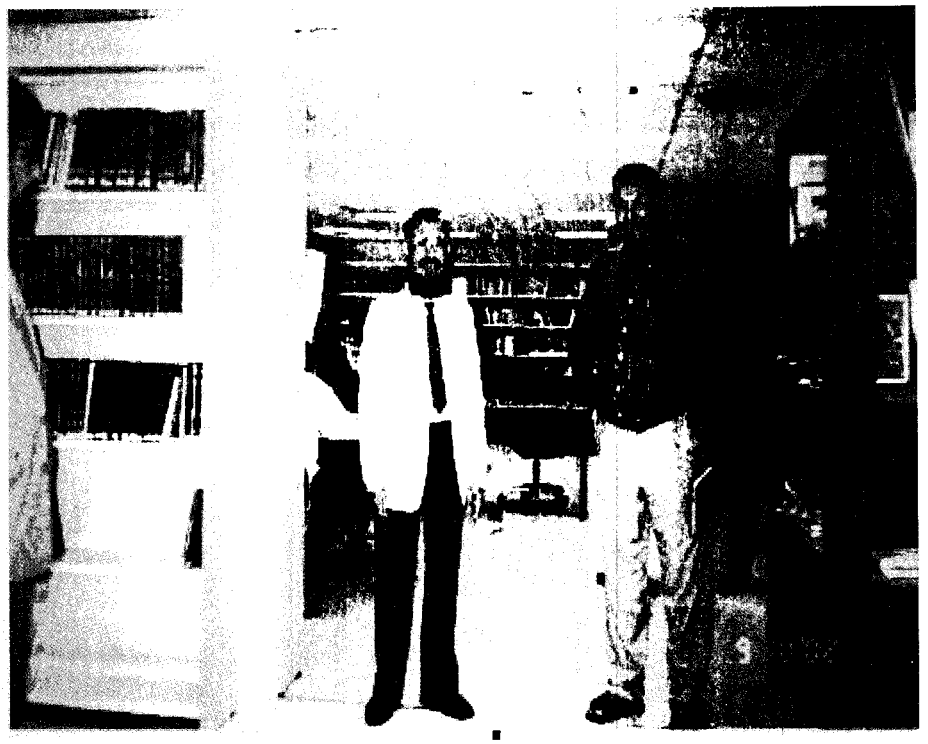

مع مدير مكتبة المركز الإسلامي في إحدى قاعات المطالعة في المكتبة

ذهبنا بعد ذلك لرؤية (مكتبة المركز) وهي واسعة مؤلفة من عدة قاعات متصلة رأيت فيها مراجعين كثراً، وأجمل ما فيها أن المراجعين يخدمون أنفسهم، بمعنى أنهم يستطيعون أن يأخذوا الكتاب من مكانه في المكتبة فيطالعون منه على ما يريدون ثم يعيدونه إلى مكانه من دون أن يحتاجوا إلى أن يسألوا الموظف أن يحضرهم لهم أو أن يكتبوا طلباً للاستعارة الداخلية في المكتبة، وهذا أعادني إلى سنوات مضت سحيقة بالنسبة إلى عمري لأنها مضت عليها الآن ٥٩ سنة وذلك أن أول وظيفة عملت فيها هي وظيفة (قيم مكتبة جامع بريدة) فكنت أتيح لكل شخص

أن يأخذ الكتاب الذي يريده، وإذا فرغ منه يعيده إلى موضعه، وفي نهاية كل يوم أتفقد الكتب فأعيد الكتب التي وضعت في غير مكانها إلى موضعها الصحيح، مع أن الكتب في المكتبة آنذاك لم تكن كثيرة.

وقد ذكر مدير المركز أن هذا من مزية مكتبتهم إلى جانب احتوائها على أكثر الكتب التي تتعلق بتاريخ المسلمين في الأندلس.

المدرسة السعودية:

وهذه مدرسة كاملة موجودة في المركز اسمها (المدرسة السعودية) وهي من المرحلة الإعدادية إلى الثانوية، وتعترف بها الحكومة الإسبانية أي تعترف بالشهادات التي تصدرها لأنها منسجمة مع الشروط التي تشترطها الحكومة للمدارس غير الحكومية من الناحية التربوية.

ويبلغ عدد طلابها ٢٤٠ طالباً أكثرهم من غير السعوديين، وتتقاضى من الطلاب رسوماً أقل مما تتقاضاه المدارس الخاصة الأخرى مع أن فيها تربية إسلامية ودراسة جيدة للغة العربية.

والمدرسون أكثرهم من العرب الذين لا يشترطون فيهم أن يعرفوا اللغة الإسبانية وذلك من أجل أن يدرسوا اللغة العربية والدين باللغة العربية، أما اللغة الإسبانية فإن لها ثلاث مدرسات اسبانيات.

ومن الطريف أن مدير المدرسة بدوي الأصل يدل على ذلك اسمه العربي بل الأصيل (حزام بن سعود الهويمل) وهو سعودي الجنسية من أهل القويعية ومؤهل لهذا العمل، وذكر أنهم لا يفرقون في المدرسة بين الطلاب السعوديين والطلاب المولودين في إسبانيا من أبناء المسلمين.

فصل في المدرسة العربية في المركز الإسلامي في مدريد

لقد ألح الأخ حزام مدير المدرسة علينا بالبقاء فيها وقتاً أكثر وكنت أود ذلك لأن فصولها واسعة وكل ما فيها مرتب، وذو مظهر جيد ولكن الوقت كان ضيقاً ونحن لا نزال في الجولة على أقسام المركز الإسلامي لم ننته بعد.

ولذلك توجهنا إلى غرفة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) فوجدنا فيها دورة لتعليم الكمبيوتر، والعجيب في أمر هذه الدورة أنها تمت بالتعاون مع المركز الإسلامي وبلدية مدريد، فالمركز الإسلامي يقدم المكان ومدرس اللغة العربية والبلدية قدمت الأجهزة ومعلمي اللغة الإسبانية وقد رأيت الطلاب منتظمين في هذه الدورة.

وهذا مما يسر أن يكون المركز الإسلامي بهذه المثابة بحيث تجده بلدية مدريد أهلاً للتعاون معه على العمل لكونها تعرف امكاناته الجيدة وجديته في العمل.

ويقدم المركز الإسلامي مع هذا بعض الأثاث من الموجود لديه لاستعماله في الدورة أثناء انعقادها.

القهوة والسكري والضب:

بعد هذه الجولة التي لم أذكرها كلها طلباً للاختصار توجهنا مع الإخوة إلى مكتب مدير المركز الأستاذ الدكتور صالح بن محمد السنيدي فوجدناه قد أعد لنا فيه وهو معنا دلة قهوة عربية مبهرة بالهيل، وصحناً من تمر السكري القصيمي اللذيذ، وبجانب ذلك ضباً محنطاً لا أدري من أين جاءه فلم يخبرني به، ولكنه أستحسن منظر الضب المحنط في هذا الوسط الأوروبي البعيد عن الضباب والتراب، وما يأكله الأعراب، فاستمتعنا بذلك وقلنا له: لو كان ضبك هذا حياً يرزق بنفسه ويرزق به من يستمتعون بأكله لقلنا لك أن تذبحه وتسلخه وتقدمه لنا ومعنا الآن عدد كبير من كبار موظفي المركز حضروا مجلسنا لكي نتبين من هو منهم العربي الذي يأكل الضب ومن هو الذي يستنكف من ذلك على حد قول الأعرابي القديم:

وأكل الضباب طعام العُرَيْب، ولا تشتهيه نفوس العجم.

والضباب: جمع ضب، ويتناقض كلام هذا الأعرابي مع ما ورد في الحديث الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم عرض عليه لحم ضبّ فعافه وقال: لم يكن في أرض قومي فأجدني أعافه، وهو سيد العرب.

والشاهد الآن أن فريقاً لا يستهان به من العرب لا يـأكلون الضـب، ولا يطيقون حتى تصور أكله، ومنهم كاتب هذه السطور الذي أغناه الله منذ أن نشـأ قادراً على أكل لحم الإبل والغنم والطيور فلماذا يأكل الضب؟

لقد نعمنا بأكل السكري وشرب القهوة التي أكثر فيها صاحبها الهيل وألـذ مـن ذلك وأجمل منه أحاديث مفيدة سمعناها من كبار الموظفين في المركز عـن أوضـاع الإسلام والمسلمين في هذه البلاد الإسبانية وبعضها وأكثرها لم نسمع به من قبل.

في مكتب مدير المركز الإسلامي في مدريد، يساري مساعد مدير المركز الأستاذ الدكتور إبراهيم الزيد

الكلمات العربية في الإسبانية:

كان من بين ما تطرق له البحث الكلمات العربية الباقية بالإسبانية، وقد اجمع محاضرون أو كادوا وفيهم عرب يعرفون الإسبانية جيداً كالأستاذ محمد عفيفي وإسبان يعرفون العربية كالأخ يوسف رئيس جمعية إسلامية في غرناطة.

وقد خلصت آراؤهم إلى أن مجموع الكلمات العربية الباقية في الإسبانية يبلغ عددها نحو من أربعة آلاف كلمة.

والكلمات العربية في الإسبانية على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الكلمات التي بقيت على حالها من حيث اللفظ والمعنى مثل (الساقية) و(النافورة).

والثاني: التي بقي لفظها ولكن اختلف معناها مثل (القاضي) بمعنى العمدة لكونه يحكم إدارياً.

الثالث: الذي اختلف لفظه ومعناه ولكن يستدل عليه بأن أصله عربي بوجود (ال) التعريفية العربية في أوله مثل المصطلحات الزراعية ونسبة من هذه الكلمات مأخوذة من العامية الأندلسية مثل (الودة) بمعنى المخدة أو الوسادة.

مأدبة عربية:

بعد هذه الجلسة المفيدة في مكتب مدير المركز الإسلامي في مدريد ذهبوا بنا إلى مطعم المركز الإسلامي فوجدناه مليئاً بالطاعمين وأكثرهم من الإسبان غير المسلمين، جاءوا إلى المطعم- كما قدمت- لكونه يقدم طعاماً ذا نكهة خاصة، ولاحظت أن أكثر الذين يأكلون فيه عليهم سيما الترف والنعمة وليسوا من الطبقات الفقيرة أو المتوسطة.

والغريب أنهم يفضلون الطعام فيه رغم كونه لا يقدم خموراً ولا مسكرات خفيفة.

ولم أوافق على الذهاب لهذا المطعم اكتفاء بعشائنا فيه البارحة غر أن مدير المركز ذكر لي أن هذه مأدبة رسمية يقيمها لنا وأنه دعا إليها عدداً من كبار موظفي المركز وأنهم عرفوا بالفعل كما أن المطعم أعد الطعام اللازم وأوصى بأن يكون من الأطعمة العربية.

وقد حضر معنا هذه المأدبة التي أسميتها عربية لكون الداعي والمدعوين والمطعم كلهم ينتمي للعرب، على أنهم قدموا أطعمة عربية منوعة، وقد أكل القوم حتى اتخموا أو كادوا.

أهم أعمال المركز الإسلامي:

من أهم الأعمال التي يقوم بها المركز الإسلامي في مدريد:

١- إقامة الصلوات الخمس وحلقات تلاوة القرآن الكريم ودراسة أحكام بعد صلاة الفجر يومياً.

٢- استقبال الزائرين والرد على تساؤلاتهم وتصل أعداد الزيارات إلى حوالي ٢٠٠ شخص يومياً.

٣- دروس في الفقه بعد خطبة الجمعة، درس للمسلمين الأسبان يوم السبت، درس بين صلاة المغرب والعشاء، إلقاء الدروس والمواعظ في المصليات داخل مدريد وخارجها، ودروس للقرآن الكريم وتجويده لأبناء المسلمين يومي السبت والأحد صباحاً.

٤- خدمة مكتبية يومياً لإجراء عقود الزواج وإشهار الإسلام وحل مشكلات الجالية المسلمة والرد على الاتصالات الهاتفية والرد على الخطابات البريدية.

٥- تلقي وتوزيع المساعدات النقدية والعينية على فقراء الجالية المسلمة والإشراف على توزيعها على الأسر الفقيرة وهي ما بين ١٨٠- ٢١٠ أسرة، وكذلك مساعدات المرضى والسجناء والحالات الاستثنائية.

٦- الإشراف على تجهيز الموتى والصلاة عليهم ودفنهم أو نقلهم إلى بلدانهم وزيارة مرضى المسلمين في المستشفيات.

٧- زيارات السجناء أيام الأربعاء والخميس والسبت من كل أسبوع مع تقديم دروس تربوية ودينية ومسابقات في حفظ القرآن، وتزويدهم بأوقات الصلوات وإمساكية شهر رمضان وتزويدهم بالكتب الإسلامية وتنظيم إفطارات جماعية.

٨- تقديم وجبات إفطار يومياً خلال شهر رمضان الكريم داخل المركز، حوالي ٦٠٠ وجبة يومياً وتنظيم إفطارات جماعية في بعض المساجد بشتى نواحي أسبانيا وتوزيع التمور التي تصل إلى المركز من المملكة على المساجد والمصليات والسجون في إسبانيا.

٩- توزيع المصاحف والكتب الإسلامية باللغتين العربية والأسبانية على المساجد والمراكز.

١٠- اختيار الأئمة في إسبانيا لإمامة المصلين في المساجد ودفع مرتباتهم وزيارات المساجد وإلقاء المحاضرات في المدارس والمنتديات وخطب الجمعة وترجمة الكتب والموضوعات الإسلامية إلى اللغة الإسبانية وترجمة خطب الجمعة والأعياد إلى الأسبانية بصفة فورية.

١١- القيام بزيارات ميدانية واستقبال زيارات ثقافية من كافة طبقات المجتمع الإسباني ومد جسور الاتصال والتعاون مع أجهزة الإعلام وتمثيل المسلمين في مؤتمرات داخل إسبانيا وخارجها والتعاون مع الأجهزة الرسمية في شؤون المهاجرين والهجرة في وضع برامج وتقديم خدمات للمسلمين.

١٢- تنظيم محاضرات ثقافية من قبل أساتذة زائرين ومن منسوبي المركز والاشتراك في برامج وموائد مستديرة بالإذاعة والتلفزيون للحديث عن الإسلام والمسلمين في إسبانيا.

١٣- تزويد مختلف الجامعات ودور العلم الإسبانية وتزويد الباحثين بالبيانات والمعلومات الصحيحة عن الإسلام والمسلمين.

١٤- إعداد معارض دورية للكتاب، وإصدار نشرات دورية بالمقتنيات الجديدة من الكتب وخدمة المراجعين للمكتبة وتقديم خدمات للأساتذة والباحثين وتقديم نسخ تصويرية للمخطوطات الموجودة في الإسكوريال.

١٥- اختيار وتنظيم ما يصلح من الأعمال الفنية وعرضها في قاعات المعارض بالمركز ووضع قاعة المركز الرياضية المعدة بجميع الخدمات في خدمة أبناء الجالية.

١٦- إصدار شهادات الحجاب للمرأة المسلمة، وتوفير مدرسة لتعليم الخياطة للنساء مع تنظيم برامج ثقافية للنساء.

١٧- توفير أماكن اجتماعية لتقديم خدمات طعام وسلع حلال للمسلمين داخل المطعم والمقهى والإشراف على الذبح الحلال للحوم المصدرة من إسبانيا إلى الدول العربية الإسلامية.

وأهم ما تم في هذه السنة ١٤٢٣/٢٢هـ:

١- استقبل المركز خمس عشرة زيارة لكبار الشخصيات الإسلامية والمسؤولين في الحكومة الإسبانية وطلاب الجامعات والقساوسة والراهبات وغيرهم ومنهم فضيلة الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع، والدكتور يوسف القرضاوي والدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيع وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للدراسات العليا والبحث العلمي ومدير عام الشؤون الدينية بوزارة العدل الإسبانية، ونائب المدير الإقليمي للشؤون التعليمية بوزارة التعليم والثقافة في الحكومة الإسبانية، وغيرهم وأعدت برامج حافلة مناسبة.

٢- شارك المركز في تسعة وعشرين برنامجاً ثقافياً في داخل المركز أو خارجه ومنها ما هو خارج إسبانيا ومن بينها: مؤتمر قيادات العالم للحوار والتقارب فيما بين الحضارات والأسرة والقيم الدولية والسلام العالمي الذي عقد في مقر الأمم المتحدة، واجتماع رؤساء المراكز الثقافية والجمعيات الإسلامية في غرناطة، والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث في بلنسية، والمؤتمر ا لعالمي عن إنجازات خادم الحرمين الشريفين بمناسبة مرور عشرين عاماً على توليه الحكم.

٣- في المجال الثقافي والدعوي أسس المركز مكتبة تضم حوالي خمسة عشر ألف كتاب تم الحصول على معظمها هدية من معارض الكتب التي تقام بالمركز، واستفاد المركز من دعاة الراطبة ووزارة الشؤون الإسلامية، كما كان المركز له دور رائد فيما يتعلق بالأئمة والجمعيات الإسلامية بفضل دعم أهل الخير وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن

فهد بن عبدالعزيز آل سعود جزاه الله خيراً، الذي خصص مبلغاً سنوياً لاحتياجات المساجد والأئمة.

٤- وتم توزيع خمسين ألف كتاب عدا المصاحف وكذلك ترجمة مجموعة من الكتب الإسلامية وتم عقد مسابقات ولقاءات لأبناء الجالية الإسلامية في تحفيظ القرآن الكريم وحفظ الأذكار والأدعية ودورات العلوم الشرعية.

٥- ورشح المركز ٢٨ إسبانياً من المهتدين إلى الإسلام لأداء فريضة الحج على نفقة خادم الحرمين الشريفين حفظه الله.

٦- في المجال الاجتماعي قدم المركز مساعدات شهرية لحوالي مائتي أسرة من الأرامل والأيتام كما أشرف على سداد كفالات ستين يتيماً من قبل هيئة الإغاثة الإسلامية وقام بالإشراف على تجهيز موتى المسلمين ودفنهم وأقام عدة دورات في الحاسوب ومدرسة تعليم الخياطة للنساء والنادي النسائي بالمركز ومسابقات دينية خاصة للنساء.

٧- في مجال النشاط الرياضي حصل فريق المركز الرياضي على مركز متقدم على مستوى محافظة مدريد في الكارتيه والتايكوندو، وأقام المركز مخيماً صيفياً في إقليم الأندلس لمدة أسبوع بالتعاون مع الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

٨- في المجال الإعلامي استقبل المركز عدداً من الوفو د الإعلامية من الإذاعة و التلفزيون والصحف والمجلات وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كما أقام المركز عدداً من البرامج الإعلامية واشترك في عدد من البرامج، وعقد عدة لقاءات مع الصحف والمجلات الإسبانية وغير الإسبانية.

٩- أقام المركز معرض لوحات بالألوان المائية للفنانة فلورايستبانث والفنانة ايسبيرنثا سالينبرو، كما شارك مدير المركز في عدد من المناسبات الأكاديمية في الجامعات الإسبانية.

١٠- تجري الآن عدة تعديلات في مبنى المركز لإضافة مرافق جديدة وفصل دائرة خدمات المركز عن أماكن العبادة بالإضافة إلى الإنارة والتهوية وعمل محراب ومنبر وترميم سقف المركز لحمايته من تسرب مياه الأمطار وذلك بدعم من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد آل سعود حفظه الله ودعم مادي ومعنوي من قبل الأمير عبدالعزيز الثنيان سفير خادم الحرمين الشريفين في إسبانيا رحمه الله.

جولة في مدريد:

موعدنا للسفر إلى الأندلس هو صباح غد، ولا أدري أتكون لدينا فرصة للإطلاع على معالم مدينة مدريد بعد العودة منها أم لا، لذلك رأيت أن نذهب في جولة على مدريد عصر هذا اليوم فأمر الدكتور صالح السنيدي أحد العاملين في المركز ممن يعرفون (مدريد) أن يذهب معي إلى جولة بالسيارة فيها، واسمه (حسن الروداني) من المغرب.

بدأت هذه الجولة في الرابعة والنصف فسلكنا أول الأمر شارعاً مهماً من شوارع مدريد اسمه (شارع القلعة) وهي الكلمة العربية ولكنهم ينطقون بها (القلؤا) في هذا الشارع بوابة القلعة التي يسمونها بهذا الاسم.

بدت المدينة فخمة واسعة الشوارع، شامخة الأبنية ولكن وفق نظام وذوق رفيع، وفيها ميادين ولكنها غير واسعة بمفهونا الحالي وإن كانت معتادة في القديم.

وقد طرأت على ذهني وأنا أراها بهذه المثابة حالة الإسبان في العصور التي سبقت عصرنا الحالي وأنهم كانوا يهجرون بلادهم ويهاجرون إلى أمريكا الجنوبية والشمالية، بل وأستراليا وذلك لكونها ليست فيها موارد كافية.

أما في الوقت الحاضر فإنها صارت بلاداً يهاجر إليها لا منها إذْ توفرت فيها الأعمال وازدهر فيها الاقتصاد، واحتاجت إلى المهاجرين لأن المواليد فيها صارت أقل من الوفيات فكانت النتيجة أن توقف النمو السكاني وصار الخوف من نقصانه مما يؤثر على حركة الإنتاج في الزراعة الاقتصادية.

وسبحان مقلب الأحوال.

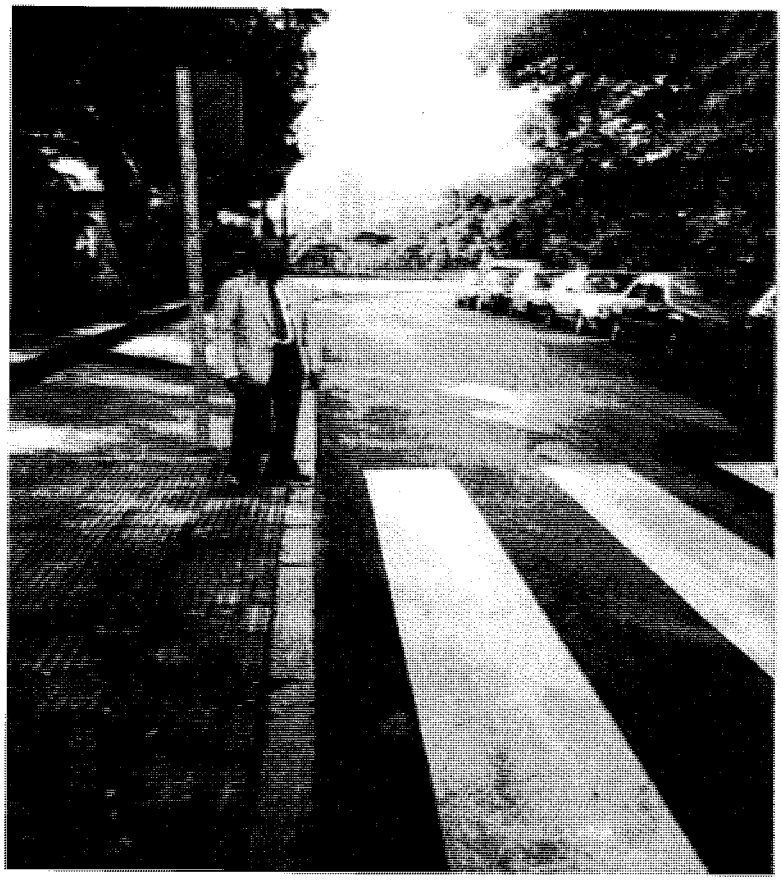

المؤلف في قلب مدريد

ونحن في هذه المناسبة نتساءل عن بلادنا العربية وبخاصة بلاد المغـــرب التي كان أهلها هم حكام الأندلس بعد أن فتحوها للإسلام فتح حروب أعقبه فـــتح قلوب، أيأتي يوم تكون حالته فيه كحالة هذه البلاد الإسبانية؟

إننا نعرف مما نقرأه في الصحف ونسمع به في المجالس حوادث تدمي لها القلوب في محاولة الوصول إلى إسبانيا بطريق التسلل والتهريب للأشخاص ومن ذلك تلك المآسي الناتجة عن المغامرة بركوب قوارب الصيد الصغيرة وتحميلها بأكثر من طاقتها بأشخاص ليسوا على المستوى المطلوب من التعلـــيم وحســـن

التصرف وإنما يدفعهم إلى المغامرة والذهاب إلى إسبانيا قلة العمل في بلادهم ووفرته في إسبانيا التي يمكن أيضاً أن ينطلقوا منها إذا أرادوا إلى بقية أقطار الاتحاد الأوروبي إذْ كثيراً ما تغرق تلك القوارب فيسبح ركّابها المغامرون المتسللون في البحر ولكن بعضهم يعجز عن مواصلة السباحة فيغرق ويصبح طعمة للأسماك بعد أن يمله قاع البحر فتطفو جثته فوقه.

وقد رأيت مرة كنت فيها في المغرب صورة لرجل نشرتها جريدة (العلم المغربية) وقد أكلت الأسماك المفترسة نصف جثته وتركت نصفها.

ولا شك أن جزءاً من هذا الوضع السيء يعود إلى حكومات شمال إفريقية التي لم توفر لأبنائها فرص العمل في بلادهم التي تغنيهم عن مثل هذه الأمور حتى تقتصر الهجرة إلى أوروبا للعمل على الطريق النظامية المعهودة.

أما مسألة كون السكان صاروا ينقصون في بعض أقطار أوروبا أو يخشى أن ينقصوا فإن لذلك أسباباً ظاهرة وباطنة يصعب تعدادها هنا، ولكن نذكر أبرزها وهو خروج المرأة إلى ميدان العمل واختلاطها بالرجال في كل الأمكنة، إضافة إلى انعدام الوازع الديني مما جعل العديد منهم لا يتزوجون اكتفاءً بمقاربة المرأة في المواطن الأخرى وبالتالي لا ينسلون ذرية وحتى المتزوجون منهم فإن الحياة العصرية الاستهلاكية بما فيها من مغريات السفر والسياحة وحياة التنقل جعلتهم لا يطيقون تربية الأولاد إلا على نطاق ضيق، والشيء الآخر وهو أنهم في ظل هذا النظام الحاضر للحياة صار الوالدان لا يتوقعان من أولادهما أن ينفعونهما عندما يكبران، فالضمان الاجتماعي أعطى كبار السن الحق في معاش تقاعدي يغنيهم عن الاعتماد على الأولاد في ذلك، كما جعل الأولاد ينفصلون عن آبائهم وأمهاتهم منذ بلوغهم الرشد، ويبحثون عن عمل لا يعجزهم أن يجدوه فيستغني الجميع عن الجميع، ولذلك كتب أحد الكتاب المشهورين في إحدى الصحف المشهورة بياناً ذكر

فيه أن ٢٥% من الأولاد في إسبانيا لا يعرفون من هم آباؤهم إضافة إلـــى أمـــور أخرى ليس هذا بيانها.

فإذا كان الأمر كذلك كيف يحرص الناس على انجاب أولاد ربما لا يكونون أولاداً لهم والمراد بالإنجاب هنا الاقرار ببنوة الأولاد إضافة إلى أن المرأة نفسها صارت لا تتحمل أكثر من ولد واحد أو ولدين.

ونعود إلى الحديث عن الجولة السياحية فنقول: إننا سرنا مع (شارع القلعة) حتى انتهى إلى ساحة (باب الشمس) في وسط المدينة الجيد أو لنقل إنها في القلب التجاري الفاخر من المدينة.

المؤلف في ساحة الشمس في مدريد

و(ساحة باب الشمس) واسعة ولكن الوقوف يمنع فيها قطعياً طبقاً لأوامـــر شرطة المرور، وكنت أحببت أن أقف فيها وألتقط صورة واضحة.

بدايات مدريد:

وكان الأولى أن نقول بدايات بلدة مجريط لأن هذا هو اسمها عند بني قومنا أهل الأندلس، غير أننا آثرنا الشائع الآن في الأذهان.

فقد ذهبنا إلى المنطقة التي يعتقد أن مدينة (مدريد) بدأت منها وهي معروفة عليها لوحة بالعربية وأخرى في معناها بالإسبانية.

وذلك في ميدان قديم تحيط به من بعض جهاته بقايا سور عربي قديم أبقوه على حاله وكتبوا في جانب من الميدان بالعربية: (بلدية مدريد: إلى الأمير محمد الأول مؤسس مدينة مدريد ٣٠ مارس ١٩٨٧م) وهذا تاريخ وضع هذه اللافتة وتحتها بالعربية أيضاً: (أهدى المعهد الإسلامي العربي للثقافة هذه اللوحة التذكارية).

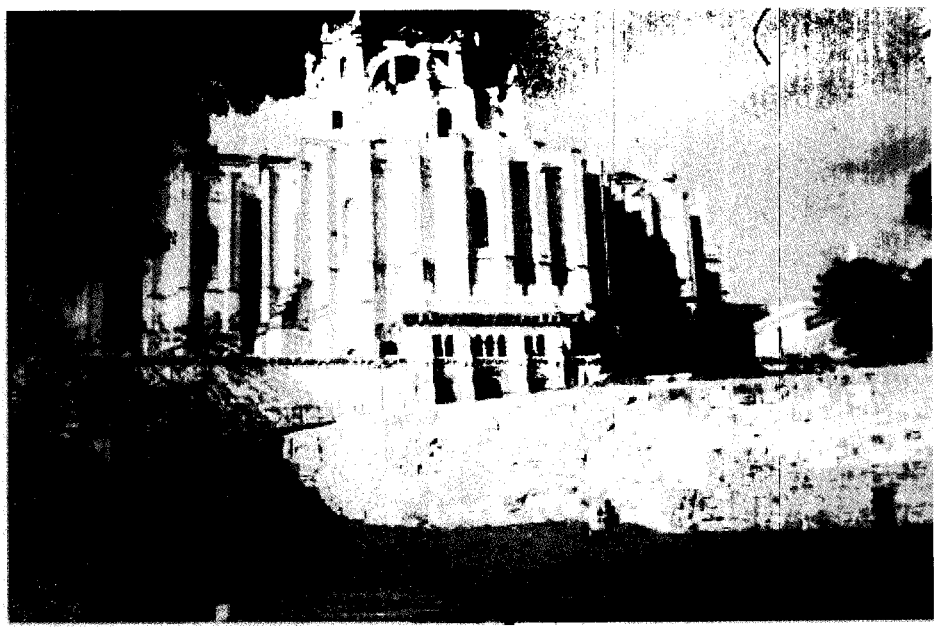

بقايا السور القديم لمدينة مدريد القديمة تشرف عليه أهم كنيسة في المدينة

وقد جعلوا بجانبها شكلاً رمزياً لمحراب في مسجد صغير ثم كتبوا بالإسبانية بعده ما ذكرناه بالعربية.

وهذا اعتراف جيد منهم بالفضل العربي على هذه المدينة، بل على إسبانيا التي جعلتها عاصمتها وهذه اللوحات مكتوبة على بقايا السور العربي القديم الذي هو مبني بالحجارة ومادة أخرى تشبه مسحوق الآجر الذي هو الفخار وهي مادة قوية يشبه منظرها على البعد منظر الطين الأبيض أو الرمادي اللون.

ويعتبر هذا الميدان عند الجميع هو أول بدايات مدينة (مجريط) العربية ولذلك كان القصر الملكي غير بعيد وصارت تطل عليها كنيسة ضخمة قديمة ربما كانت أهم كنائس المدينة عندهم.

اللوحة العربية التي كتبت لذكرى الأمير محمد الأول مؤسس مدريد

ورأيت أفواج السياح الذين هم من الأوروبيين أو ذوي المظهر الأوروبي مثل الأمريكيين والكنديين بأعداد كبيرة في هذا الميدان المهم يلتقطون الصور لهذا السور الذي هو أشلاء البناء العربي الأول الباقية على الدهر وربما كان ذلك وبعضه بسبب كون جزء من سور الكنيسة يعتمد على جزء من هذا السور القديم.

وتسمى هذه الكنيسة (المودينا) وتقع في زاوية من القصر الملكي الموجود الآن.

لقد أطلت الوقوف والمشي في هذه المنطقة التاريخية المهمة من بدايات مدينة مدريد ولولا ضيق الوقت لبقيت أكثر من ذلك فيها.

وقد ذكر الأخ المرافق (محمد الردواني) وهو كما ذكرت مغربي يعيش في إسبانيا أن بلدية المدينة تستغل هذا الميدان الذي ينتسم بسعته فتقيم فيه في ليالي الصيف حفلات من الموسيقى الشعبية (الفلكلورية) التي يقبل عليها الناس في هذه البلاد.

معنى مدريد:

مدريد هي مجريط، أي محرفة عنها هذا لا إشكال ولا شك فيه، والجميع يعرفه ولكن ما هومعنى (مجريط) الذي هو الاسم الأصلي العربي للمدينة؟

أذكر أنني في الزيارة الأولى لمدريد ولم أكن آنذاك أكتب مذكرات في زياراتي للبلدان الأجنبية وقد ذهبت مع (تور) وهي الرحلة السياحية على حافلة كبيرة سمعت الدليل السياحي فيها يقول لنا بالإنجليزية: إن (مدريد) أصلها مجريط وهي كلمة عربية تعني الحصن، والحصن بمفهومه هو أقل من القلعة أي أصغر شأناً من القلعة وهذا أمر معروف لنا، ولكن الذي لا نعرفه أن تكون

(مجريط) كلمة عربية، فنحن لا نعرف لهذه الكلمة مادة تصرفت منها في لغتنا وبالتالي لا نعرف أن (مجريط) كلمة عربية.

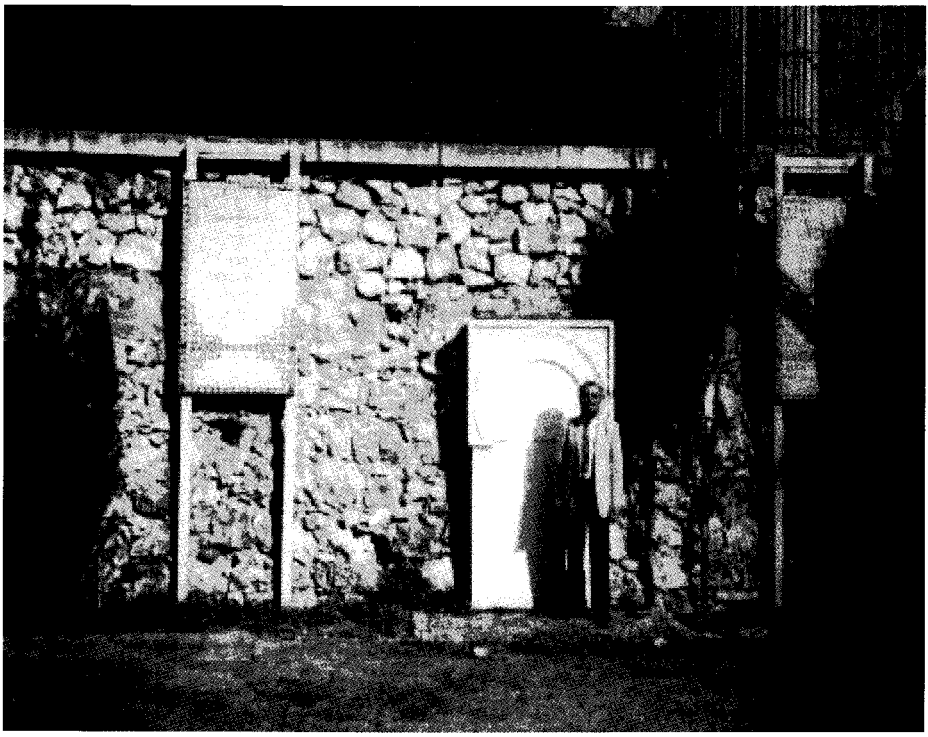

المحراب الرمزي الذي يرمز لمدريد القديمة

وقد اقتنعت آنذاك بأن (مجريط) كلمة بربرية أي دخلت من اللغة البربرية التي هي لغة بعض الجند إن لم تكن لغة أكثرية الجند الذي دخل الأندلس مع طارق بن زياد رحمه الله وإن لم أجرو على القول بأن البربر كانت لهم لغة واحدة موحدة، بل ربما كانت لهم لغات عدة لا يفهم أهل بعضها بعضاً على مثل ما عليه الحال الآن، حيث لا يعرف البربر في وسط المغرب من أهل جبال الأطلس لغة أهل الريف الذي عاصمته تطوان البربرية و إنما يتفاهمون فيما

بينهم بالعربية، وكذلك القول في البربر الذي يقطنون في جنوب المغرب لهم لغتهم البربرية الخاصة، وهذا هو الواقع الآن، ولكن لا ندري عن عهد طارق بن زياد قبل أن يشتد ساعد العربية في المغرب وتصبح اللغة العامة لأهله.

نقول: إن (مجريط) هي لفظة بربرية من كلمات كان يستعملها إخواننا أهل المغرب من ذوي الأصول البربرية، و كان يستعملها العرب في الأندلس تبعاً لذلك، مثلما صاروا يستعملون في لغتهم العامية الأندلسية عشرات إن لم نقل مئآت الآلفاظ البربرية، أو ذوات الأصل البربري وذلك أمر طبيعي.

وظننت أن الدليل السياحي الإسباني قال: إن (مجريط) كلمة عربية اعتقاداً منه بأن العربية كانت وحدها التي تسمى بها الأشياء أو لعدم معرفته بالأصل البربري للكلمة، أو لشيء آخر وهو ألا نقول: إن البربر هم الذين تغلبوا على الأندلس وليس العرب المعروفين برقيهم في الثقافة والآداب في تلك العصور.

ولكن الشيء الذي سمعته الآن و استغربته هو أن بعض المتمعلمين من العرب المقيمين في إسبانيا الذين يأخذون الأمور على عواهنها يقولون: إن (مجريط) كلمة عربية معناها (مجرى الماء) وإن نصفها يعني (مجرى) يريد (مجر) والآخر: محرف عن الماء.

وهذا فاسد شكلاً وموضوعاً، أما الشكل فإنه ظاهر وهو أنه لا يوجد اسم للماء بالعربية لفظه (إيط)، وأما الموضوع فإن مدينة مجريط من أقل بلاد الأندلس في مجاري المياه، لو لا ما قد يأتي إلى منطقتها وليس إليها بالذات من مياه تجري بقلة من الجبال والتلال التي تقع في منطقتها.

ولذلك نعتقد بأن هذا الكلام ليس له أساس من الصحة.

المؤلف في شارع مزدحم في مدريد

ثم سمعت من أحد إخواننا النابهين من البربر المقيمين في إسبانيا أن (إيط) في إحدى اللغات البربرية تعني الصغير، وإن معنى (مجريط) إذاً هو الحصن الصغير أو القلعة الصغيرة وهذا أقرب الأشياء إلى لغتهم.

ثم رجعت بعد ذلك إلى (معجم البلدان) لياقوت الحموي الذي اعتاد على أن يذكر اشتقاق أسماء البلدان التي يذكرها فوجدته لم يذكر شيئاً عن اسم أعجمي وليس من اللغة العربية وإنما قال: (مَجْريط) – بالفتح ثم السكون وكسر الراء وياء ، وآخره طاء: مدينة بوادي الحجارة اختطها محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالمطلب، يُنْسَب إليها سعيد بن سالم الثغري، ساكن مجريط يكنى أبا عثمان سمع بطليطلة من وهب بن عيسى، وبوادي

الحجارة من وهب بن مسَرَّة وغيرهما، وكان فاضلاً وقصد للسماع عليه ومات لعشر خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٣٧٦ قاله ابن الفرضي.

ومعنى سمع بطليطلة أي سمع الحديث من ابن وهب وذلك بروايته عنه بسند متصل برواة حتى وصوله بالسند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما (وادي الحجارة) التي ذكر ياقوت أن مجريط تقع فيها قد تكفل الأمير العالم شكيب أرسلان في أول كتابه الحلل السندسية بيان حالها وأطال في ذلك وبخاصة في تراجم أهلها من العلماء والشعراء المسلمين، قال:

وادي الحجارة Guadalajara[1]:

ثم على مسافة ٥٧ كيلو متراً من مجريط تقع وادي الحجارة، وسكانها اليوم تقدر سكان القلعة، وهي مبنية على الضفة اليمنى من نهر هينارس.

وقد كانت مدة بقاء العرب في وادي الحجارة ٣٦٧ سنة، قال ياقوت الحموي في المعجم: فرَج بالتحريك والجيم، مدينة بالأندلس تعرف بوادي الحجارة، وهي بين الجوف والشرق من قرطبة، ولها مدن بينها وبين طليطلة، ينسب إليها أيوب بن الحسين بن محمد بن أحمد بن عوف بن حُميد بن تميم، يكنى أبا سليمان، ويعرف بابن الطويل، رحل إلى المشرق، ثم استقضاه الحكم المستنصر ببلده، وكان أديباً حكيماً، قدم قرطبة، وروى عنه ابن الفرضي، وتوفي سنة ٣٨٣ بوادي الحجارة، ذكر ذلك ابن الفرضي، انتهى.

---

(١) وتسمى مدينة الفرج، قال في صبح الأعشى: مدينة الفرح بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم وهي مدينة شرقي طليطلة وشرقيها مدينة سالم، قال ابن سعيد: ويقال لنهرها وادي الحجارة.

وقال ابن حوقل عن وادي الحجارة: مدينة كبيرة، ثغر مشهور الحال، مسور بحجارة، وهي ذات أسواق، وفنادق، وحمامات، وحاكم، ومحلّف، وبها تسكن ولاة الثغور، كأحمد بن يعلى وغالب، وعليها أكثر جهاد جليقية، و منها إلى شعراء القوارير، وبها منهل تنزله الرفاق مرحلة، ومنها إلى مدينة سالم مرحلة، انتهى.

وجاء في الانسيكاوبيدية الإسلامية: أن وادي الحجارة يقال لها أيضاً مدينة الفرَج، نسبة إلى عائلة من البربر يقال لهم بنو فرَج كما روى اليعقوبي، وكان فتح العرب لهذه البلدة سنة ٧١٤م، زحف إليها موسى بن نصير وطارق بن زياد معاً، وبقيت في أيدي العرب إلى سنة ١٠٦٠م، إذ استرجعها منهم الملك فرديناند القشتالي ولكن عاد العرب ففتحوها مرة ثانية، وبقيت في أيديهم إلى سنة م١٠٨١، فافتتحها ألفاريانس دومينيّة (Alvar Ganez de Minaya) من أبناء عم القمبيدور، الملقب بالسيد، ومن قواد الأذفونش السادس، و كانت معدودة من القلاع العربية الحصينة وخرج منها كثير من أهل العلم، كما يظهر من المكتبة العربية الإسبانية، أي مطبوعات قُديرة، والنسبة إلى هذه البلدة حجاري، وهناك مؤرخ معروف اسمه الحجاري، أصله من وادي الحجارة، ولما كانت في أيدي العرب كان قد بقي فيها عدد غير قليل من المسيحيين، إنتهى.

من انتسب من العلماء إلى وادي الحجارة:

ثم ذكر الأمير شكيب أرسلان عشرات من العلماء والصلحاء والأدباء الذين أنجبتهم (وادي الحجارة)[1].

منهم أبو بكر يحيى بن الفتح بن حنش الانصاري الحجاري، يروي عنه محمد بن عبدالرحيم، ومحمد بن عذرة الحجاري، سمع من محمد بن وضّاح وغيره، ومات بالأندلس سنة ٣١٣، وأبو عبدالله محمد بن يونس الحجاري، روى عن أبي عمر الطلمنكي، وأبي محمد بن الأسلمي وغيرهما، وكان مقدماً بالمعرفة والنحو واللغة، وكتب الأشعار والأخبار، واستادبه المظفر بن الأفطس، صاحب بطليوس لنفسه ولبنيه، وسكن بطليوس، وتوفي بها سنة اثنتين أو ثلاث وستين وأربعمائة، وأبو عثمان سعيد بن علي بن يعيش بن أحمد بن خلف الأموي، حدث عنه ابن أبيض، وكان من أهل السنة.

إنتهى.

عودة إلى ساحة الشمس:

ساحة الشمس مهمة ولذلك وجدتني أحرص على التقاط صورة فيها غير أن المرافق الأخ محمد روداني الذي هو سائق السيارة ذكر أنه لا يمكننا الوقوف فيها، قال: ولكن يمكن أن أنزلك فيها من السيارة وأدور في الشوارع المحيطة بهذه الساحة ثم آتي إليك فأركبك سريعاً بالسيارة.

---

(١) الحلل السندسية، ج٢، ص٦٩- ٨٠.

ساحة الشمس في مدريد

نزلت من السيارة في جانب (بوابة الشمس) التي كانت الشمس مشرقة عليها بالفعل، ولاحظت أنها كما قال سكان منهم وأنهم لا يسمحون بوقوف السيارات فيها إلا بمقدار ما ينزل منها راكب أو يركب فيها راكب.

ووجدتني وحيداً في هذه الساحة رغم كثرة الناس فيها ومرادي من ذلك أنني لا أجد من يتحدث معي بشيء من أمرها.

أما الصورة فإنني توسمت خيراً ببعض المارة وطلبت من أحدهم أن يلتقط لي صورة تذكارية في هذه الساحة ففعل.

وأقول توسمت خيراً، وذلك أنه اشتهر عند السياح وكثيري الانتقال في المدن أن بعض الذين يطلبون منهم أن يلتقطوا لهم صورة أو صوراً يوافقون على ذلك ثم يهربون بالمصورة ويتركون صاحبها بلوعته لاسيما إذا كان غريباً أو كبير السن.

ولأهمية هذه الساحة عند الجمهور اختاروها مكاناً للتجمعات والمظاهرات العامة، وقد رأيت فيها- لحسن حظي- الآن مظاهرة لعمال مصنع أو مصانع الدراجات، وقد تجمعوا وأمامهم لافتات من القماش واسعة وهم يهتفون بما لا أفهم، ولكنهم يخرجونه بطريقة غير مريحة.

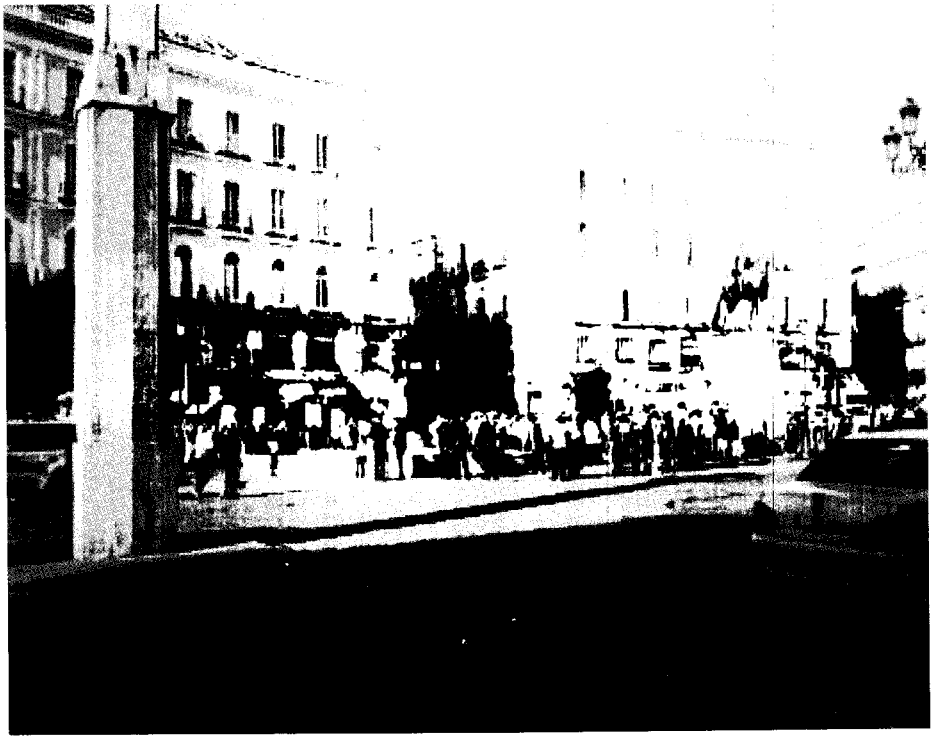

جانب من ساحة الشمس في مدريد

أما الساحة فإنها تعتبر من أهم ساحات مدريد، ،عليها أبنية مهمة منها مبنى إدارة إقليم مدريد عليه لوحة تبين تاريخ بنائه وأنه في عام ١٩٠٨م.

لم أطل المكث في هذه الساحة فقد ركبت مع صاحبنا الذي حضر بسرعة وغادرناها إلى وسط المدينة فذكر أن هذه المناطق من وسط المدينة توجد فيها

بغايا كثيرات، وقال: من أسباب ذلك أن الأسرة وبخاصة الوالد لا سلطة له على ابنته ولا يستطيع أن يمسها بيده بقصد نهيها عما تفعل وإلا عاقبته السلطات الحكومية عقاباً شديداً.

قال: ولذلك كثر أولاد الزنا وساد الإنحلال في الأسرة والمجتمع.

وهؤلاء البغايا هن المحترفات وإلا فإن الزنا الناشيء عن التآلف والحب أو حتى عن إرادة الإقتراب من الجنس الآخر هو شائع بينهم ويكاد يكون عاماً.

المؤلف في شارع القلعة في مدريد

والمشكلة في الأمر أنهم لم يعودوا يستنكرونه، بل صار جزءاً من حياتهم، وهذا من الأسباب التي أدت إلى عزوف الناس هنا عن إنجاب الأولاد، بل عزوف كثير منهم عن الزواج إلا في أسنان متأخرة وحتى المتزوجون فإنهم ينفصلون في المعيشة عن أزواجهم وإن بقوا أزواجاً من الناحية الرسمية.

حديقة الرسام:

حديقة الرسام الروساليس في مدريد

للناس في إسبانيا ولع عظيم بالرسامين الفنانين فهم يعظمونهم ويذكرونهم بالإجلال بل ويفتخرون بهم لذلك أقاموا لهم التماثيل وأسموا على أسمائهم الشوارع والميادين، ومن ذلك ساحة، أي ميدان وصلنا إليه اسمه (ساحة بنتور الروساليس) وبنتور: رسام والروساليس: اسمه.

ويتفرع من هذه الساحة شارع اسمه أيضاً شارع (بنتور الروساليس) ثم وصلنا إلى مبنى على الطراز الفرعوني اسمه بالفعل (المبنى الفرعوني) ذكروا أن المصريين أهدوه إلى الإسبان.

وعلى اليسار منه ساحة اسمها (بلاسا إسبانا) فبلاسا: ساحة أو ميدان باللغة الإسبانية و(اسبانا): إسبانيا).

أهم ما في هذه الساحة بوابة جميلة اسمها بوابة طليطلة وباللغة الإسبانية (بورتادي توليدو) فبورتا: بوابة، و(دي) أداة تقع بين المضاف والمضاف إليه في اللغات اللاتينية وتكاد تقابل أداة (اوف) التي تقع بين المضاف والمضاف إليه بالإنكيزية و(توليدو) هي طليطلة.

وعلى ذكر طليطلة أقول: إنني صادفت أحد الإخوة الكرام من المصريين المتجنسين بالجنسية الإسبانية من سكان طليطلة وهو مهندس من النشطين في الجمعية الإسلامية هناك دعاني إلى زيارة طليطلة، والإطلاع على أحوال المسلمين في المدينة وهو نفسه مهتم بذلك لأنه عضو نشط في الجمعية الإسلامية، وقال: سأخذك بسيارتي، وأريك كل ما تحب أن تراه من طليطلة ثم أعود بك إلى فندقك في مدريد فشكرت له عرضه وقلت له: إنني في أشد الشوق

إلى رؤية مدينة (طليطلة) ذات التاريخ المشرق والذكر المجلجل في كتبنا العربية ولكن الوقت لا يسمح لي بذلك، وتبعد طليطلة عن (مدريد) سبعين كيلومتراً فقط.

المؤلف عند بوابة طليطلة في مدريد

أوقفنا السيارة بالقرب من بوابة طليطلة، ثم ذهبت من الأخ الروداني إلى قرب البوابة من أجل إلتقاط صورة تذكارية عندها، وهنا كانت سيارة مقبلة من جهة من هذا الميدان تمر بالبوابة هي مسرعة لذلك عندما بدأنا بدخول الميدان من جهة البوابة لم تكن توجد فما كان من صاحبها، وقد تبين لي أنه امرأة شابة جميلة إلى أن وقف من أجل ألا يشوش علينا في إلتقاط الصورة وصبر حتى انتهينا وهذا بطبيعة الحال من دون أن يعرفنا أو نعرفه، ولكن ربما كان واضحاً

من منظري وأنا معي مصورتّي أنني غريب، أما هو أي الأخ الروداني وهو من شمال المغرب فإنه يبدو كأنه من الإسبان.

البوابة مؤلفة من ٣ فتحات وسطها قوس وفي أعلاها صور منحوتة لأشخاص لا أدري لماذا ترسم، ولكن بعضها كان قبيح المنظر، وربما كانوا استوحوه من أثر شعبي قديم أو خرافة لهم اختلطت فيها الحقيقة بالخيال.

عاصمة فخمة:

الأرصفة العريضة في قلب مدريد

إننا إذا نظرنا إلى مدينة مدريد بمقياس ما كانت عليه العواصم الأوروبية قبل قرن من الزمان أو نحوه وجدناها عاصمة فخمة ذات أبنية متعددة الطوابق

ولكنها ليست مفرطة في العلو بالنسبة إلى علو الأبنية في ذلك الزمان، ولكنها بنيت وفق ذوق جميل حتى إن كثيراً من الشوارع تتساوى الأبنية عليه بالارتفاعات، فلا تجد فيها نشاز أي بناء أكثر ارتفاعاً من غيره، ارتفاعاً مفرطاً أو أقصر مما بجانبه بكثير.

ولا شك في أن ذلك راجع إلى الثروات العظيمة التي كانت تفد إلى إسبانيا من مستعمراتها الواسعة في أمريكا الجنوبية وا لوسطى بل في جنوب القارة الأمريكية الشمالية كالمكسيك وأجزاء من جنوب الولايات المتحدة الحالية التي كانت حكومة أمريكا قد أخذتها من إسبانيا.

قلت هذا لأننا سرنا نتجول في الشوارع في هذه العاصمة الفخمة.

وشوارعها واسعة حتى بمقاييس العصر الحاضر مع أنها قد خطت في وقت سابق وليست كشوارع لشبونة التي هي ضيقة أو تميل إلى الضيق.

ومن المناظر الطريفة فيها منظر قطار العربات القصير المعروف بالترمواي في مصر، وكان يعرف في الشام باسم (الترام) وقد جعلوها ذات طلاء أحمر بهيج وهي تذرع هذه الشوارع الواسعة حتى الآن.

على حين أنها قد أوقف استعمالها في مدن عربية هي أحوج إليها من مدينة مدريد هذه مثل القاهرة ودمشق.

مررنا بحديقة مهمة واسعة هي إحدى حدائق مدينة مدريد المعروفة واسمها (روي نيرو) وهي ممتدة يطل بابها الرئيسي على ميدان (باب القلعة) الذي لا يزال يسمى بهذا الاسم (القلعة) العربية كما قدمت.

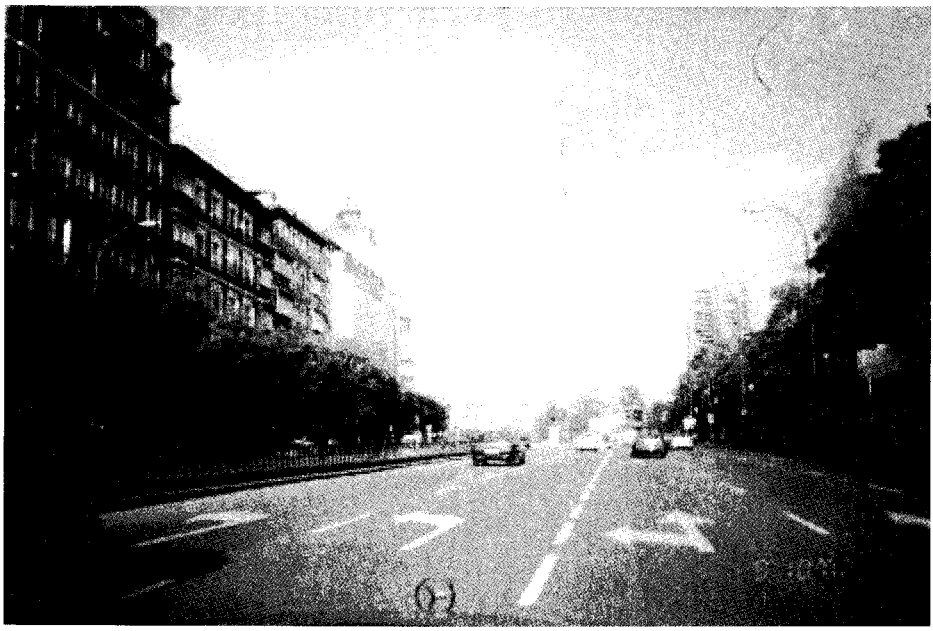

شارع القلعة في مدريد

واسم رسام آخر:

وهذا شارع آخر على اسم رسام آخر هو شارع (دي لاسته) ودي لاسته رسام معروف عندهم.

وهم يعتبرون الرسم نوعاً من أنواع الثقافة التي يعتزون بها ولكنهم لا يقصرون الثقافة عليه، فلديهم شوارع بأسماء شعراء وكتاب مشهورين، ولديهم مكتبات عامة ضخمة أضخم من مكتباتنا غير العريقة، كما أن لديهم مكتبات أخرى تكون إقليمية أو متخصصة، وهي عديدة ويعتنون بها أكثر مما نعتني بالمكتبات عندنا، وكل ذلك معتبر عندهم من الثقافة الوطنية التي يعتزون بها.

وفيما يتعلق بالكتب والمطبوعات ينبغي أن نذكر أن كل أقطار أمريكا الجنوبية تتكلم بالإسبانية ما عدا البرازيل، وكذلك أكثر أقطار أمريكا الوسطى، ولذلك تكون للكتاب الذي يطبع هنا إمكانية الإنتشار في أقطار أخرى كثيرة، مثلما تكون للكتاب الذي نكتبه إمكانية الانتشار في أقطار أخرى عديدة تتكلم العربية كأقطار المغرب العربي ولكن أهله مثل أهلنا يضعون في أكثر الأحيان قيوداً مشددة على شراء الكتاب ويضعون العراقيل في وجه انتشاره.

وإلاّ فإنني أذكر أن نسخاً من كتابي (مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين) وصلت إلى المغرب فاحتفت الصحافة به ونشرت عنه الجرائد في المغرب أكثر مما نشرته عنه الجرائد في بلادنا.

ثم سلكنا شوارع فرعية مزدحمة بالسيارات الواقفة، و ظاهر من وجودها أنها لأهل هذه البيوت، قلت لمرافقي: ألا تسرق السيارات الواقفة أمام البيوت بهذه الكثافة؟ فأجاب إن الذين يسرقونها عادة هم متعاطو المخدرات الذين يبحثون عن ثمن لما يريدون شراءه منها، فيأخذون منها ما يمكن أخذه منفصلاً مثل المسجلات وأجهزة الراديو ثم يتركونها لأنه من الصعب عليهم التصرف بها داخل إسبانيا بل حتى داخل الاتحاد الأوروبي إذا كانت مسروقة.

ساحة كريستوفر كولومبس:

ومن أولى من كريستوفر كولومبس في أن تسمى باسمه ساحة في مدريد عاصمة إسبانيا التي وثقت به وجهزت معه أسطولاً من السفن فيه كل ما تحتاجه حملته البحرية حتى من علماء العرب الذين كانوا أكثر من الإسبان علماً بالأنواء والنجوم ومسالك البحار، وقد نوه علماء الإسبان بذلك وقرروه.

عند أسفل نصب كولون في مدريد مع الأخوين السائق المغربي والدكتور العيفان

ولكن الملاحظ أن هذه الساحة بمعنى الميدان تسمى (ساحة كولون) لأن الإسبان ومن لف لفهم يسمون كريستوفر كولومبس باسم (كولون) ولا يسمونه كريستوفر كرولمبس مما كان مثار عجبي عندما رأيت ذلك لأول مرة في جمهورية الدومنيكان التي عاصمتها سانتودمينقو وكان ابنه مدفوناً فيها.

وقد كسب كولومبس أو كولون لإسبانيا في رحلته بل رحلاته الأربع لإسبانيا مجداً لا تمحوه الدهور ولو لم يكن فيه إلا كون لغتهم أصبحت لجميع أقطار أمريكا الجنوبية والوسطى باستثناء البرازيل هي اللغة الوطنية لكفى.

لقد دخلنا شارعاً من أهم الشوارع في مدريد يسمى شارع قشتاله وهي مملكة كان أهلها من أشد سكان إسبانيا تعصباً وعداوة للمسلمين حتى كانوا سبباً في استلاب عدد من المناطق والمدن من المسلمين وإعادتها إلى حظيرة الإسبان.

ولذلك أسموا هذا الشارع باسمها وتوجوه بميدان (كولون) هذا فالشارع مهم والميدان مهم لهم أيضاً.

وفي ساحة كولون نصب عالٍ جداً جعلوا في أعلاه تمثالاً لكولومبس أو كولون.

وهنا شيء مهم أيضاً للثقافة في إسبانيا على شارع قشتاله هذا قبل الوصول معه إلى ميدان كولون هو (معرض الكتاب الإسباني على يسارنا والمكتبة الوطنية على يميننا وهي أكبر مكتبة في إسبانيا حتى سمعتهم يبالغون في كثرة محتوياتها من الكتب، وقد رأيت مبناها من الخارج من أكبر المباني على هذا الشارع المهم (شارع قشتاله).

سرنا مع شارع قشتاله المهم وتجاوزنا ميدان كولون ولكن الشارع لا تزال له بقية بعد ذلك الميدان.

وقد بدا لنا هذا الشارع غير مزدحم بالسيارات، وليس ذلك من قلة من السيارات فيه ولكنه من سعته بالنسبة إلى الشوارع الأخرى في المدينة التي تتسم شوارعها بالسعة.

ما تزال هناك مواقع مهمة على شارع قشتالة الذي نسير فيه إذْ وصلنا إلى ملعب (ريال مدريد) الذي هو نادٍ من أشهر نوادي الكرة في العالم، و يملكه هذا النادي أي يملك الملعب وهو يدر عليه مقادير كبيرة من المال، وقد رأينا مبنى النادي مستديراً ضخماً وأمامه على الشارع (قصر المؤتمرات) ومن الطريف في

شارع قشتالة هذا إضافة إلى فخامته، وأهميتة الأبنية عليه أنه ينتهي عند (بوابة أوروبا) وهي بوابة عجيبة إن صح التعبير بكونها بوابة لأنها مؤلفة من بنايتين عاليتين (عمارتين) إحداهما على يمين الشارع والأخرى على أيسره، ولكن كل واحدة منهما مائلة إلى جهة الأخرى التي هي جهة وسط الشارع بحيث تؤلفان ما يشبه القوسين في الكتابة.

ويلاحظ أنهم يسمون قشتالة التي هذا اسمها في تاريخنا العربي القديم في الأندلس يسمونها الآن كاسيتا أو لفظاً قريباً من هذا، فالشارع اسمه بلفظهم شارع كاسيتا بمعنى قشتاله وأرصفة هذا الشارع المهم واسعة معتنى بها.

ومن ملاحظة المارة والمشاة في هذا الشارع وأمثاله من قلب المدينة التجارية حيث المشاة على الأرصفة فيه يلاحظ المرء أن الجمال في الأدميين موجود في الشبان وأنه قريب من الذوق العربي أما المتوسطون في السن فإنهم يبدون بوجوه عابسة أو غير مشرقة ولا شك أن للمشروبات الكحولية أثراً في ذلك، إضافة إلى قلة ا لإيمان عند أكثرهم.

وللتدخين أيضاً أثر على عدم الإشراق في الوجه فتأثيره الضار على الصحة إذا طاول المرء شربه.

وإذا أردنا أن نقارن شارع قشتاله هذا بما فيه من الأبنية و(العمارات) وما فيه من الأرصفة ومسافة امتداده واستقامته بشارع الملك فهد أو طريق الملك فهد بالرياض نجد أن طريق الملك فهد في الرياض أفضل منه في الاستقامة والإمتداد بمراحل، فشارع قشتاله قصير جداً بالنسبة إلى طريق الملك فهد في الرياض والأبنية عليه أعلى في الجو وأفخم في المنظر مما هي في شارع قشتاله وحتى

الجسور فهي على طريق الملك فهد كثيرة مريحة سواء منها ما كان عليه جسراً وما يكون على هيئة نفق مفتوح، ولكننا إذا نظرنا للمؤسسات الثقافية نجدها على الشارع الإسباني أكثر بمحتوياتها كالمكتبة العامة، ومعرض الكتاب الإسباني، إضافة إلى ميدان كولون ا لذي يرمز إلى الفتح الإسباني لأقطار البحر الكاريبي التي هي جزر مهمة ثم لأمريكا الوسطى والجنوبية بعد ذلك، فهذا ما ليس له نظير عندنا مع الأسف.

شارع قشتاله في مدريد

وما دمنا في المقارنة بين الشارعين فإننا نصل إلى مقارنة تثير الغرابة والعجب وهي أن الذي يسير بسيارته مع شارع الملك فهد الذي هو طريق الملك فهد في الرياض يرى من الأشجار الخضر ومن الشجيرات بل والخضرة أكثر

مما يراه من الخضرة في شارع قشتالة مع أن بلادنا صحراوية عريقة في ضحراويتها و مدريد لا تعتبر صحراوية، وإن لم تكن واقعة على نهر كبير.

ثم إن هناك سيئة من السيئات في شارع قشتاله هذا وهي كثرة الإشارات الضوئية فيه لقلة الجسور والأنفاق فيه، فما أن يسير السائر فيه لبرهة من الوقت أو مسافة غير طويلة حتى يجد إشارة من إشارات المرور توقفه عند حده أو عند حدها وتهينه قبل أن تغير لون جلدتها فتأذن له بالسير.

وقد عافى الله شارع الملك فهد في الرياض من هذه البلية بلية إشارات المرور، إذْ ما أن يحتاج الأمر إلى إشارة أو نحوها حتى ينتصب فوقه جسر أو ينفتح في الأرض أمامه نفق، والأنفاق أكثر من الجسور، ولذلك تنتفي الحاجة إلى إشارة المرور الضوئية.

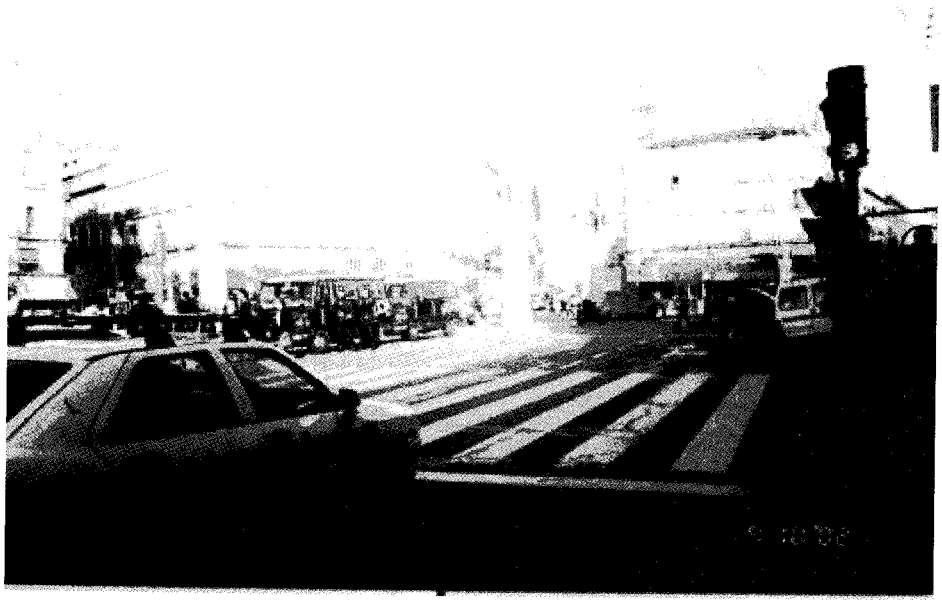

جانب من شارع قشتاله في مدريد

وأما السيارات في شوارع مدريد فإنها مثل السيارات في شوارع لشبونة كلها نظيفة الطلاء حسنة المظهر، ولا يرى المرء فيها سيارة تحتاج إلى سمكرة أو طلاء أو إصلاح في مظهرها الخارجي، بخلاف ما عليه الحال في شوارعنا الرئيسية في مدننا الكبيرة، حيث يلاحظ المرء في كثير من الأحيان سيارات سيئة المظهر وحتى متسخة أو تحتاج إلى (سمكرة) وإصلاح.

أما وسائل النقل العامة من الحافلات ونحوها فإنها كثيرة ومتوفرة في أي مكان يحتاجه الإنسان، وأغلبها حمراء الطلاء، وبعضها يتألف من جزئين الأمامي، هو الحافلة الأساسية وخلفه جزء يشبه المقطورة يجره خلفه، ولكنه واسع للركاب، حافل بالمقاعد كالقسم الأمامي الذي هو الحافلة الأساسية.

من الكلام على (قشتالة) في الكتب:

قال ياقوت الحموي:

(قشتالة): إقليم عظيم بالأندلس، قصبته اليوم طليطلة وجميعه اليوم بيد الإفرنج.

وقال صاحب الروض المعطار:

قشتالة: عمل من الأعمال الأندلسية قاعدته قشتالة، سمي العمل بها، وقالوا: ما خلف الجبل ا لمسمى الشارات في جهة الجنوب يسمى إشبانيا، وما خلف الجبل من جهة الشمال يسمى قشتالة، ولبعضهم:

الـــروم تضـــرب فـــي الـــبلاد وتغـــنم والعـــرب تأخـــذ مـــا يفـــيء المغـــرمُ
والمـــــال يـــــورد كلـــــه قشـــــتالة فـــــالله يلطـــــف بالعبـــــاد ويـــــرحم

وقد عدنا مرة ثانية إلى ميدان كولون فأوقفنا سيارتنا في شـــارع جـــانبي يسمح بوقوف السيارات فيه، وذهبنا مشياً إليه لتأمله وإلتقاط صور تذكارية فيه.

ومن ألطف ما صنعوا في ميدان كولون هذا أنهم أقاموا ما يشبه الجدار المنحني ونقشوا عليه أسماء الذين رافقوا كولون الذي هو كولومبس في رحلته الأولى إلى البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى، ولم يكونوا هم ولا غيرهم يعرفون البحـــر الكـــاريبي ولا أمريكا الجنوبية في ذلك الوقت وإنما كانوا يطمعون في الوصول إلى الهند من طريق الغرب، بدلاً من طريق الشرق، وذلك قبل شق قناة السويس.

وختام الجولة في مدريد التي انهتها الشمس بغروبها قبل أن نشفي الـــنفس من كل ما نريده، منها الإطلاع على قطار الأنفاق وهو (المترو تحـــت الأرض) حيث هو على مستوى راقٍ حديث.

يوم الأربعاء: ٣/٨/١٤٢٣هـ:

كان الإفطار في فندق نوفتيل جميلاً حقاً فالعاملات في مطاعمه قد اختاروهن من الجميلات، ذوات الذوق الرفيع في التعامل مع الطاعمين فيه.

ولا يسألون الشخص عن رقم غرفته ولا يطلبون منه ما يفيد أنه نزيل في الفندق بالفعل، والطعام نفسه منوع وسخي، ولا غرو في ذلك لأن سلسلة فنادق (نوفتيل) معروفة به.

أقوال للقدماء في مدريد:

قال الإدريسي في نزهة المشتاق:

مجريط وهي مدينة صغيرة وقلعة منيعة معمورة، وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع وخطبة قائمة ولها أيضاً مدينة الفهمين وكانت مدينة متحضرة حسنة الأسواق والمباني، وبها مسجد جامع ومنبر وهي اليوم مع طليطلة في أيدي الروم.

وقال صاحب الروض المعطار:

مجريط: مدينة بالإندلس شريفة بناها الأمير محمد بن عبدالرحمن، ومن مجريط إلى قنطرة ياقوه، وهي آخر حيز الإسلام، أحد وثلاثون ميلاً، وفي مجريط تربة تصنع منها البرام وتستعمل على النار عشرين سنة لا تتكسر، وما طبخ فيها لا يكاد يتغير في حر الهواء ولا برده، وحصن مجريط من الحصون الجليلة، وهو من بناه الأمير محمد بن عبدالرحمن.

وذكر ابن حيان في تاريخه الخندق الذي خندق بخارج سور مجريط، قال: عثر فيه على قبر برمّة عادية كان طولها إحدى وخمسين ذراعاً التي هي مائة شبر وشبران من قم حدوة رأسه إلى طرفي قدميه، وصحَّ هذا بالثبت من مخاطبة قاضي مجريط ووقوفه عليه ومعاينته إياه ومعاينة شهوده ذلك، وأخبر أن مقدار ما وسعه تجويف قحف دماغه ما قدره ثمانية أرباع أو نحوها، فسبحان من له في كل شيء آية.

ومجريط مدينة صغيرة وقلعة منيعة، وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع وخطبة قائمة، وهي بمقربة من طليطلة.

وهذه جملة من مقابلة لمبعوث الملك المغربي إلى ملك إسبانيا في مدريد ذكرها الوزير محمد بن عثمان وسمى ملك إسبانيا بالطاغية، قال من بين ما قاله: وقد جرت المقابلة في عام ١١٩٣هـ:

وفي اليوم العاشر من مقامنا تلاقينا مع الوزير الأعظم الذي عليه مدار جميع أمور الطاغية فسلم علينا وأظهر من الفرح ما أظهر، وقال إن الطاغية يريد ملاقاتكم اليوم الفلاني، وسأبعث إليكم كاغيدا[١]، مرسوماً فيه كيفية ذلك، وفي الليلة التي صبيحتها تكون الملاقاة بعث إلينا الوزير المذكور كاغدا ذكر فيه كيفية الملاقاة وبعد ملاقاة الري[٢]، ملاقاة ولده الملقب بالبرنسبي[٣]، وهو المتعين للملك بعد أبيه وبعده أولاده وإخوانه لنكون على بصيرة.

---

(١) يعني ورقة واللفظة العامية عندنا في نجد: كاغد.
(٢) أي الملك (El Rey).
(٣) أي الأمير El Principe.

وفي يوم الأحد الذي هو يوم الملاقاة صبحواعن إذن الطاقية بباب الدار الذي نحن فيه أكداشاً[1] متعددة أحدها لركوبنا وهو للطاغية نفسه والأخرون لأصحابنا وسرنا لأن (الراي) كان خارجاً عن مدينة مادريد في مدينة صغيرة يقال لها البارد بينها وبين مادريد ساعة ونصف كما ذكرنا قبل.

وسرنا حثيثاً، وفي نصف الطريق وجدنا ستة بغال خلفوا البغال التي كانت في الكدش وساروا على سيرهم الاول فوصلنا المدينة المذكورة على ساعة واحدة والطريق التي بين مادريد والبارد في غاية الاستقامة، والأشجار عن يمين الطريق ويسارها مقصود منها الظل لا غير، ووادي مانسنارس مار مع الطريق عن يسار المار، وهناك من الحيوانات الوحشية ما لا يعد ولا يقر بهم أحد ولا يروعهم لأن تلك الأماكن كلها هي حمى حماها الطاغية.

---

(١) الأكداش: الخيل.

منطقة الأندلس

منطقة الأندلس:

قدمت القول بأن مصطلح الأندلس الآن قد تغير عما كان عليه في عهد العرب إذ كانوا يسمون بذلك كل ما استولوا عليه من جزيرة إيبيريا التي يسمونها جزيرة الأندلس ومن ذلك أنهم يعتبرون المدينتين الرئيسيتين هذه التي وصلنا إليها (مدريد) وتلك التي قدمنا منها وهي لشبونة من الأندلس، على أنهما لا تعتبران من الأندلس في المصطلح الحالي.

فالبرتغال لا تسمى أية منطقة من مناطقها (منطقة الأندلس) وإسبانيا تعتبر الأندلس منطقة الجنوب، وإن كان الجنوب الشرقي لا يدخل فيها.

ولكن معظم المدن الرئيسية التي بقيت بأيدي العرب مدة أطول داخلة في منطقة الأندلس الإسبانية مثل قرطبة وغرناطة ومالقة والساحل الجنوبي الثمين، بل إنه الدجاجة التي تبيض ذهباً وهو شاطيء الشمس الذي يقصده السياح من أنحاء العالم ومنهم طائفة من أثرياء بين قومنا العرب ومن أشهر أماكن الاصطياف فيه ماربلله (ماربيا).

من مدريد إلى قرطبة:

غادرنا مدريد في الحادية عشرة من ضحى هذا اليوم قاصدين قرطبة ونحن ثلاثة في سيارة هم الدكتور صالح بن محمد السنيدي مدير المركز الإسلامي في مدريد وهو الذي يسوق السيارة وأنا ورفيقي في هذه السفرة الدكتور عبدالرحمن العيفان.

والهدف من الذهاب إلى قرطبة وإلى منطقة الأندلس كلها ليس السياحة المجردة، بل إن ذلك يتعلق بالعمل فبالنسبة إلى الدكتور السنيدي توجد مؤسسات

ومساجد يشرف عليها المركز وترسل إليه النفقات التي تتطلبها فيسلمها إليهم مثل المركز الإسلامي الكبير في مدينة سهيل التي تسمى الآن: (فوين كورولا) وبعض الدعاة وأئمة المساجد، إضافة إلى ما يتعلق بالمركز الإسلامي من أعمال، ومن يتعاونون معه من شخصيات.

وأما بالنسبة إليَّ فإن الإطلاع على أحوال الجمعيات الإسلامية والمساجد وأماكن الصلاة هو من صحيم عملي، بل هو جزء مهم من العمل لأننا نتلقى في رابطة العالم الإسلامي طلبات عديدة للمساعدة لا نستطيع أن نستجيب لها إلا على ضوء معلومات صحيحة كما أننا يشق علينا أن نرفضها ونمتنع عن الاستجابة لها إلا بعد التيقن من عدم جدواها، ومنها مؤسسات ومصليات في هذه المنطقة الأندلسية، وكل ذلك يتطلب الحصول على معلومات ميدانية عنها.

وحتى بالنسبة إلى المشروعات التي لم يتقدم أصحابها بطلب المساعدة عليها فإننا بحاجة إلى معلومات مسبقة عنها في حال ما إذا تقدموا أو في حال ما إذا احتجنا نحن لأخذ زمام المبادرة لمساعدتهم، ولشيء مهم آخر وهو أن بعض الجهات الرسمية والشعبية تتصل بالرابطة تسألها عن جمعيات إسلامية ومجموعات مسلمة طلبت منها المساعدة أو أرادت هي أن تساعدها ولكنها لا تتيقن من حالها وتطلب من الرابطة بصفتها أكبر جهة رسمية لديها معلومات كثيرة عن المسلمين في العالم.

لذلك كانت هذه الجولة جولة عمل، ولكن طبيعة الفضول الثقافي أو إن شئت قلت: إنه الفضول الأدبي لدى المؤلف تحمله على أن يطلع على الأماكن السياحية والتاريخية وكتابة ما يشاهده فيها وفي غيرها من أمور البلاد.

وهي طبيعة فضول لازمته منذ أن قام بأول سفرة من هذا النوع إلى بعض أقطار إفريقية الشرقية قبل ٤٠ سنة إلا سنة واحدة وبالضبط عام ١٣٨٤هـ تلك السفرة التي ألفت مع سفرة تبعتها بعد سنتين أول كتاب ألفه في الرحلات وهو: (في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين) و هو كتاب تبعه حتى الآن ١٧١ كتاباً من نوعه آخرها كتابة هذا الكتاب وآخرها طباعة كتاب مذكور فيه آخر ما أخرجته المطابع من كتبي التي فيها أي تلك المطابع سبعة من تلك الكتب ربما لا يكون هذا المكان مناسباً لذكرها.

لقد قلت للأخ الدكتور صالح بن محمد السنيدي: إننا نسافر إلى الأندلس وهي منطقة تاريخية عربية إسلامية تغيرت فيها الأسماء وربما تغيرت المسميات أيضاً فنريد أن يكون معنا في السيارة وللرحلة كلها خبير بشئون هذه البلاد فسيارتنا ليس فيها إلا اثنان مع السائق، فأجاب بقوله: أنا الخبير فأنا أمضيت في غرناطة عشر سنين دارساً حتى حصلت على شهادة الدكتوراة من جامعتها، قال: وعملت سنوات أيضاً في المركز الإسلامي في مدريد، وأنا أجيد اللغة الإسبانية.

فقلت له: إذا كان الأمر كذلك فإننا لا نحتاج إلى أحد معك، ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك، وأن الدكتور صالحاً هداه الله هو أقل اهتماماً بما أهتم به أنا، فهو لا يهتم بأسماء المدن القديمة ولا بتاريخها، ولا يعرف إلا ما كان متصلاً بدراسته أو مجال عمله، من الأمور الحاضرة المهمة وليس الأمور التاريخية الماضية.

ولما عذلته بعد ذلك وبخاصة في غرناطة قال لي: أيكون معقولاً أنني وأنتم في رحلة عمل ولمدة خاطفة وتستطيع أن تعرف فيها أحوال المدن الحاضرة في هذه المنطقة المهمة وتقارنها بالماضي وتكتب عنها كتابة مفصلة؟

إن ذلك- كما قال- يحتاج على الأقل إلى أن تجلس أسبوعاً أو عشرة أيام في كل مدينة من مدن الأندلس هذه حتى تستطيع أن تفعل ذلك.

فقلت له: إن الوقت مهم كما ذكرت، ولكنني لا يتيسر لي أن أنفق كل ذلك الوقت أو على الأدق لا يتيسر لي أن أوفر ذلك الوقت لأنفقه في الأندلس، ولذلك تجدني أكتب ما أحصل عليه من المعلومات ولو لم تكن معلومات منفصلة ولا موسعة، بغية أن أشرك الإخوة من قراء هذا الكتاب بما رأيته أو سمعته مما يتعلق بما رأيته.

ونظراً إلى أهمية تاريخ الأندلس لنا ستجدني أشير وأحياناً أنقل بعض العبارات عن المتقدمين من باب الإيضاح للحاضر والمقارنة بينه وبين الماضي.

غادرنا مدينة مدريد في الحادية عشرة كما قلت مع شوارعها الجيدة الواسعة التي تقع عليها العمارات المنسقة أي الأبنية ذوات الطوابق المتعددة.

وغادرنا المدينة بسرعة لأن سير السيارة سريع فيها فوقعنا في أطرافها على أرضٍ ذات عشب مضى أي إنها كثيفة الأعشاب التي نريد بها الأعشاب البرية التي أنبتها المطر ولكنها الآن يابسة هامدة لأن عهدها بالفصل الممطر بعيد غير أننا رأيناها غب مطر خفيف لا يكفي لإنعاشها فضلاً عن إيقاظها من سباتها الجاف الطويل.

وفوجئت في حاشية المدينة بعد البيوت الجيدة بمجموعات من البيوت الردئية السيئة المظهر حتى إنها تشبه الصناديق وهي الغرف التي تبنى من الأخشاب الرثة أو الصفيح الرديء، وقيل لي: إنها لأناس من الغجر وإن هذه هي طبيعة حياتهم.

والذي أعرفه أن الغجر استقروا في عدة أماكن من بلاد البلقان وشرق أوروبا وقد رأيت ذلك واضحاً في بلغاريا لكون بعضهم أي بعض الغجر قد أسلموا فصاروا من إخوننا الذين تجب عليها زيارتهم وبذل المساعدة لهم على إنشاء المساجد وأماكن الصلاة، أنهم ما أن يستقروا في مكان فيعمروا قرية أو ضاحية من قرية، ويودعوا حياتهم القديمة التي تقوم على التنقل والبداوة حتى يكونوا مثل غيرهم من المواطنين أو في منزلة تقرب من ذلك.

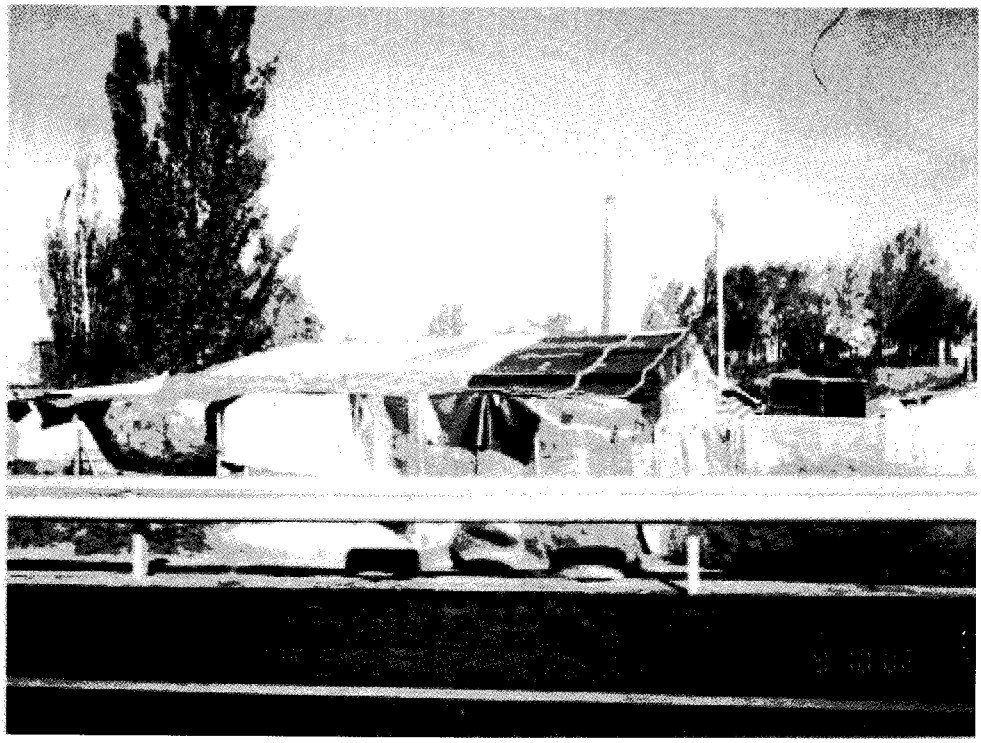

مساكن مهلهلة للفقراء على الطريق خارج مدريد

وهؤلاء الغجر الذين أرى بيوتهم الآن ما أدري ما هو مستوى حياتهم، بل لا أدري ما هي طريقة حياتهم.

كان الطريق الذي نسير عليه سريعاً لذلك قطعنا مسافة منه طويلة بدون أن نشعر ومررنا ببلدة اسمها (ارا نخوبث) ذكر أخونا الدكتور السنيدي أنها مشتى أي يقضي فيها الناس الشتاء لأنها منخفضة الموقع، وإن لم يكن ذلك الانخفاض بالغاً، وهي واقعة على النهر العظيم الذي اسمه بالإسبانية (تاجه) وبالبرتغالية (تاجو) وهو الذي يمر بمدينة طليطلة ثم يستمر جريانه في الأرض الإسبانية حتى يخترق أرض البرتغال ويصب في البحر المحيط عند مدينة لشبونة عاصمة البرتغال.

وقد تكرر ذكره عند أهل الأندلس من العرب ولكنهم كانوا يسمونه الوادي أخذاً من تسميتهم للأنهار بالوديان التي تجري فيها، وقد رأيت هذا النهر عند المدينة التاريخية البرتغالية المسماة عندهم (سانتريم) واسمها العربي الأندلس (شنترين) وقد ذكرت زيارتنا لها في كتاب (تجوال في بلاد البرتغال).

ثم وقفت على مصب نهر (تاجو) هذا عندما يصل إلى المحيط الأطلسي وتختلط فيه مياهه فيصبح خوراً عظيماً أي كالخليج الواسع من خلجان البحر.

وليس في قرية (ارانخويث) هذه جمعية إسلامية، وبالتالي ليس فيها مسجد بل ولا مصلى.

لقد عدل الطريق عن السلطاني وهو الرئيسي عندهم لأنهم يصلحونه إلى طريق فرعي مؤقت.

وهذه البلدة تقع على بعد ٦٠ كيلومتراً من مدريد.

دخلنا مع الطريق الفرعي إلى مدينة لم نعرف اسمها ولكنها ذات مرافق فخمة من ذلك قصر ملكي فيها شامخ واسع.

المؤلف بجانب المبنى الطويل في بلدة أرانخيويث

وأمام هذا القصر ميدان واسع جداً تحيط به أروقة طويلة متصلة تفتح عليها غرف تكاد تصل إلى مائتي غرفة تشرف على هذا الميدان كنيسة معتنى بها.

لم نكن نعرف من أمرها شيئاً ولم يكن مرافقنا ودليلنا الدكتور صالح يعرف عنها شيئاً، فسأل أحد المارة عن هذه الغرف الكثيرة خلف الأروقة فقال: هي غرف لجنود الملك وذكر أن الملك يستعرضها من هذا المكان الذي هو قريب من القصر الملكي يدخل معه زقاق معتنى به من القصر إليها، وذكر أن اسمها (ارانخيويث) وهي التي يقع جزء منها على الطريق وذكر الرجل أنها مشتى لملوك إسبانية ولا شك أنها بلدة تاريخية مهمة، ولكن تاريخها يرجع إلى العصر

العربي والإسباني الذي بعده، وسألنا رجلاً آخر فقال: هذه يقيم فيها الملوك في بعض الأحيان.

مواصلة السير:

غادرنا هذه البلدة التي لم نشف النفس من المعرفة بها وعدنا إلى السير مع الطريق العام السريع الذي يقصد من بين ما يقصده مدينة قرطبة فأصبحت الأرض كالصحراء الخصبة، فيها أعشاب يابسة صالحة لرعي الماشية ولكنها ليست بذات خضرة شاملة متصلة.

داخل القصر الملكي في أورانخيويث

وبعد أن قطعنا ١٣٠ كيلومتراً منذ أن غادرنا مدريد بدأت أشجار الزيتون الكثيرة وكروم العنب الذي أكثره من القصير الأشجار الذي يعصر عنبه فيصير نبيذاً وليست من عرائش العنب التي نعرفها في بلادنا.

وكلما أمعنا في السير كثرت أشجار الزيتون في أكتاف التلال وعلى أقدامها.

وقد رأينا لافتة عند الكيلو ١٥٠ من مدريد كتب عليها بأن هذا السهل اسمه سهل الشجعان.

ثم وقعنا في مناطق زراعية بمعنى أنها ذات مزارع معتنى بها وقد مضى لنا من مدريد (١٨٠) كم.

منطقة وادي بينا:

وصلنا إلى منطقة كتبوا عليها (غالدي بينا) يعني وادي بينـــا، وهـــي ذات مزارع كثيفة للعنب ورأينا في جانب من الطريق فيها معصرة من المعاصر التي تحيل العنب إلى نبيذ.

هذا وقد بقيت على قرطبة نحو ٢٠٠ كيلومتر، ولكن بعد منطقة المـــزارع هذه وصلنا إلى منطقة ذات أشجار يابسة على الطريق.

المدينة الملكية:

وقفنا عند مدينة تسمى المدينة الملكية (سدادي ريال) بالإسبانية لهذا المعنى.

دخلنا مطعماً فيها وتغدينا فيه ولا حاجة إلى القول بأنه نظيف لأن النظافة هـــي العامة هنا، ولو بحث المرء عن شيء من المحلات غير نظيف لأعجزه أن يجده.

طلبنا من عند المطعم سمك (السالمون) وحساء الخضار (شربه) وسلطة وعصير برتقال وماء معدنياً.

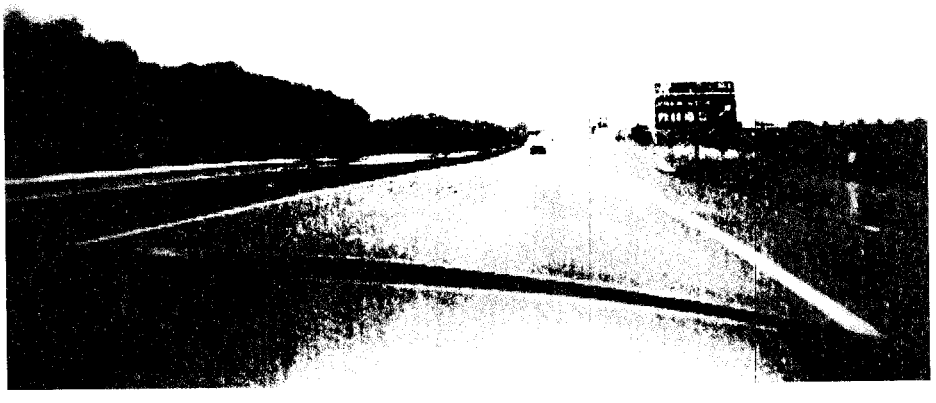

صورة للطريق السريع بعد أرانخيويث في الذهاب إلى قرطبة

وقد تعجبت من معرض في ركن منه على هيئة بقالة تبيع بعض المأكولات والفاكهة وقد عرضوا فيه حَجَلاً محنطاً وهو الطائر المعروف الذي يصطاد ويؤكل عندنا، كما عرضوا فيه أرانب محنطة ولا أدري أوضعوها هنا حتى يطلبها الزبائن أم من أجل التذكير بها، أم لأجل التجميل فقط.

وإلى جانب ذلك عرضوا أشياء مهمة من نتاج المنطقة مثل عسل جيد فيما قالواه: وزيتون من أشجار المنطقة، وقد كتبوا عليه ذلك ونصوا على أنه من المزارع

المحيطة بالمطعم، كما عرضوا أفخاذاً مجمدة من أفخاذ الغنم وقطعاً من لحم البقر والخنازير كذلك، وقد صارت يابسة صلبة وقد وضعوا لحم الخنزير د اخل فرن على درجة حرارة معينة لئلا ينتن مع أنه سيء المنظر عندنا ولو لم ينتن، ومجرد ذكره عند ذكر طعام حلال يصد عن النظر إلى ذلك الطعام الحلال إلا عند الضرورة، وقد نصوا على أن هذه اللحوم المعروضة هي للبيع.

لقد أطلنا الجلوس في هذا المطعم النظيف الذي كان فيه أناس ذوو مظهر نظيف، وبخاصة منهم الجنس اللطيف توضأنا منه وصلينا الظهر والعصر جمعاً في حاشية أرضه مع أن الريح كانت جنوبية قوية، ثم استأنفنا السير إلى قرطبة في الثانية والنصف.

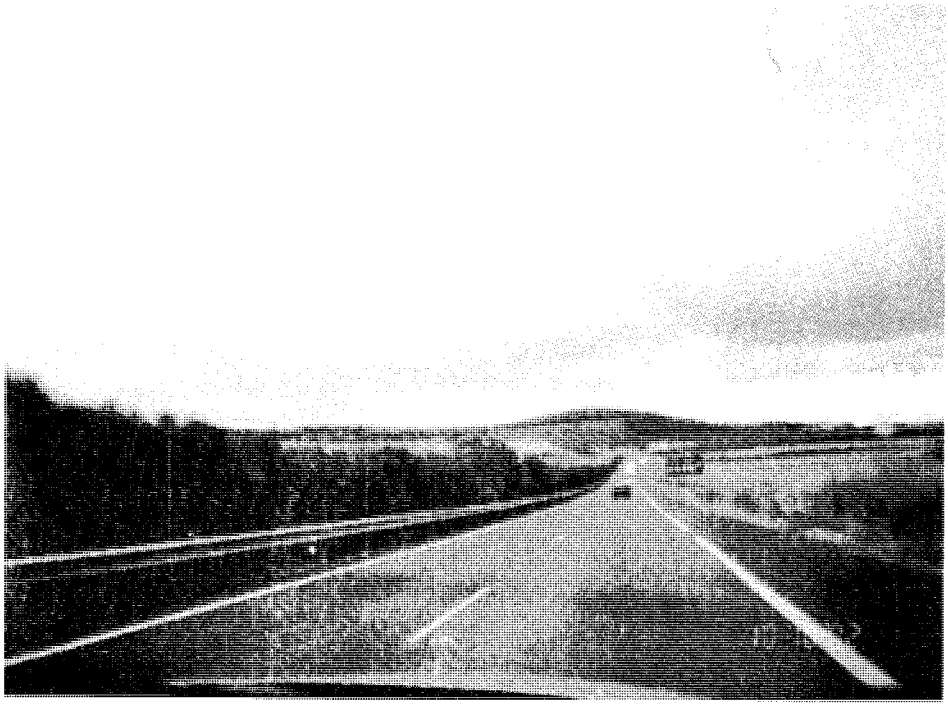

تلة عليها أشجار زيتون منسقة، حديثة الغرس على بعد ١٥٠ كم من مدريد

أول منطقة الأندلس:

بعد السير من مدينة الملك أو (سدادي ريال) بالإسبانية بقليل وصلنا إلى منطقة الأندلس، وقد كتبوا عليها لافتة بهذا المعنى.

والغريب أنه بدأت من بوابات المنطقة جبال خضر متراكمة، وهي أجمل بكثير من منطقة مدريد ذات المظهر الذي لا يبعد عن المظهر الصحراوي.

وأسرعت ألتقط لها صورة أرجو أن تكون واضحة بل معبرة عن هذه المنطقة التي يحرك اسمها المشاعر، ويبعث الفخر والزهو الممزوج بالآسى والأسف على فقدها.

لقد كنت أفكر حتى قبل قراءة اللافتة التي تعلن أننا وصلنا إلى منطقة الأندلس فأتصور سنابك خيلنا وصهيلها، ورماح فرساننا وسيوفهم ثم مصاحف قرآننا وزهادنا وكتب علمائنا وفقهائنا فيها.

تلك المصاحف والكتب التي أتلف التعصب الإسباني أكثرها ولكن بقي منها ما هو الفخر الخالد على الدهر.

فقد حكمنا القانون الإلاهي بالشرع المحمدي الذي يأمر بالعدل والإحسان، وينهي عن الفحشاء والمنكر وانصرفنا بعد أن توطد ملكنا إلى اكتساب المعارف الإنسانية وتنميتها، ثم أهدائها إلى الآخرين في أوروبا حتى صارت بلاد الأندلس تحت حكمنا مضرب المثل في عراقة الثقافة وترسيخ المعرفة، بل وفي تنميتها وازدهارها.

هذا وقد كثرت أشجار الزيتون كثرة حسبتها مفرطة وكثير منها تبدو كما لو كانت غرست حديثاً ولا شك أن في إسبانيا اهتماماً لزراعة الزيتون، بل حضاً

عليها وأخذاً بها، لأنها تبين أنه ذهب أخضر، ينقلب في الحسابات المالية إلى ذهب أصفر.

لماذا لا تكثر من غرس النخل؟

ووجدتني أقول في نفسي: إن بلادنا تنتج بنجاح أنواعاً من التمر الجيد مثل السكري والبرحي والخلاص ونبوت سيف فلماذا لا نقوم بحملة بل حملات للتشجيع على غرس المزيد من النخيل في أ نحاء المملكة، وبخاصة في القصيم والأحساء التي تتوافر فيها مقومات الإكثار من النخل.

ويجب إذا فعلنا ذلك أن تسعى الحكومة من الآن لفتح قنوات لتصدير الفائض من التمور، وبخاصة من التمور الجيدة التي لا يوجد لها نظير في تمور العالم، لأن الفلاحين المزارعين إذا أكثروا من إنتاج التمر خافوا من كساده إذا اقتصر شراؤه واستهلاكه على داخل البلاد، وقد جربنا أنه في سنة من السنوات صلح تمر السكري كله فزاد ما أنتج على ما تتحمله أسواق القصيم فرخص سعره حتى انفتحت أسواق لتصريفه داخل المملكة، ونحن نريد أن نفتح له أسواقاً في خارج بلادنا أيضاً.

هذا ونظراً إلى أن الأرض صارت تكسوها التلال الجبلية فقد انقلبت تلك التلال إلى غابات من أشجار الزيتون المغروس بعناية بحيث تكون الأبعاد بين شجرة وأخرى متساوية أو كافية لكيلا تزاحم شجرة شجرة أخرى.

ربى الزيتون في منطقة فالي على الطريق بين مدريد وقرطبة

لافتة بالعربية:

رأينا لافتات تحمل أسماء مدن أو قرى بالعربية ذكروا أن السبب في ذلك أن هذا الطريق دولي يسلكه المغاربة الذين يأتون من أوروبا إلى المغرب بسياراتهم في أوقات العطلات الرسمية وبخاصة عطلات الصيف فيحتاجون إلى أن يقرأوا أسماء المدن التي يمرون بها بالعربية، وقد رأيت من ذلك اسم (الجزيرة) الذي يراد به (الجزيرة الخضراء) تلك المدينة التي تقابل الشاطئ المغربي واسم (المرية) بالعربية أيضاً وهي مدينة معروفة لهم.

المؤلف في بدايات الأندلس حيث كثرت الأعشاب وتكاثفت الخضرة

هذا وما زال الطريق يمضي في هذه الأرض الأندلسية وأشجار الزيتون تمعن في التكاثر على التلال بديلة من أشجار الغابات الوحشية.

وطرأت على ذهني مسألة قطف حب الزيتون من هذه الأشجار التي تقدر في كل أسبانيا بالملايين وهي في هذه المنطقة بمئات الألوف وتذكرت أني عندما كنت في مدينة (باكو) عاصمة جمهورية أذربيجان ويكثر فيها الزيتون إلى درجة أنهم جعلوا أشجار بعض الشوارع داخل المدينة من أشجار الزيتون، وقد أخبرني أهلها أنه عندما يحين موسم جني الزيتون تعطل المدارس وتصرف التلاميذ إلى جني حب الزيتون، وأنه في زمن الحكم الشيوعي يقوم المعلمون بأمر من سلطات الحكومة المسئولة عن المدارس بتوجيه طلاب المدارس للقط ثمار الزيتون.

هذا والجو غائم والأرض الطبيعية أكثر خصوبة من الأراضي السابقة قبل منطقة الأندلس، ومررنا بمجمع صناعي في موضع اسمه (مار مولدوجي) يقع في وادٍ خصب قد غرسوا فيه نخلات من النخل العقيم الذي لا يثمر، وبالتالي لا يتمر وإنما غرسوه من أجل منظره.

وقال الخيال: إنه ربما كان غرس هذا النخل من أجل التذكير بأن العرب كانوا هنا لقرون متطاولة.

قرية مجرى النهر:

وصلنا إلى قرية كبيرة أو بلدة صغيرة اسمها (فيلا دي ريو) وترجمته: مجرى النهر، وهي مبدأ ولاية قرطبة بمعنى أنها تابعة إدارياً لولاية قرطبة التي عاصمتها مدينة قرطبة وبينها وبين قرطبة (٥٤) كيلومتراً.

والأرض هنا زيتون و حقول محروثة ولم تزرع بعد وإن كان بعضها فيه خضرة، وقد تكاثفت أشجار الزيتون حتى قال أحد الرفاق مستكثراً له: من يأكل هذا كله؟

وقد عم الخصب حتى إن الأعشاب الوحشية بجانب الطريق صارت كثيفة، والأرض معمورة كلها بالزراعة، فالسهول مفعمة بالحقول، أو لنقل: إن أكثرها حقول، والمرتفعات تجللها أشجار الزيتون.

ولم يمر طريقنا بمدن كبيرة وإنما هي قرى أو بلدان صغيرة، مما يؤكد ما انطبع في نفوسنا في كون إسبانيا بلاداً غير مزدحمة بالسكان، وإن كان بعض أنحائها يعتبر مزدحماً.

وبيوت الأرياف التي تكون في الغالب لأرباب المزارع متفرقة متباعدة، مما يدل على سعة المزارع.

هذه قرطبة!!:

في الرابعة والنصف كنا نصل مشارف مدينة قرطبة وسط مشاعر مهتاجة اختلط فيها الشوق إليها بالأسى على ضياعها، وذلك أنني كنت قرأت عنها في كتب كثيرة في أزمان قديمة و قرأت من سير علمائها وشعرائها ما جعلني اتطلع إلى رؤيتها.

ولاحظت من أول وهلة أن لون الحافلات فيها أخضر فقلت في نفسي: أهو مما صار يسمى باللون الإسلامي؟

وقال لي أحدهم: إن اللون الأخضر هو شعار منطقة الأندلس حتى إن علم هذه المنطقة هو أخضر، وقد كثرت فيها إشارات المرور الكهربائية التي هي كثيرة في المدن الإسبانية لأن البديل لها هي الأنفاق والجسور وهي مكلفة.

ولاحظتا من نظرة عاجلة هنا أن أشجار الشوارع فيها زهور بل إن فيها كثرة لافتة للنظر من الزهور.

وخيل إليَّ أن فتياتها أجمل من فتيات مدريد، وذلك من واقع ا لنظرة السريعة من السيارة.

أما اللافت للانتباه هنا في إسبانيا وقبلها في البرتغال فهو أدب السائقين الجم في المرور فتراهم ينتظر الواحد منهم الآخر حتى يمر أو يأذن له أن يمر إذا كان الطريق غير واضح، وهو أمر واضح إلى حد عجيب عندهم.

وقد دخلنا إلى مدينة قرطبة مع ضواح، شوارعها جيدة وكأنما هي جديدة أو مجددة.

أول ما وصلناه من مدينة قرطبة

أما الشوارع التي يكون فيها الاتجاه مزدوجاً فإن الجزيرة بين طريقي الاتجـــاهين المتعارضين تكون على هيئة واسعة وتكون عريضة يستعملها المشاة أيضاً.

البحث عن المسجد:

لم يهتد سائق سيارتنا الزميل الدكتور صالح السنيدي للطريق القاصد الذي يذهب إلى (مسجد قرطبة) لأننا اعتزمنا أن نذهب إليه وأن نسكن بجانبه مهمـــا كان سعر الفندق، فكان يسأل المارة وبعض السائقين عن المسجد، هكذا بـــاللفظ الإسباني (مسكيتا) فكلهم يعرفه من عامة الناس باسمه الأصيل (المسجد) ولـــيس بما كان أدخله عليه النصارى في القديم من تحويله إلى كنيسة.

وقد سأل أكثر من واحد فكانت إجاباتهم جميعاً تقول ما معناه: المسجد في ذلك الاتجاه، أي إنهم يسمونه (مسجد) وإن كان ذلك بلفظ المسجد في لغتهم (مسكيتا).

وصلنا المسجد الذي كان مهيب المظهر حتى من الخارج وإن كان يبدو من الخارج بعيداً عن الرشاقة لأن حوائطه الخارجية من الحجارة الكبيرة.

وتحيط بالمسجد أربعة شوارع فدرنا حوله معها.

وأول ما رأيناه منه ونحن في السيارة تلك الأقواس العربية الأندلسية الجميلة المتقنة التي لم ينل منها الدهر، ولا لانت لتعصب المتعصبين الإسبان الأوائل الذين كان أجبروا المسلمين الذين يسمون (المورسك) على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، ثم عرفوا أن بعضهم يكتم إيمانه فأجلوهم عن الأندلس ومن عرفوا أنهم بقوا منهم في الأندلس قتلوهم.

وهذا أمر معروف ومعروف قصة محاكم التفتيش التي إذا قارنها المرء المنصف في ذهنه ولو لم يكن عربياً مسلماً بما فعله العرب بالإسبان عندما فتحوا الأندلس وهو أنهم نادوا فيهم بالأمان على أنفسهم وأموالهم وبحمايتهم من أي أذى يصل إليهم ما عدا ما طلبوه منهم من ضريبة قليلة لا تؤخذ من الفقير ولا من العاجز عن العمل وهي المسماة بالجزية التي صارت الدولة التي تحتل بلاد دولة أخرى في العصر الحديث تفرض من الضرائب على أهلها أضعاف ما يأخذه المسلمون من الجزية وأقرب مثال على ذلك ما يأخذه اليهود من الفلسطينين من الضرائب المتعددة.

ومن الطريف أننا رأينا في ناحية خارجة عن المسجد أي مما يلي الشارع ميازيب تشبه الميازيب التي كنا نستعملها في بلادنا قبل التطور الأخير وهو الذي

يكون بارزاً من السطح وفوقه فراغ يتيح مرور ما قد يكون مع الماء من أكدار قد تكون موجودة في السطوح، فتذهب مع ماء المطر الذي ينطلق من الميزاب إلى الشارع.

وحول المسجد رصيف ضخم من الحجارة المهذبة الكبيرة وبعضها بأحجام فائقة في كبر الحجم ومع ذلك تبدو قد صارت ملساء من كثرة ما مر عليها من أناس على مرور الزمن.

فندق الأمويين:

كان النزول في فندق غير بعيد من هذا المسجد العظيم هو ما نتمناه لأننا لا نتحمل أن نحضر إلى قرطبة بشوق عارم إلى هذا المسجد ثم لا نجد مكاناً ننزل فيه، بحيث نحتاج إلى الوصول إليه بسيارة، وذلك أنه يمنع منعاً باتاً وقوف السيارات فيما حوله وإنما يسمح لها بالمرور وإيصال الناس، لأن هذه المنطقة التي فيها المسجد هي مطقة قديمة ذات شوارع وأزقة قديمة ضيقة بالنسبة لما صارت عليه الشوارع من السعة في الأزمنة الحاضرة.

كان الأخ الدكتور صالح السنيدي قد هتف بشيخ مغربي الجنسية يقيم في قرطبة وله علاقة بالمركز الإسلامي في مدريد وطلب منه أن يحجز لنا فندقاً قريباً من المسجد وقد أخبره أنه حجز لنا في فندق الأمويين، وأنه قريب من المسجد بالفعل ولكن لا يوجد موقف للسيارة عنده، فأنزلنا أمتعتنا وحضر الشيخ المذكور فساعدنا على نقلها إلى الفندق الذي كان في شارع قديم ضيق مبلط بالحجارة القديمة لا يبعد عن المسجد بأكثر من ٦٠ متراً.

واسمه فندق الأمويين، وكنت ظننت أول الأمر أن اسمه فندق أمية ولكنني وجدتهم كتبوا اسمه بالإسبانية فندق الأمويين (اوتيل لوس أمياس) وبالحروف اللاتينية (Los ome yas) وهو يشير إلى حكام هذه البلاد القدماء وخلفائها من بني أمية.

وهذا اسم شاعري غذا مشاعرنا التي كانت مهتاجة من قبل فكأننا نزلنا في منزل الأمويين القدماء أمام مسجدهم القديم: (جامع قرطبة).

و(لوس) هي أداة التعريف للجماعة كما في اسم مدينة (لوس أنجلوس) في جنوب الولايات المتحدة، فلوس في اسمها يعني (أل) بالعربية وانجلوس ملائكة جمع ملك بتفخ اللام.

نزلنا منزلاً جيداً بفندق الأمويين الذي هو قديم جداً، ليس في طرازه فقط فهو على نظام البيوت الأندلسية العريقة له صحن تحيط به الغرف وإنما أيضاً في كونه لم يبن ليكون فندقاً وإنما هو بمثابة بيت فتح على بيت آخر بجانبه أو على بيتين بجانبه، ولذلك ليس فيه مصعد، وموقعه أثري، ويقابله بيت من الحجارة أو ما يشبه الطين، أثري أيضاً، بل كل الحي أثري ويكفي أن نتذكر أنه ملاصق لجامع قرطبة لا يفصل بينهما إلا شارع عرضه نحو ٤ أمتار.

ومن حسن حظنا أن وجدنا الأخ الذي أوصيناه قد حجز لنا ثلاث غرف في الطابق الأرضي ولكنها متفرقة فيه.

ويقولون: إنه لولا أنه يعمل في السياحة ويعرف أهل هذا الفندق لما استطاع الحصول لنا على هذه الغرف الثلاث في الفندق.

لقد أبطأ أهل الفندق في تجهيز الغرف ونحن ننتظر على أحر من الجمر بغية دخول المسجد الجامع الذي عرفنا أن تذكرة الدخول إليه هي ستة يوروات ونصف أي نحو ستة دولارات أمريكية ونصف ورغم أن هذه غالية نسبياً فإنها رخيصة لنا، وأجرة الغرفة في الفندق ٦٠ دولاراً وهي رخيصة جداً وبخاصة بالنسبة لنا الذين نريد أن ننزل قريباً من الجامع.

الجامع العظيم:

منارة مسجد قرطبة بعدما أحاطها المتعصبون الأسبان القدماء ببناء مسخها

لا يمكن وصف هذا الجامع إلا بأنه عظيم، حتى هذا الوصف فإنه قليل عليه، فهو عظيم بتاريخه العريق الذي يرقى أوله إلى أكثر من ألف عام وهو عظيم بهندسة بنائه وإحكامها، بل وحتى برسم بنائه وما هو عليه منها مما قاوم عوامل الفناء والتعصب الأعمى، وهو عظيم بمساحته التي لم يكن أحد يظن أن معبداً من المعابد سواء أكان مسجداً أم كنيسة تصل مساحته إلى هذه المساحة وبهذا العمل الفني المجود المكلف.

وهو عظيم لنا نحن العرب المسلمين بصفة خاصة لأنه أثر خالد من آثار أسلافنا العرب المسلمين في الأندلس.

دخلنا إلى المسجد من بابه الغربي الذي في مقدمته ويكون على يمين الإمام، فرأيناه مسجداً فخماً كأنما لم يدخله غير أهله، ولم يستول عليه أحد من الكفار، وذلك أن الكفار أعظموه واعتبروه بحالته تلك مغنماً رأوا أنه لا يجوز التفريط فيه، غير أننا عندما أمعنا في الدخول ونحن نباري حائطه الداخلي من جهة الجنوب الغربي وصلنا إلى منطقة قد أفسدها بعضهم المتعصب فقد جعلوها أشبه ما تكون بمقدمة الكنيسة من دون أن يغيروا عموداً أو حائطاً، لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك من دون أن يختل المسجد وإنما رسموا على هذا الجزء من الحائط صوراً وشعارات كنسية من تماثيل صغيرة لبعض الذين يسمونهم قديسين وهم بشر من البشر.

أول ما يدخل الداخل إلى هذا الجامع يفاجئ بهذه الضخامة والسعة فيه، ومع ذلك هو مؤلف من أ قواس عربية أندلسية محكمة تركبها أقواس أُخَر، فالقوس الأسفل ينهض من فوقه مما يلي وسطه عمود يقابله عمود آخر من القوس الذي بجانبه فيؤلفان قوساً آخر يركب ذلك القوس الأسفل، ولكن ذلك كله

بني بطريقة فنية محكمة بحيث صمد لعوادي الزمن وقاوم خراب القرون ومرور الأدهار من قديم الأمصار.

مسجد قرطبة

وإذا رأه الرائي لم يشعر بأنه كان قد غير وحُوّل إلى كنيسة لأنه بمعظمه لم يجر عليه تغيير وإنما غير المتعصبون منهم سقف بعض الأماكن القليلة ورسموا عليها رسومات كنسية مسيحية ولكنها بالنسبة إلى باقي قباب المسجد وسقوفه لا تذكر لقلتها.

كما أنهم وضعوا في قسم أو قسمين من أرضه مقاعد من التي يجلس عليها النصارى في الكنائس للتعبد وغيروا ما كان أمامها بحيث صوروا فيه صوراً كنسية أو وضعوا تماثيل نصرانية، وذلك كله لا يشغل إلا أقل من ٥% من

مساحة المسجد، بل الذي يراه يكاد يحكم أنه لم يغير فيه شيء لولا وجود بعض التماثيل والصور، وهذه المجموعات الصغيرة من الكراسي التي لا تشغل إلا مساحة تافهة بالنسبة إلى مساحته الواسعة.

ويكفي لكي تتصور مساحته الهائلة أن فيه ألفاً وأربعمائة إلا ثلاثة من الأعمدة الرخامية المنقوشة التي أكثرها إن لم تكن كلها يكون العمود الواحد منها قطعة رخامية، بل هو تحفة فنية في حد ذاته.

ظلم عظيم:

كنيسة داخل مسجد قرطبة

رأينا هذه الكراسي القليلة التي ترمز إلى أن المسجد حول إلى كنيسة مع أن ذلك لم يظهر عليه كما قدمت فقلنا: إن معنى ذلك أن النصارى يؤدون عبادتهم النصرانية فيه، مع أن هذه الكراسي المعدة لذلك لا تشغل إلا بما يعادل ٥% من مساحته وسائر مساحته التي تؤلف ٩٥% قد بقيت كما كانت منذ العهد الإسلامي مسجداً من المساجد.

ولكن هل يسمح للمسلمين أن يؤدوا الصلاة فيه؟

إن الذين سألناهم عن ذلك من الذين حولنا منهم قالوا: إن ذلك ممنوع قانوناً أو قالوا بأمر من الحكومة أو من السلطات الكنسية التي تنفذ الحكومة رغبتها في هذا الشأن.

قلنا لهم: إننا الآن بعد العصر، وقد فرغنا من صلاة العصر منذ مدة فالوقت بالنسبة إلينا هو وقت نهي، وإلا لصلينا فيه ركعتين فما تظنون أنهم يفعلون بنا؟

إن هذا الجامع العظيم هو مسجدنا، ولن نقول لهم: أن يعيدوه لنا ولكن نقول لهم بحجة القانون ما دام إنه يسمح لكم بالصلاة فيه وأنتم لم تبنوه ولا اتخذه غيرهم معبداً في الأصل كيف نمنع نحن من أداء الصلاة فيه؟

ولا أشك في أن الأمر يحتاج إلى مطالبة قانونية في السماح بالصلاة ولو في ناحية معينة منه كأن تخصص منه مساحة أو ركن لأداء الصلاة للمسلمين الذين يرغبون في ذلك، وإذا كانوا لا يوافقون على أداء الصلوات المفروضة جماعة فإنه لا أقل من أن يسمحوا لمن يريد أن يصلي النافلة فيه.

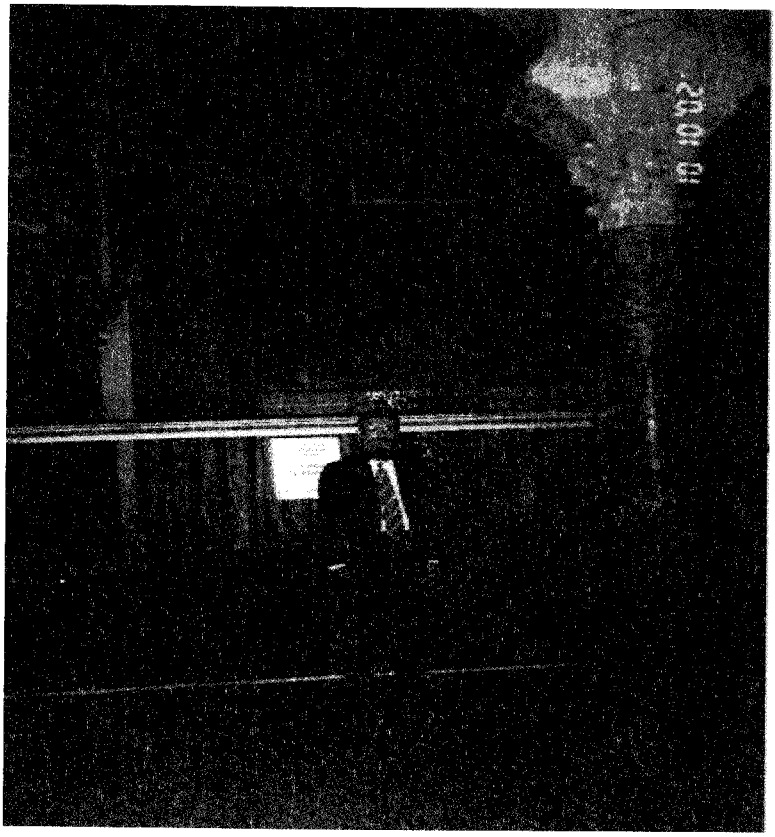

المؤلف في مسجد قرطبة تحت ضوء خافت

أليس هذا ظلم؟ بل هو ظلم عظيم، و بخاصة إذا أخذنا مـــا تـــنص عليـــه قوانينهم وشعاراتهم من أن الناس كلهم سواسية وأنه لا يجوز التفريق بين الناس في هذا الصدد.

لقد رأيت المسجد يعج بالسياح من أنحـــاء العـــالم فهـــؤلاء ذوو المظهـــر الأوروبي الذين ربما كانوا أو بعضهم من الأمريكيين يحرصون على تأمله بـــل هم ينظرون إليه مدهوشين وهنالك اليابانيون الذين رأيتهم يحرصون على إلتقاط

الصور له من زوايا مختلفة، ورأيتهم يحرصون أكثر من ذلك على إلتقاط صور لمحراب المسجد.

ورأيتهم كتبوا على زاوية كتابة ليست واضحة (كاتدراتبة قرطبة) بمعنى الكنسية الرئيسية أو الكنيسة الكبرى لقرطبة وهذا أيضاً من البهتان لأنه مسجد كما يعرفه حتى قومهم الإسبان، وليس كاتداتبة لقرطبة ولا غيرها، و لكن من الملاحظ أن هذه العبارات لا تكاد ترى ولا يراها إلا من يتعمد ذلك، والواقع الآن يكذبها حتى بقاؤها في مكانها من المسجد يدل على التعصب والتحجر ، لأنه من المفروض أن يكونوا في هذا الزمن الذي توثقت فيه الاتصالات بين الشعوب وأن هذا المسجد يزوره عشرات الألوف من أبناء المسلمين الذين يكرهون مثل هذه العبارة، وكان من الأولى ألا تستفز مشاعرهم تجاه الإسبان، غير أنه ما من شك في أن تلك العبارة هي من بقايا عصور التعصب القديم.

محراب الجامع:

المحراب الرئيسي في الجامع لا يزال باقياً على حاله وهو محاط بآيات قرآنية كريمة لا تزال باقية على حالها لم تمس.

والإضاءة فيه تنبعث من خلال مصابيح تشبه القناديل وليس من مصابيح كهربائية معتادة، ومن ثريات ولكنهم وضعوا في جهة المحراب عدة صور كنسية أي مستوحاة من معتقدات الكنيسة، وربما زعموا أنهم بذلك يكونون حولوا هذا المسجد إلى كنيسة وهو أكبر من ذلك، ولن يستطيعوا حتى لو حاولوه في هذا العصر الذي انصرف فيه كثير منهم بل أكثرهم عن الكنائس ورجالها، فمن أين لهم أن يأتوا بمتعبدين كثر وكنائسهم تشكوا قلة المتعبدين؟

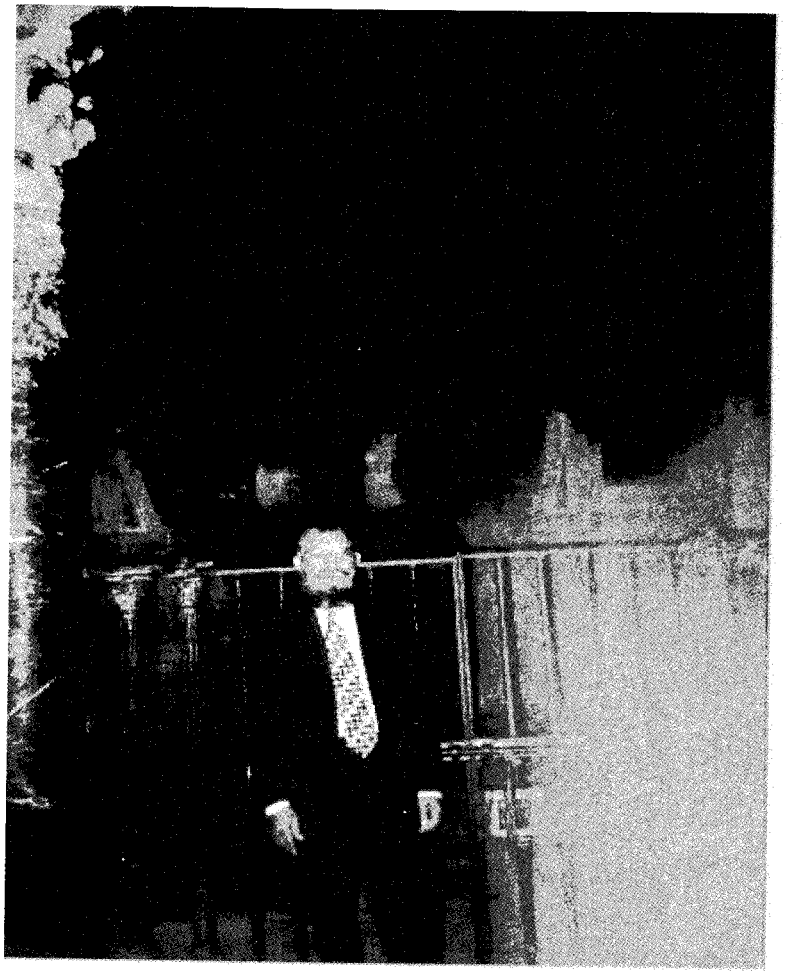

المؤلف عند محراب مسجد قرطبة

وبجانب المحراب عن يمين وشمال بابان فوقهما عقدان من البناء الفني المحكم أحدهما باب الخطيب وهو الذي يدخل منه الذي يخطب الناس يوم الجمعة، وهو الأيمن منهما بالنسبة لمن يكون وجهه إلى القبلة، والآخر لا أدري لأي غرض يستخدم.

منظر من جامع قرطبة

أكبر من كنائس:

وصلنا إلى جهة أخرى من هذا الجامع العظيم قد وضعوا في ركن منها كنيسة صغيرة بأن نصبوا تماثيل ورسموا رسومات لبعض قديسيهم، ولكنها لا تكاد ترى في الجامع ولا يعرف بها إلا من يصل إليها، والكراسي التي فيها قليلة مما يدل على أنها رمزية أو أن الذين كانوا يحضرون للتعبد فيها قليل.

هذا في الوقت الحالي، فماذا كان عليه الأمر في القديم وهل كان المتعبدون من النصارى يملؤن هذا الجامع عندما حولوه إلى كنيسة كما كان المصلون المسلمون يملؤنه في صلاة الجمعة؟

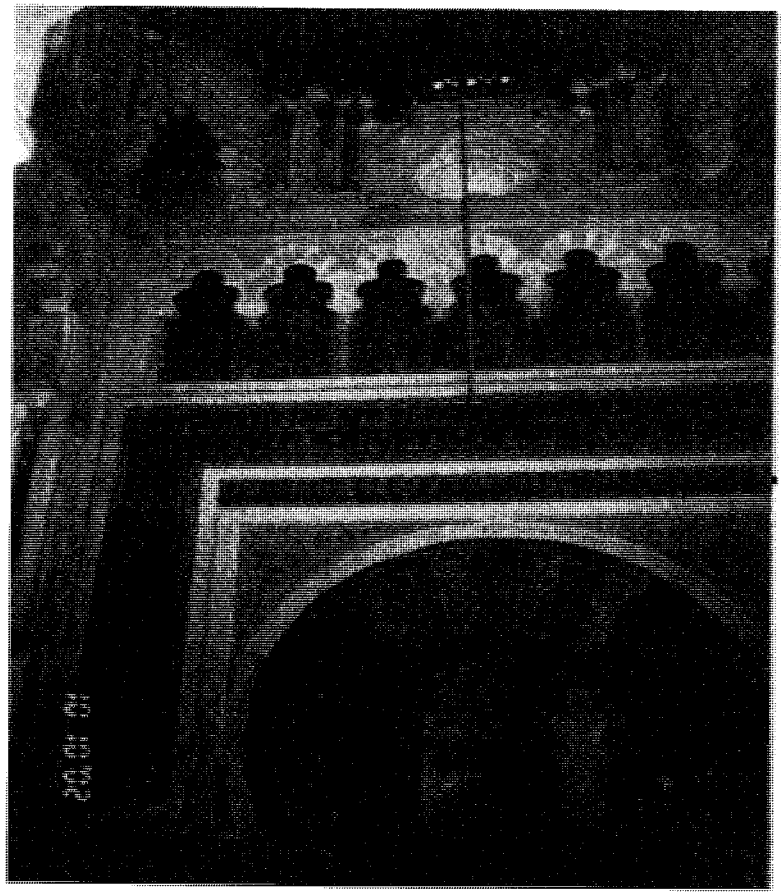

النقوش والآيات القرآنية فوق مسجد قرطبة

لاشك في أن هناك بحوثاً لم نطلع عليها في هذا الشأن ولو اطلعت عليهـا لأثبت المهم منها هنا.

ولكن قد يستدل على أن المتعبدين من النصارى فيه عندما حول إلى كنيسة هم أكثر مما هم عليه الآن هو انتشار الصور الكنسية المرسومة على أركانه إلا

إذا كانت حتى هذه الرسوم الكنسية رمزيـــة أرادوا منهـــا إظهـــار أخـــذهم لـــه واستيلائهم عليه، والأمر أيضاً يحتاج إلى بعض مـــن متخصصـــين يحســـنون الإطلاع على البحوث المكتوبة باللغة الإسبانية.

ويلاحظ أن النصارى الأوائل منهم أزالوا سقف بعض العقود مما جعلـــوه كنيسة وأبدلوه بسقف من عندهم عليه نقوش مستوحاة من الديانة النصرانية ممـــا يرجح أنه حتى في القديم لم يكن المسجد يمتليء كله بالمتعبدين النصارى.

عند أحد الأبواب الداخلية في مسجد قرطبة مع الدكتور عبدالرحمن العيفان

لكن حتى الآن نراهم ركزوا الأضواء على الصور والرسومات الكنســـية فيـــه أكثر ما ركزوها على الكتابات العربية كالآيات القرآنية أو حتـــى النقـــوش العربيـــة الخالية من الصور، ونحن لم نصادف فيه حتى مصلياً و احداً من النصارى.

والجامع مؤلف في الأصل من ثلاثة أقسام أو لنقل: إنه مبني على ثلاث دفعات الأول وهو المسجد القديم ا لذي مضت على بنائه أكثر من ألف سنة مسقوف كله من الخشب المنقوش بنقوش إسلامية رائعة لا يزال أكثرها سليماً، وقد أضاؤها بأنوار خافتة، حمر لأن الإضاءة الكهربائية القوية تؤثر على أخشاب السقف.

والثاني مسقوف بقباب قائمة على عقود من الآجر أو نحوه من مواد البناء التي يخفيها الطلاء.

وقد ظللنا فترة نتمشى فيه ومع ذلك خرجنا من دون أن نجول فيه كله، وإنما كنا نكتفي بأول الجهة التي نصل إليها منه.

لقد صورت عدة صور لمواضع مهمة منه ولكن المشكلة أن النور في بعض أجزائه غير كافٍ، وقد أعلنوا أنه سوف يغلق لأن ساعة إغلاقه مذكورة على بابه، فخرجنا من غير أن نشفي النفس تماماً من الإطلاع عليه، وإن كنا حصلنا على النصيب الأكبر من ذلك ولله الحمد.

وقد عزمت على أن أعود في صباح الغد لزيارة الباحة الخارجية فيه وهي خارجة عن المسجد المسقوف ولكنها متصلة به من أبواب يدخل معها فهي جزء من المسجد ولكن المسجد يغلق دونها ولذلك جعلوا الدخول إليها مباحاً لمن يشاء دون قيود مع أنها تمثل أثراً قديماً أو هي جزء من هذا الجامع كما أنها محاطة بأروقة قديمة أثرية تتقدمها أقواس أندلسية قائمة على أعمدة رشيقة قديمة.

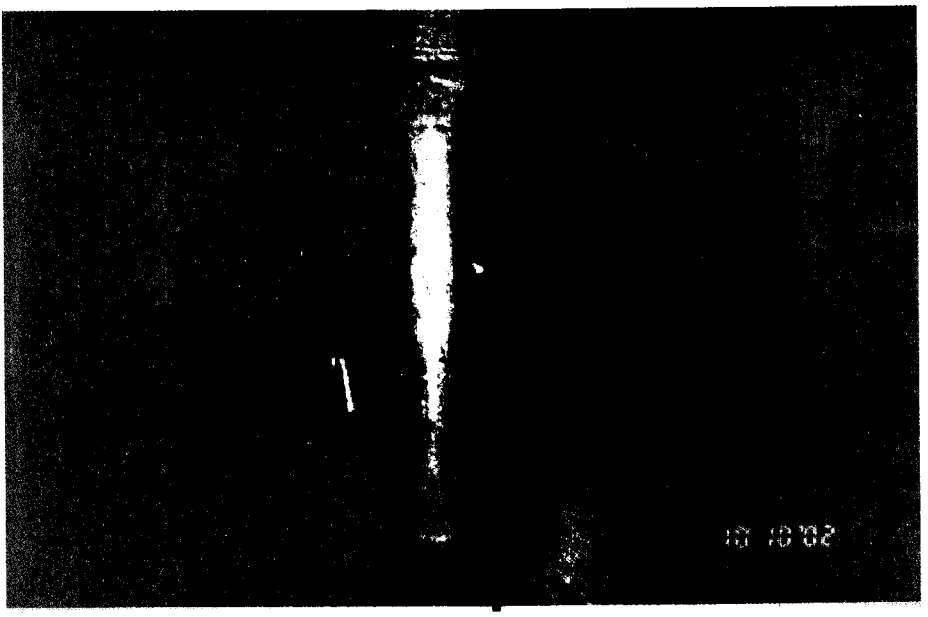

أسطوانة من المرمر الفاخر القديم من ٢٣٩٨ أسطوانة مرمرية في مسجد قرطبة

وعندما أردنا الخروج من المسجد كان ذلك من أحد أبوابه الفخمة المصفحة برقائق الحديد القوي القديمة، فجعلت أتأملها، فقال ضابط عند الباب الخـــارجي: عربي، أي إنه من الآثار العربية، فقلت له: أعرف ذلك لأنني عربي، فبدأ كأنما قطب أساريره.

ما حول الجامع:

يقع الجامع على أربعة شوارع تحيط به وهي شوارع قديمة على الطـــراز القديم فليست مستقيمة ولا تخرج من المنطقة التي انطلقت منها بجانب الجـــامع مستقيمة بل تكاد تنتهي في الشارع المحيط به الذي تتفرع منـــه أزقـــة ضـــيقة وشوارع أخرى غير مستقيمة ولا طويلة.

وهذا أعطاها المسحة الأثرية القديمة، وجميع الشوارع المحيطة بالجامع أو القريبة منه وحتى الأزقة المتفرعة عنها مبلطة بالحجارة التي بعضها غير ناعم ولكن سير الأقدام عليه مئآت السنين أعطته نعومة خاصة، وجعلت السائر عليها يعرف أنه كذلك، فضلاً إذا احتاج الأمر في ذهنه إلى ما يؤكده وإلا فإن الحوائط الخارجية العالية لهذا الجامع لا تجعله يفكر في غير التاريخ القديم.

وقد حاولت بلدية المدينة وأهل المنطقة أن يؤكدوا ذلك في ذهن المشاهد فجعلوا ما حول الجامع أشياء مهمة متعلقة بالعرب والمسلمين، أو لنقل: إنها متعلقة بماضي هذا المسجد من ذلك:

المطعم الأندلسي:

ويقع في بيت كامل يفتح على الشارع الشمالي للجامع وهو مطعم ومشرب ومقهاة ولا شك في أنه بيت قديم لم يغير منه شيء إلا ما يؤكد نسبته العربية الأندلسية ففيه صحن الدار الذي تحيط به الغرف خلف رواق من الأقواس الأندلسية التي تحملها الأعمدة الرشيقة وسطه النافورة وهو طابقان، وقد زينوا جميع أركانه بالفسيفساء الأندلسية التي هي نوع من أنواع السيراميك كما تعرفه عامة الناس ولكنها ملونة بأخضر أو أزرق وموضوعة على الجدران والأروقة بطريقة فنية بديعة.

وفي جانب من فناء فيه مكشوف شجرة زيتون محملة بالثمار ذات اللون الأخضر المائل إلى الحمرة وبحجم كبير غريب.

وفي جانب من هذا الفناء صنبور ماء (بزبوز) من حوض مكسو بالفسيفساء وهو في نفسه وما حوله تحفة من التحف.

في المطعم الأندلسي المجاور لمسجد قرطبة

كان بودنا أن نجلس في هذا المكان الأندلسي الرائع الذي جملوه وكملوه حتى غدا كذلك مما يجعل الذي يجلس فيه يتذكر إذا كان مثلي قد قرأ كثيراً من أخبار أهل الأندلس وأحوالهم، بل ومدنيتهم التي كانت قمة المدنية في أوروبا في تلك العصور، ولكن الوقت كان ضيقاً، وقد جاء صاحب المطعم أو لنقل البيت الأندلسي لأنه يشغل بيتاً كاملاً يسأل عما نريد كأنه ظن أننا نبحث عن مكان فيه نجلس فيه فكلمه الدكتور صالح السنيدي وأخبره أننا مجرد متفرجين فرحب وصار يرينا ما ظن أننا لم نلق له بالاً من هذا البيت بل القصر الصغير.

وكاتب الشهادتين على الملابس:

جلنا على أقدامنا في المتاجر الصغيرة المحيطة جهة الشمال بالشارع الذي يلتف حول المسجد وهي متاجر أكثرها يقدم بضائع تصلح للسياح من أكثرها طرافة وغرابة بالنسبة إلينا قمصان عديدة وبألوان مختلفة نشرها أحد المتاجر وكلها متاجر تعتبر صغيرة لغلاء الأجور وضيق المنطقة قد كتبوا على صدورها الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) بالعربية، ورأيت السياح الأوروبيين يقبلون على شرائها لأن الحروف العربية غريبة عليهم إذا كانت على قمصان يلبسونها وهي شهادة لمن يلبسها على أنه زار هذا المسجد العظيم واطلع من خلاله على الآثار العربية الفنية الجميلة.

والمنارة المحجوبة:

وقد تسارع أيها القاريء الكريم فتسأل نفسك وتتخيل أنك تسأل الكاتب عن المنارة أتحجب؟ وكيف كان ذلك؟

كل واحد من أمثالنا نحن المسلمين الذين يزورون جامعاً أو مسجداً أثرياً كبيراً يلتفت ليبحث عن منارة المسجد.

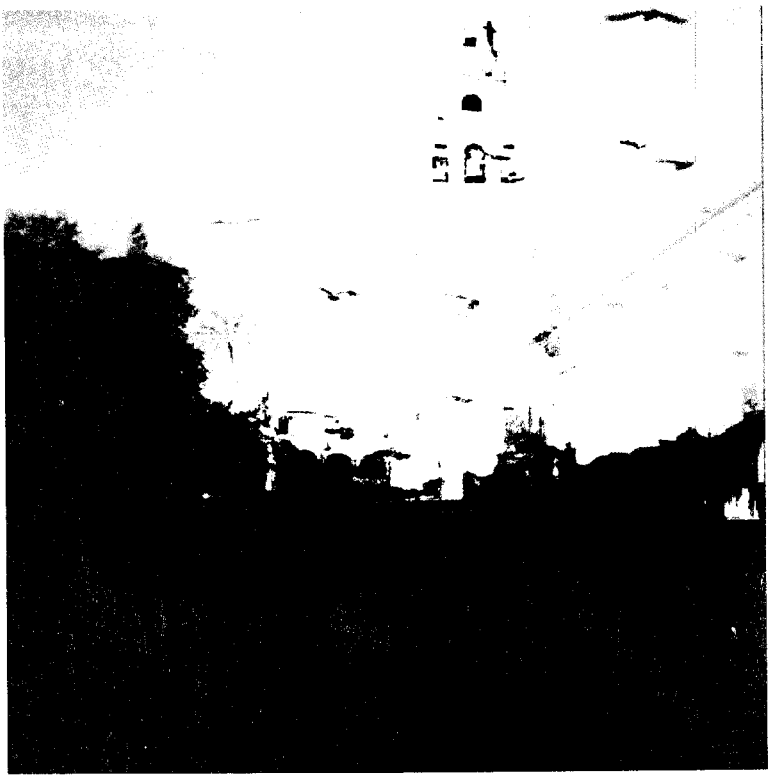

منارة مسجد قرطبة المغيَّرة كما تبدو من صحن المسجد دونها حمامات طائرة (تصوير المؤلف)

وقد فعلت ذلك فلم أجد إلا ما يشبه برج الكنيسة ملاصقاً للجامع وتابعاً لـــه لأنه متصل به داخل الشارع الذي يحيط به، وإذاً تكون هذه هي منارة الجامع ولا منارة غيرها إلا بأن تكون هدمت، أما هذه المنارة القائمة التي تشبه برج الكنيسة الفخم فإنها كانت صومعة أندلسية الطراز مربعة، بل هي فيما قرأناه عنها فـــي القديم تحفة من التحف غير أن المتعصبين الإسبان عندما استولوا على قرطبـــة وطردوا منها المسلمين وأرادوا أن يغيروا الجامع بأن حولـــوه إلـــى كنيســـة أو حاولوا ذلك بدأوا بالمظهر البارز منه وهو المنارة فبنوا حولها بناء يرتفـــع مـــع

ارتفاعها بمعنى أنهم ألبوسها بناء ذو مسحة كنسية نصرانية حتى وصلوا به إلى أعلاه فبنوا فوق أعلاه بناء محدثاً منهم دقيقاً هو رأس برج على مثال أبراج الكنائس المعروفة لهم ووضعوا فيه جرس الكنيسة، فصار من ينظر إلى المنارة يظنها برج كنيسة محدثاً من الأرض كله و الواقع أن الأمر كله تلبيس مادي فصدقه التلبيس الفكري **(ويمكرون ويمكر الله و الله خير الماكرين)** و**(يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)** فقد أصبح الأدلاء السياحيون الآن يقولون للسياح ولغيرهم الحقيقة وهي أن هذا البرج هو منارة الجامع الأثرية القديمة جرى تزييفها أو تزييف مظهرها بدافع التعصب.

وتزخر المتاجر التي حول الجامع بصور الجامع من داخله وخارجه، وفيها صور هذه المنارة المزيفة وغيرها.

المؤلف عند حائط مسجد قرطبة الخارجي

ولا شك في أن السياح والذين يشترون الصور السياحية من الزوار يشترون صور المنارة لو كانت نقية لم تدنس أكثر مما يحرصون على شراء صور برج كأبراج الكنيسة الكبيرة عندهم، بل التي تزخر بها بلادهم إذا كانوا من البلدان المسيحية.

وعلى ذكر السياح أقول: إنني لم ألاحظ وجود أي سياح عرب فيه لأن المشرق العربي ولا من المغرب العربي، مع وجود السياح من سائر الأمم حتى من الأمم البعيدة عنه كاليابانيين وأهل أمريكا الجنوبية.

وهذا أمر لافت للنظر ربما كان مرجعه إلى أن أهل البلدان العربية القريبة منه يكونون قد زاروه قبل ذلك أو يكونون من غير القادرين على زيارته، ودفع نفقات السياحة إليه، أو يكونون لنقص ثقافتهم لا يدركون أهميته لهم وللإنسانية.

وأما أهل البلدان العربية البعيدة عنه كأهل المشرق العربي فإن أكثرهم يسيحون سياحة لهو وليست سياحة ثقافة، لذا لا يذهبون لرؤية هذا الجامع وغيره من الآثار العربية الإسلامية في إسبانيا وإنما يفضلون أن يذهبوا إلى الجهات الأخرى وإلى أغراض أخرى ولا يخرج عن هذه القاعدة منه إلا القليل.

قصر الملك:

يقع إلى الجنوب من المسجد ما أسماه لنا الأخ المرافق (قصر الملك) يريد أن به قصر ملك قرطبة العربي، والواقع أن رأس الدولة في وقت بناء هذا المسجد لم يكن يسمى (الملك) وإنما كان يسمى الأمير ثم صار يتسمى بأمير المؤمنين، فالقصر هذا في الحقيقة هو قصر أمير قرطبة كان متصلاً بالمسجد الجامع من هذه الجهة وهي الجهة الجنوبية بباب خاص، وقال بعضهم: إنه

متصل به بساباط أي ما يشبه السقف فوق الشارع، لدخول الأمير إلى المسجد والخروج منه إلى قصره، ولكنه الآن صار منفصلاً عنه بشارع ولا أدري متى أحدث ذلك ولكنه كان في القديم بلا شك.

ذكر أحد المرافقين أنهم حولو القصر إلى كنيسة، والواقع أن الأمر لا يكون كذلك، لأن المسجد الجامع وحده تكفي مساحته لجميع من كانوا يريدون التعبد من النصارى فيه بعد أن حولوه إلى كنيسة ولكنهم حولوه إلى مبنى تابع للكنيسة ووضعوا فوقه صليباً يدل على ذلك.

وهناك قول شائع حول المسجد، وأن أصله كنيسة حولها المسلمون إلى مسجد، والواقع أن الأمر هنا ليس على إطلاقه، وإنما كانت توجد كنيسة صغيرة اشترى المسلمون الأرض حولها وبنوا على مجموع المساحة هذا المسجد الذي لم يكن أول الأمر إلا بمقدار ثلث مساحته الحالية، ثم بعد سنين طويلة زيدت فيه الزيادة الأولى وفي الأخير زيدت الزيادة الثالثة.

وبقيت ملاحظة مهمة في هذا الجامع وهو أن محرابه يبدو في جنوبه أو في ميل قليل من الجنوب إلى الشرق ذكر بعضهم أن العرب الذين وضعوا المحراب هكذا قد أخطأوا عندما قاسوه على محراب الجامع الأموي الذي يقع في جهة الجنوب منه فجعلوه مثله، ولا أظن ذلك يخفى عليهم فهم يعرفون مواقع القبلة في البلدان وكذلك الأسفار، وقد لاحظت قبيل شروق الشمس في اليوم التالي أن محرابه يقنع بين الجنوب وأيمن الشرق حيث القبلة الحقيقية.

ذهبنا مع الأخ الكريم الذي يعمل في قطاع السياحة التي أهم ميادينها هذا الجامع وما حوله من الآثار العربية في قرطبة فجال بنا في أزقة ضيقة تقع إلى

الجنوب من الجامع، ومما يسجل للإسبان أنهم حافظوا على بقائها كما كانت عليه، فلم يهدموها بحجة توسعة ما حول الجامع ولا بنوا في مكانها أبنية تستوعب أعداداً أكثر من السكان فصارت بوصعها الحالي تحفة من التحف لمن يريد الإطلاع على المنازل والأزقة على ما كانت عليه في عهد العرب، وزادوا في العصر الحديث على ذلك بأن سموا الأزقة والشوارع القصيرة الضيقة فيها بأسماء شخصيات عربية بارزة مثل شارع المنصور بن أبي عامر وشارع أبو رشيد مما سيأتي الكلام عليه فيما بعد.

البيت الأندلسي:

المؤلف يضع يده على رأس تمثال لإحدى شخصيات الأندلس البارزة في البيت الأندلسي في قرطبة

هذا متحف مهم جداً يسمونه البيت الأندلسي لا على اعتبار أنه يمثل المنزل الأندلسي فذاك قبله المطعم والمقهى الذي ذكرته الذي هو أقرب إلى المسجد الجامع من هذا وإنما يريدون به (المتحف الأندلسي) الذي يضم بعض المخلفات مع البيانات والرسوم والخرائط المتعلقة بالعرب الأندلسيين أيام حكمهم على هذه البلاد.

أسرع الأخ المرافق للذهاب إليه وإنْ كان لا يغلق إلا متأخراً وهو به خبير، وأهم ما في هذا المتحف أن الدخول إليه بالمجان، فلا يدفع من يدخله أي رسم.

أول ما د خلنا مع بابه عرفنا أنه كان بيتاً أندلسياً حقيقياً من وجود صحن الدار في جانب منه وإن لم يكن بالفخامة والتزويق المعهودين، وفي داخله المسقوف بئر وضعوا فيها مصباحاً كهربائياً حتى يراها من يريد أن ينظر إلى داخل البئر.

وهذا خلاف ما عهدنا عليه الآبار في بلادنا حيث تكون في الأفنية المكشوفة والأحواش من البيت و لا تكون داخل البيت المسقوف.

ولكن الأهم من ذلك وجود ثروة ضخمة في هذا البيت الذي هو متحف كما قدمت من المخلفات الأندلسية، ومن البيانات المتعلقة بذلك.

ر أس ابن رشد:

يعتبر الفيلسوف ابن رشد من أهل قرطبة ولذلك يعتز به أهل قرطبة ويبرزون جهوده ويقدرونه بطريقتهم وهي إقامة تماثيل له في أكثر من مكان فيها سيأتي الكلام على المشهور منها.

ولذلك كان من أول ما رأيناه في هذا المتحف تمثال لرأس ابن رشد وكتفيه بجانبه مخطوطات عربية ليست من قديم المخطوطات العربية ولا من الفاخر

منها ولكنهم وجدوها واعتبروا بحق أن قيمتها كثيرة ومنها مجرد وجودها بورقها وأحبارها التي كتبت بها إضافة إلى قيمتها العلمية إن كانت ذات قيمة علمية.

وأسرع أحدنا بدافع النكتة يضع يده على رأس تمثال ابن رشد كأنما يتفحص دماغه ليعرف هل فيه فرق عن أدمغة غيره من الناس.

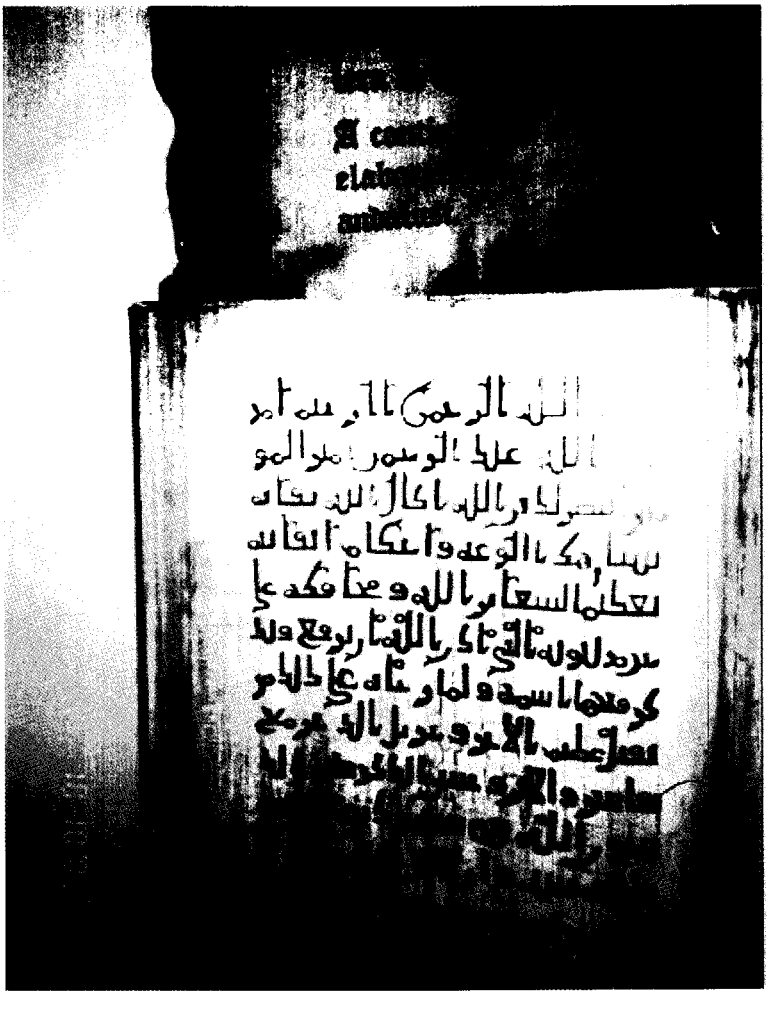

وثيقة في البيت الأندلسي في قرطبة مضت عليها أكثر من ألف سنة

ثم رأينا لوحة خشبية، قالوا: إنها لوح من الخشب عليه كتابة عربية أثرية بل هي قديمة جداً مضى على كتابتها أكثر من ألف عام.

وأولها (بسم الله الرحمن الرحيم أمر عبدالله عبدالرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطال الله بقاؤه.

وأخرها: و(بناء مكان للوضوء أمر به للوزير والحاجب عبدالله بن بتو والمهندس سعيد بن أيوب) وتاريخها في ذي الحجة سنة ٣٤٦هـ.

وهي بخط كوفي قديم تحتاج قرأتها إلى تأمل.

وفي هذا المتحف نماذج مما وصل إليه أهل الأندلس من التقدم في الصناعة عرضوا من ذلك مصنعاً للورق ليس أنموذجاً وإنما هو حقفيقي ومن الغريب أنه على هيئة عجلة تضغط على خشبة بواسطة تروس من أجل أن تطحن الخرق وتحيلها إلى أن تصبح مادة من المواد التي تخلط فتصير ورقاً.

وفي هذا المتحف كتابة تشير إلى أن مدينة قرطبة سوف تحتفل بعد خمسة أيام بمرور ألف سنة على وفاة المنصور بن أبي عامر أحد ملوكها وإن لم يتسم بالملك وهو من أعظم قادة عصره في الفتوحات الإسلامية في داخل الأندلس حتى إنه توغل شمالاً فوصل إلى مناطق في أقصى بلاد الإسبان من جهة الشمال لم يصل إليها قائد عربي مسلم قبله، وقد غزا ٥٧ غزوة.

وفي المتحف أو البيت الأندلسي قنديل من الفخار وهو السراج الضخم من قدر قائمة الرجل يوضع فيه زيت كثير من زيت الزيتون وفيه ثقب توضع فيه الفتيلة أو الذؤابة حيث توقد النار في طرفها وتضيء مستمدة ذلك من الزيت التي تتصل به داخل هذا القنديل وهو أكبر قنديل رأيته، بل هو أكبر قنديل تخيلته فهو واسع إلى

درجة أنه إذا مليء بالزيت لا يقوى على حمله إلا عدة رجال ومثل هذا القنديل يوضع في العادة أو فيما نتصوره على أرجل على الأرض لأنه يصعب تعليقه وهو من الفخار القوي وليس من الزجاج، أو النحاس أو الصفر.

المؤلف عند تمثال محمد الغافقي في قرطبة القديمة

ومن الطرائف في هذا المتحف أنهم وضعوا صوراً من اللدائن- البلاستيك- لسائر الفواكه والخضروات التي كانت تنمو في الأندلس وتستثمر وتؤكل.

وهذا أمر مفهوم السبب إذْ لم يجدوا منها ما هو بعينه من مخلفات الأولين، ولا يجوز أن يعرضوا ما هو موجود الآن لأنه من الجائز أن يكون حدث له تغيير أو أدخلت عليه تحسينات، ونحو ذلك.

وقد التقطت لها صورة.

ومن المعروضات الثمينة فيه صفحات من مخطوطات عربية قديمة وكرة أرضية رسمت عليها خريطة الشريف الإدريسي التي رسمها للعالم المعروف في عصره وهو آخر القرن الخامس الهجري أي الذي مضت عليه حتى الآن أكثر من تسعمائة سنة.

البيت نفسه تحفة أثرية:

وهذا البيت الأندلسي هو نفسه تحفة أثرية ذلك بأن جزءاً من حائطه هو جزء من سور قرطبة القديم الذي لم يتغير من عهد العرب وهو يبين حدود مدينة قرطبة القديمة التي لا تعتبر واسعة في هذه الجهة الجنوبية بالنسبة إلى جهة الجامع.

وقد كتبوا عليه تنويهاً بأن هذا الحائط هو جزء من سور قرطبة وأنه كان موجوداً في عهد العرب أو قالوا المسلمين لا أتذكر أي اللفظين ذكروه.

باب المدوّر:

كانت الشمس قد غربت منذ فترة عندما خرجنا من البيت الأندلسي واستمتعنا بما رأينا فيه وحان بل بات موعد اغلاقه ولكن المسئولة عنه التي وجدناها فيه تمهلت في ذلك بناء على رغبة مرافقنا حتى ننتهي من الإطلاع عليه.

لذلك تركناه ولم نكد نفعل حتى وصلنا إلى باب أثري قديم من عهد العرب المسلمين اسمه (باب المدوَّر) وهو على جزء من سور قرطبة القديم.

وهذا الباب سليم بقي على ما كان عليه من عهد العرب المسلمين أو أن أهل قرطبة قد رمموه ليبقى كذلك، وأظن أن الأول هو الصحيح لأنه مبني على طراز هندسي قوي.

مسجد المرابط:

خرجنا من باب المدوَّر الأثري العربي إلى ما يعتبر خارج مدينة قرطبة الأثرية القديمة فوجدناهم شقوا شارعاً فيه لا يتعرض لآثار المدينة تسير فيه

السيارات وعليه أبنية حديثة لا طعم لها ولا رائحة فهي مكررة موجودة في أكثر البلدان ثم إنه ليس لها طراز فني خاص من أطرزة البناء.

ركبنا سيارة أجرة من هذا الشارع لأن سيارتنا واقفة في مكان بعيد ويصعب أحضارها بسرعة إلى هذه المنطقة.

في محراب مسجد المرابط في قرطبة مع إمامه الأخ مخلف

كانت الساعة قد بلغت الثامنة فوسلنا إلى (مسجد المرابط) وهو صغير جداً بخاصة بالنسبة إلى اسم جامع قرطبة، بل إنه بقي فترة لا يصلى فيه له قصة هي: أنه في زمن الحرب الأهلية في إسبانيا احتاج الجنرال فرانكو إلى جنود أقوياء فجلبهم من المغرب وبالذات من منطقة الريف في شمال المغرب التي كانت تحتلها إسبانيا فبنى لهم هذا المسجد في عام ١٩٣٨ في وسط حديقة مهمة من حدائق قرطبة اسمها (حديقة كولون) الذي هو كريستوفر كولومبس كما تقدم.

وعندما انتهت حاجة إسبانيا إلى الجنود المغاربة في عام ١٩٤٠م وعادوا إلى بلادهم أغلق هذا المسجد، لأنه لم يكن يوجد مسلمون يحتاجون إلى الصلاة فيه، وربما أنه إذا كان يوجد مسلمون فيها و هذا مستبعد كما أخبرنا بعض الخبراء من أهل قرطبة، فإنهم يكونون على حالة من عدم فهم الدين، وبالتالي من عدم السعي إلى ممارسة شعائره.

وقد أغلق هذا المسجد منذ عام ١٩٤٠م وبقي حتى عام ١٩٨٦م، حيث وجد مسلمون مغاربة ومن أقطار إفريقية.

وينبغي أن يلاحظ هنا أن إسبانيا لم تكن لها مستعمرات جنوب الصحراء الكبرى في إفريقية إلاّ (غينيا) الاستوائية الإسبانية التي ظل هذا اسمها هكذا مع حذف كلمة الإسبانية بعد استقلالها، وقد زرت تلك البلاد وكتبت عنها كتابة مطولة في كتاب: (من غينيا الاستوائية إلى ساوتومي).

وإسبانيا بخلاف البرتغال التي لها مستعمرات عديدة في إفريقية بعضها كبير مثل انقولا وموزنبيق وبعضها صغير مثل (الرأس الأخضر) التي هي جزر تقع في المحيط الأطلسي بحذاء مدينة داكار عاصمة السنغال، وقدكتبت عنها فصلاً في كتاب: (من أنقولا إلى الرأس الأخضر) وهو كتاب مطبوع.

وفي عام ١٩٨٦م وقد كثر وجود المسلمين في قرطبة نسبياً استردوا هذا المسجد الذي اعتبر من الناحية القانونية عندهم ملكاً لبلدية قرطبة لأنه كان بمثابة المسجد الموقت في الأصل واقتتطع من حديقة للبلدية، فأعادته البلدية إلى المسلمين أو على الأدق أعادت الإذن لهم بالصلاة فيه مع إبقاء حق ملكيته لها مع

أن المساجد لا تملك، ولكنهم يزعمون أنه لم يكن مسجداً اشتراه المسلمون مثلاً أو وهبت أرضه لهم من جهة تملك ذلك فأقاموه فوقها.

المؤلف عند الباب الخارجي لمسجد المرابط

وهذا بطبيعة الحال حسب مفهومهم القانوني، وإلا فإن المسجد إذا اتخذ مكاناً للصلاة معيناً لذلك، وكان اتخاذه بإذن ممن يملك أرضه سواء أكان فرداً أو جماعة فإنه يصير بمثابة الوقف الذي لا يجوز تغييره ولا إلغاؤه بنقله إلى مكان

آخر إلا إذا تعطلت مصالحه ومن الموسف أن بلدية قرطبة تتقاضى إيجاراً لهذا المسجد من الجمعية الإسلامية المشرفة عليه.

وقد صار تابعاً من ناحية الإدارة والإشراف عليه إلى المركز الإسلامي في مدريد حتى تم تأليف الجمعية الإسلامية في قرطبة عام ١٩٩١م فصار تابعاً لها ولكن المركز الإسلامي يقدم له بعض المساعدة.

أول مسجد نصلي فيه في قرطبة.

كان يرافقنا في زيارة (مسجد المرابط) الأخ الذي استقبلنا أول الأمر وهو مخلف كمال، وهو رئيس الجمعية الإسلامية التي تشرف على هذا المسجد قال لنا: نحن أول مسجد يصلى فيه في قرطبة منذ سقوط الحكم العربي والمراد بذلك هذا المسجد الذي ذكرناه الذي أغلق لسنوات طويلة لعدم وجود جمعية إسلامية مرخص لها تطالب بإفتتاحه وإقامة الصلوات فيه، إلا أنه استدرك فذكر أنه لا يوجد إمام لهذا المسجد قال: ولذلك أقوم أنا بإمامة المصلين فيه، ولو كان له إمام متفرغ عارف بأمور الدين لنفع ا لمسلمين وبخاصة تعليم أولادهم، والحاجة لوجود إمام متفرغ يفتح المسجد لكل فرض من فروض الصلاة.

وقلت له: إنه ينبغي لكم وأنتم جمعية إسلامية مسجلة في سجلات الحكومة أن تتقدموا لبلدية قرطبة تطلبون منها أن تسجل المسجد باسمكم بمعنى أن تمنحه الجمعية التي هي ذات شخصية اعتبارية، وألزم ما يلزم لذلك أن توكلوا محامياً قديراً يستطيع أن يخاطب البلدية بمفهوم قانوني فأنتم تمثلون المسلمين والمسلمون ما بين مواطن إسباني بالتبعية الجنسية وبين أجنبي يتمتع بإقامة نظامية تخوله ممارسة ما يمارسه المواطنون الآخرون أي أنكم لستم جهة أجنبية.

فقال الأخ مخلف كمال: إننا نخشى أن ننبههم فيغلقوه، ويسحبوا منا الإذن باستعماله ونحن لا نجد غيره لاسيما أنه في وسط هذه الحديقة المهمة من حدائق البلدية.

وتبين أن المسلمين هنا لضعفهم يخشون من أي شيء ينبه الإسبان إلى وجودهم مع أن وجودهم قانوني لا غبار عليه.

ومع أن هذا المسجد صغير ضيق المساحة فمجموع مساحته هي ٧٥ متراً أي ما يعادل مساحة شقة صغيرة.

وهو فاخر المظهر حيث إنه منقوش بالفسيفساء الأندلسية الزرقاء الجميلة ومعتنى به، وواقع وسط حديقة كولون الملتفة النظيفة وتركب المسجد قبة من دون عمد ظاهرة لأنها تعتمد على الحيطان أو على عمد فيها، وذلك لصغر مساحة المسجد.

وتتبعه غرفة صغيرة لتدريس الأطفال مبادئ الدين الإسلامي والحروف العربية، وكذلك تحضر بعض النساء لسماع الدروس أو المحاضرات التثقيفية الدينية فيها.

وقد كتبوا على مدخل المسجد بالعربية الآية القرآنية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى).

المسلمون في قرطبة:

شارع عام في قرطبة الحديثة

قال لنا الأخ مَخْلف كمال: إن عدد المسلمين في قرطبة بلغ ألفي شخص وهذا عدد طيب لو أسهم كل أعضائه في العمل الإسلامي.

وذكر الأخ الإمام مخلف: أن عدد أعضاء الجمعية الإسلامية المسجلين رسمياً هو ٥٥ عضواً وهذا أيضاً عدد جيد ينبغي حثهم على زيادة العمل الإسلامي بالمال والجهد لأنهم محتاجون لذلك.

وقد أخبرنا أن عدد الذين يصلون الجمعة في هذا المسجد نحو ٦٠ فقلت له: إنني أرى المسجد لا يتسع لهذا العدد، فقال: إنه يتسع لهم لأنهم يتراصون ويعرفون ضيق المكان، وقال: يصلي الجمعة معنا من المسلمين الجدد من

الإسبان ٧ كل جمعة وقبل أسبوع واحد أسلم أحد الإسبان وانضم إلى الجمعية، وذكروا أنهم يجمعون من الأعضاء مبلغاً من المال ينفقونه على المصاريف المتكررة مثل الكهرباء والماء والتدفئة.

وقد صلينا فيه صلاتي المغرب والعشاء جمعاً وفي صلاة المغرب لم يصل معنا إلاّ شخصاً واحداً مع الأخ الإمام مخلف، وبعد الصلاة حضر شخص آخر مغربي فتوضأ من مكان واحد للوضوء ضيق، وصلى المغرب منفرداً لأنه تأخر عنا.

والغريب أن هذا الرجل يبين نور الإسلام على وجهه وهو مغربي بخلاف الإمام مخلف الذي هو جزائري ليس من أعضاء الجمعية الإسلامية فأعضاء الجمعية الإسلامية لم يصل معنا المغرب منهم أحد، رغم وقوع المسجد في وسط المدينة، مما يفترض معه أن يكون مكانه قريباً من بعض المسلمين أو سهل عليهم الحضور إليه.

ولا يوجد مصلى أو مسجد آخر في قرطبة إلاّ مسجد واحد عرف بمسجد الأندلسيين وهم المسلمون الإسبان من أصول عربية أو ممن اعتنقوا الدين الإسلامي، وقد ا شتروه وصار يصلي فيه بعض الموظفين الطلبة من معهد كان يسمى (جامعة ابن رشد) التي يفترض أنها تقوم على التبرعات ولكنها عجزت عن ايجاد رواتب للمنتسبين فيها، وقام جماعة المسلمين الأندلسيين يريدون أن ينقذوا هذا المسجد الذي هو شقة مملوكة لهم فتخاصموا مع المسئول عن جمعية جامع ابن رشد فتوقفت الصلاة فيه ولا يزال كذلك.

وكان أنشاؤه قبل إنشاء مسجد الرابط هذا وقد امضينا في المسجد وقتاً بعد صلاة المغرب دفعنا خلاله للقائمين عليه ألف دولار أمريكية مساعدة على النفقات المتكررة له.

ثم غادرناه مع سيارة أجرة إلى مطعم باكستاني يقدم اللحم الحلال لأنه يذبح بنفسه وأخترقنا شوارع عديدة من شوارع قرطبة وهي شوارع معتادة وليس فيها ما يستجلي السائح منظره أو يسترعي انتباهه لأن مثلها موجود في بلدة من بلدان أقرب إلى بلادنا قرطبة.

والغريب إنني لم ألاحظ أية مسحة عربية أندلسية على البيوت، بل ليس عليها أية مسحة من جمال بل هي معتادة إلا أنها نتسم بالسعة والنظافة وأرصفتها واسعة معتنى ببلاطها ، ولا تجد فيها ما يحتاج إلى إصلاح لأنها صالحة كلها.

وقد بحثت عن أبنية ذات طراز إسباني عريق فلم أجد، وربما كان مرجع ذلك إلى كوني لم أتجول في مدينة قرطبة كلها وإنما تكلمت على ما رأيته فيها.

لم نجد في المطعم الباكستاني ما اشتهيناه من طعام وإنما فيه الكباب والخبز والماء المعدني فأكلنا من ذلك ما كفانا ولله الحمد.

وبعد أن فرغنا منه أردنا الرجوع إلى فندقنا (فندق الأمويين) بجانب جامع قرطبة فطلب لنا سيارة أجرة (تاكسي) بالهاتف فوعدوه وأخلفوه ولم يمر بنا أي (تاكسي) فارغ فاضطررنا للسير على أقدامنا مدة نصف ساعة.

عودة إلى المدينة القديمة:

المؤلف في زقاق ضيق في قرطبة القديمة

وصلنا إلى مدينة قرطبة القديمة التي لا تبعد كثيراً عن المسجد الجامع، وكل أزقتها وشوارعها مبلطة بالحجارة ولكنها كلها قصيرة غير مستقيمة ما عدا رصيف الشارع الذي يكون ضيقاً أملس الصفحة في العادة لأنه مرصوف حديثاً.

وقد دخلنا المدينة القديمة من باب المدوَّر الذي كنا خرجنا منه قبل ذلك وهو إحدى بوابات السور القديم فسلكنا (شارع المنصور بن أبي عامر) ولو لم يكن لنا من رغبة في السير إلا كونه قد سمي على اسم هذا البطل الإسلامي المغوار لذهبنا إليه أو ربما ترددنا فيه للسير في موقعه من هذه المدينة العربية التاريخية، وإلا لوكنا نظرنا إلى شارع المنصور بن أبي عامر نظرة مجردة لقلنا إنه غير لائق بذلك الشخص العظيم لأنه ضيق غير مستقيم.

شارع المنصور بن أبي عامر في قرطبة القديمة

غير أنه على ضيقه هو أنفس من كل شوارع قرطبة الحديثة وليس ذلك عندنا نحن العرب المسلمين المتأخرين وإنما حتى عند السياح الغربيين والمشرقيين الذين يرون في بلادهم مثل شوارع قرطبة الحديثة أو أحسن منها

كما قدمت، ولكنهم لا يجدون فيها مثل شارع المنصور بن أبي عامر هذا الـذي يعبق بالتاريخ، وهو إلى ذلك نظيف- رغم ضيقه- وعدم استقامته.

قول قديم في جامع قرطبة:

قال الشريف الإدريسي من أهل القرن السادس الهجري، في نزهة المشتاق:

ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس وأم مـدنها ودار الخلافـة الإسـلامية وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تذكر ومناقبها أظهر مـن أن تسـتر وإلـيهم الانتهاء في السناء و البهاء بل هم أعلام البلاد وأعيان العبـاد ذكـروا بصـحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمـة فـي المجالس والمراتب وجميل التخصيص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق.

ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء وتجارها مياسـير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة ولهم مراكب سنية وهمم علية، وهي في ذاتهـا مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ليس بين المدينة والمدينة سور حاجز وفـي كـل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات وطولها مـن غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد وهي في سفل جبل مطل عليها يسمى جبل العروس ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب ا لقنطرة وفيها المسجد الجامع الذي لـيس بمسـاجد المسلمين مثله بنية وتنميقاً وطولاً وعرضاً.

وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة وعرضه ثمانون باعاً ونصفه مسقف ونصفه صحن للهواء وعدد قسي مسقفه تسع عشرة قوساً وفيه من السواري أعني سواري مسقفة بين أعمدته وسواري قبلته صغاراً وكباراً مع سواري القبلة الكبيرة وما فيها ألف سارية.

وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح وأقلها تحمل اثني عشر مصباحاً وسقفه كله سموات خشب مسمرة في جوائز سقفه.

وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشي ارتفاع خد الجائزة منه شبر وافر في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع في طول كل جائزة منها سبعة وثلاثون شبراً وبين الجائزة.

والجائزة غلظ جائزة والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطحة فيها ضروب الصنع المنشاة من الضروب المسدسة والموربي وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن لا يشبه بعضها بعضاً بل كل سماء [1] منها مكثف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بألوان الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيذاجي والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكحيل النقسي، تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها.

وسعة كل بلاط من بلاطات مسقفه ثلاثة وثلاثون شبراً وبين العمود والعمود خمسة عشر شبراً ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي [2] غريبة فوقها قسي آخر على عمد من الحجر المنجور متقنة وقد جصص الكل منها بالجس والجيار وزينت عليها

---

(١) يريد بالسماء هنا: السقف وبالسموات السابقة: السقوف.

(٢) قسي: جمع قوس الذي هو كالهلال، وهو العقد في البناء في اصطلاحنا اللغوي.

بحور مستديرة ناتية بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن.

ولهذا المسجد الجامع قبلة[1] تعجز الواصفين أوصافها وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها وكل ذلك من الفصفص المذهب والملون مما بعث به صاحب القسطنطينة العظمى إلى عبدالرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموي، وعلى هذا الوجه أعني وجه المحراب سبع قسي قائمة على عمد وطول كل قوس منها أشف من قامة، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ووضعها وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفص المذهب في أرض الزجاج اللازوردي وكذلك تحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفص المذهب في أرض اللازورد من الفص الملون.

وعلى و جه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش وفي عضادتي المحراب أربعة أعمدة اثنان أخضران واثنان زرزوريان لا تقوم بمال، وعلى رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدة مشوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان وعلى المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة.

ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة، خشبه أبنوس وبقس وعود المجمر ويحكى في كتب تواريخ بني أمية أنه صنع في نجارته ونقشه سبع سنين وكان عدد صناعه ستة رجال غير من يخدمهم تصرفاً ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي.

---

(١) القبلة: هنا المحراب وما بجانبه.

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد و طسوت ذهب وفضة وحسك وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبعة وعشرين من رمضان المعظم، ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربعة أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه وفيه نقط من دمه وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد وأمامه رجل ثالث بشمعة وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي منه إلى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل وفي هذا الساباط ثمانية أبواب منها أربعة تنغلق من جهة القصر وأربعة تنغلق من جهة الجامع.

ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس وفي كل باب منها حلقتان في نهاية من الاتقان وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك أنواع شتى وأجناس مختلفة من الصناعات والترييش وصدور البزاة وفيما استدار بالجامع في أعلاه لتمدد الضوء ودخوله إلى المسقف متكآت رخام طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة أربعة أشبار في غلظ أربعة أصابع وكلها صنع مسدسة ومثمنة مخرمة منفردة لا يشبه بعضها بعضاً.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة[1] الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي منها

(١) الصومعة: المنارة، وهذه المنارة هي الشمالية، وهي التي سبق ذكرها بأن المتعصبين الإسبان الأوائل ستروها ببناء حولها ليظهروها بمظهر برج الكنيسة.

ثمانون ذراعاً إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعاً.

ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى منها ووجه هذه الصومعة كله مبطن بالكذان[1] اللكي منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مقسمة تحتوي على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد الرخام الحسن والذي في الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ثلاث مائة عمود بين صغير وكبير.

وفي أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه كل ليلة مؤذنان[2] وللصومعة ستة عشر موذناً يؤذنون فيها بالدولة[3] لكل يوم مؤذنان على توال.

وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهب واثنتان من فضة وأوراق سوسنية تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستون رطلاً زيتاً ويخدم الجامع كله ستون رجلاً وعليهم قائم ينظر في أمورهم وهذا الجامع متى سها إمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام بل يسجد بعد السلام.

ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتن وغيرها حلول المصائب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير ولا بلد أكبر اسماً منها في بلاد الأندلس.

---

(١) الكذان يسمى الآن بلغتنا العامية الكثان، وهو حجارة رخوة من نوع الحجارة الطباشيرية.
(٢) البيت باصطلاحهم هو الغرفة الكبيرة.
(٣) أي التداول وهو التناوب.

ولقرطبة القنطرة[1] التي علت القناطر فخراً في بنائها واتقانها وعدد قسيها سبع عشرة شبراً واسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبراً ولها ستائر[2] من كل جهة تستر القامة وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ثلاثون ذراعاً وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى نحو حلوقها.

وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الخاشنة من الرخام وعلى هذا السد ثلاث بيوت أرحاء[3] في كل بيت منها أربع مطاحن.

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها خبراً.

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء خمسة أميال وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم وهم قليلون وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى يوازي على الجزء الأوسط وسطح الثلث الأوسط يوازي على الثلث الأسفل وكل ثلث منها له سور فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها والجزء الأوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار[4] والجامع وهي الآن خراب في حال الذهاب.

ومن مدينة قرطبة إلى المرية ثمانية أيام ومن قرطبة إلى إشبيلية ثمانون ميلاً ومن قرطبة إلى مالقة مائة ميل ومن قرطبة إلى طليطلة تسع مراحل فمن أرادها سار من قرطبة في جهة الشمال إلى عقبة ارلش أحد عشر ميلاً ومنها إلى دار البقر ستة أميال ثم

---

(١) القنطرة: الجسر على النهر.
(٢) ستائر يعني الحيطان.
(٣) الأرحاء: جمع رحا وهي التي يطحن به القمح ليكون دقيقاً.
(٤) الديار هنا الدور: جمع دار.

إلى بطروش أربعون ميلاً وحصن بطروش حسن كثير العمارة شامخ الحضـــانة لأهلـــه جلادة و حزم على مكافحة أعدائهم ويحيط بجبالهم وسهولهم شجر البلوط الذي فاق طعمه طعم كل بلوط على وجه الأرض وذلك أن أهل هذا الحصن لهم اهتمام بحفظه وخدمتـــه لأنه لهم غلة وغياث في سني الشدة والمجاعة.

ومن حصن بطروش إلى حصن غافق سبعة أميال وحصن غـــافق حســـن حصين ومعقل جليل وفي أهله نجدة وعزم وجلادة وحزم وكثيراً ما تسري إليهم سرايا الروم فيكتفون بهم في إخراجهم عن أرضهم وإنقاذ غنائمهم منهم والـــروم يعلمون بأسهم وبسالتهم فينافرون أرضهم ويتحامون عنهم ومن قلعة غافق إلـــى جبل غافور مرحلة ثم إلى دار البقر مرحلة ثم إلى قلعة رباح وهي مدينة حسنة، وقد سبق ذكرها وكذلك الطريق من قرطبة إلى بطليوس.

إنتهى كلام الإدريسي.

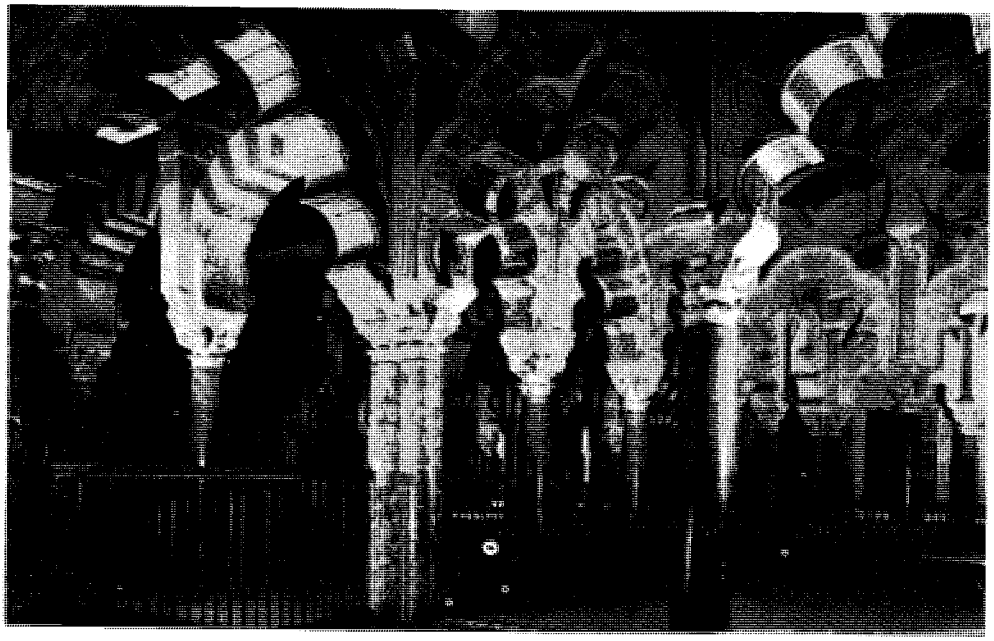

جانب من جامع قرطبة العظيم

وقال الحميري صاحب الروض المعطار:

قرطبة[1]: قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، واشتهروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي وعلو الهمة وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجارها مياسير وأحوالهم واسعة، وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور حاجز، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات، وطولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد، وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس، ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة.

وبها الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبَر مساحة وإحكام صنعة وجمال هيئة واتقان بنية، تهمم به الخلفاء المروانيون فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الاتقان، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تتميقاً وطولاً وعرضاً، طوله مائة باع وثمانون باعاً ونصفه مسقف، ونصفه صحن بلا سقف.

وعدد قسي مسقّفه أربعة عشر قوساً، وسواري مسقفه بين أعمدته وسواري قبيه صغاراً وكباراً مع سواري القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثني عشر مصباحاً.

---

(١) بروفنال: ١٥٣، والترجمة: ١٨٢ (Cordoba)، والنص من أول المادة حتى قوله: (فهذا ما حكاه محمد بن محمد بن إدريس) منقول في مجمله عن الإدريسي (د): ٢٠٨- ٢١٢.

إلى أن قال:

ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول، تنميقها، وفيها من الفسيفساء المذهب والبلور، مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبدالرحمن الناصر لدين الله.

ثم نقل الحميري معظم ما ذكره المقدسي عنه، بدون أن يصرح باسمه.

إلى أن قال:

وقرطبة على نهر عظيم عليه قنطرة عظيمة من أجل البنيان قدراً وأعظمه خطراً، وهي من الجامع في قبلته، و بالقرب منه، فانتظم بها الشكل، قالوا: وبأمر عمر بن عبدالعزيز قام على نهر قرطبة الجسر الأعظم الذي لا يعرف في الدنيا مثله، وحوّل الأندلس من عمل إفريقية وجرّد لها عاملاً من قبله، ووقعت المغانم فيها عن أمره.

وذكر أن تفسير قرطبة بلسان القوط- قرظبة بالظاء المعجمة- ومعنى ذلك بلسانهم: القلوب المختلفة، وقيل إن معنى قرظبة آخر (فاسكنها) ودور مدينة قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع، وبها من الأبواب باب القنطرة وهو بقبليها ومنه يعبر النهر على القنطرة، والباب الجديد وهو بشرقيها، وباب السّور بجوفيها، وباب عامر وهو بين الغربي متصل بسورها القبلي والغربي، وجامعها بازاء القصر من جهة الشرق، وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المحجة التي بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة.

وكان طول مسقف البلاطات من المسجد الجامع- وذلك من القبلة إلى الجوف، قبل الزيادة- مائتين وخمسة وعشرين ذراعاً، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل

الزيادة مائة ذراع وخمسة أذرع، ثم زاد الحكم[1] في طوله في القبلة مائة ذراع وخمسة أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً، وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً، فتم العرض مائتين وثلاثين ذراعاً، وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً، (عرض) أوسطها ست عشرة ذراعاً، وعرض كل واحد من اللذين يليانه شرقاً (واللذين يليانه غرباً) أربعة عشر ذراعاً، وعرض كل واحدة من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً، وزاد محمد بن أبي عامر فيها ثمانية عشر عرض كل واحدة عشر أذرع، وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة وثمان و عشرون ذراعاً، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة واحدة وخمس أذرع، وعرض السقائف المستديرة بصحنه عشر أذرع، فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً.

وعدد أبوابه تسعة: منها ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً، وأربعة في بلاطاته: اثنان غربيان واثنان شرقيان، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان، وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمودوثلاثة وتسعون عموداً أساطين رخام كلها.

وقباب مقصورة الجامع مذهبة، وكذلك جدران المحراب وما يليه قد أجري فيه الذهب والفسيفساء، وشرفات المقصورة فضة محضة، وارتفاع الصومعة اليوم- وهي من بناء عبدالرحمن بن محمد- ثلاث وسبعون ذراعاً إلى أصل القبة المفتحة التي يستدير بها المؤذنان، وفي رأس هذه القبة تفاح ذهب وفضة، وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعاً، وطول كل حائط من حيطانها

---

(١) الخليفة الأموي.

على الأرض ثمان عشرة ذراعاً، وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصي وضبط أربعمائة وواحد وتسعون مسجداً.

وأحواز قرطبة تنتهي في الغرب إلى أحواز إشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلاً، وتختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان، وعلى الجملة فقد كانت أم البلاد وواسطة عقد الأندلس، وحَوَتْ من الأكابر من أهل الدنيا والآخرة من الملوك والعلماء والصالحين والمفتين وغيرهم خلقاً، ومتعوا فيها ما أراد الله عزّ وجلّ، وذلك حين كان جدها صاعداً.

وبعد ذلك طحنتها النوائب واعتورتها المصائب، وتوالت عليها الشدائد والأحداث فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها وضخامة حالها، وقنطرتها التي لا نظر لها، وعدد أقواسها تسع عشرة قوساً، بين القوس والقوس خمسون شبراً، ولها ستائر من اكل جهة تستر القامة، وارتفاعها من موضع المشي إلى وجه الماء، في أيام جفوف الماء وقلته، ثلاثون ذراعاً، وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام، وعلى السد ثلاث بيوت أرحاء، في كل بيت أربع مطاحن.

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يُحاط بها.

فلما عثر جدّها وخوى نجمها وضعف أمر الإسلام واختلت بالجزيرة كلمته تغلب عليها النصارى وذلك في أواخر شوال من سنة ثلاث وثلاثين وستمائة[1].

إنتهى كلام الحميري.

---

(١) الروض المعطار، ص٤٥٦- ٤٥٨.

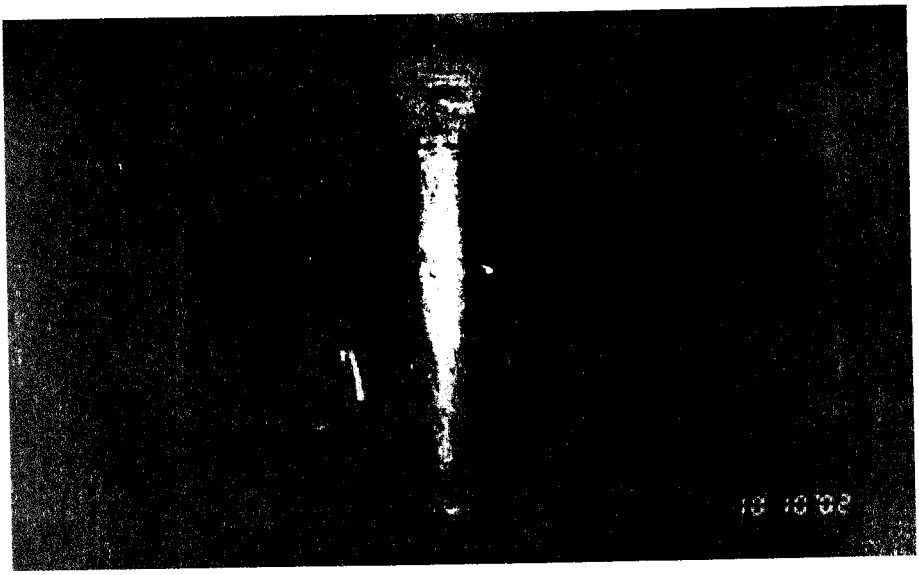

المؤلف في الضوء الخافت عند إحدى الإسطوانات المرمرية في مسجد قرطبة

وقد زار الوزير محمد بن عثمان المكناسي الذي وصل إلى إسبانيا موفداً لملكها من ملك المغرب محمد بن عبدالله في سفارة تحاول فكاك أسرى المسلمين عند الإسبان.

وقد زار ابن عثمان قرطبة فيما زاره من بلاد الأندلس وتكلم على جامع قرطبة وكان ابتداء رحلته إلى إسبانيا في العشرين من شوال عام ١١٩٣هـ أي قبل زيارتنا هذه بـ ٢٣٠ سنة.

وسجل مشاهداته في كتاب نفيس أسماه (الإكسير في فكاك الأسير) طبع الكتاب في الرباط عاصمة المملكة المغربية بتحقيق صديقنا الأستاذ الشيخ محمد الفاسي رحمه الله الذي زين الكتاب بتعليقات نفيسة اثبتنا بعضه هنا قال الوزير محمد بن عثمان المكناسي:

مدينة قرطبة أعادها الله دار إسلام:

ووصلنا قرطبة على خمس ساعات من المدشر المذكور وتلقانا أهلها بظاهرها نساء ورجالاً إلى أن وصلنا المدينة فإذا ببابها الوادي الكبير المار بإشبيلية وعليه قنطرة من عمل النصارى في غاية الإتقان، لها ستة عشر قوساً، وقد كانت قبل قنطرة المسلمين رحمهم الله فهدها السيل وبنى النصارى على أساسها القنطرة الموجودة، وفي الوادي المذكور فلائك متعددات يعبر فيها أهل البلد لأن المدينة امتدت مع الوادي والقنطرة قريبة من طرفها الغربي فيبعد على من هو ساكن بطرفها الشرقي أن يأتي إلى القنطرة ليعبر عليها فجعلت الفلائك بسبب ذلك.

وهذه المدينة مدينة كبيرة حاضرة من الحواضر العظام وهي دار ملك قديم للمسلمين رحمهم الله وأثر القدم لائح عليها، و لا زالت حيطانها وأزقتها ضيقة على الحالة التي تركها المسلمون عليها رحمهم الله تعالى.

ولما وصلنا الدار المعدة لنزولنا وجدنا ببابها من الخلائق ما لا يعد ولا يحصى ولم يبق صاحب لهو ولا طرب إلاّ وحضر بالباب المذكور ومعهم جميع الأعيان الذين ثقلوا عن الخروج للملاقاة.

وحين أشرفنا عليهم ضجوا ضجيجاً عظيماً بذكر سيدنا ومولانا[1] وأزال كل واحد شمريره[2] عن رأسه وأظهروا من بشاشتهم وفرحهم ما لم ينسبوا معه إلى تقصير، وقد اعتدُّوا في الدار التي نزلنا بها غاية الاستعداد بكثرة الفرش والبسط والأواني الفضية على مقتضى عوائدهم.

---

(١) يعني ملك المغرب.

(٢) الشمرير هو القبعة وأصله من الإسباني (Sombrero).

وورد علينا قائد العسكر بنحو خمسين من الشلظاظ بعلمهم وطبولهم وأوقفهم في الباب و دخل فسلم علينا وورد بعده كبير البلد الذي بيده الدخل فسلم ورحب وقال إن عظيمه[1] امره، أن يكون عند أمرنا ونهينا مدة مقامنا وأن ينفذ كلما نأمره به فأجبناه بأننا لا نحتاج إلى شيء وإن الله تعالى قد أغنانا بسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ولا أرب لنا إلا في رؤية المسجد الجامع، فقال: حباً وكرامة وغداً نتوجه إليه فأصبحنا مقيمين لأجل رؤيته.

ولما قرب الزوال وقد كانوا أعلموا الراهب القيم بأمره وغيره في الفرائلية[2]، فتوجهت إلى المسجد فما وصلنا إليه إلا بمشقة عظيمة من كثرة الازدحام، وحين دخلناه وجدنا به من النساء والرجال أكثر مما بخارجه، ومشينا في ازدحام كثير لا يكاد الإنسان يبصر أين يضع قدمه، فما وصلنا إلى المحراب إلا بتعب كثير فما أمكنني مع أولئك القوم رؤية ولا غيرها وما كنا نفكر إلا كيف يكون السبيل إلى خروجنا فجعل الحاكم وأصحاب شرطته يبعدون النصارى عنا يميناً وشمالاً ليجعلوا لنا مسلكاً للخروج، وحيث لم تمكننا رؤية المسجد في ذلك اليوم مع كثرة الازدحام خرجنا منه بمشقة عظيمة.

وقال لنا الفرائلي القيم عليه غداً ايتنا ونغلق الباب، ولا يدخل أحد غيرك فأقمنا يوماً آخر فورد علينا الفرائلي وقال إن النصارى دمرهم الله عندهم في هذا اليوم عيد، وقد كنت أظن أن يجعلوه في كنيسة أخرى فما شعرت إلا وقد دخلوا المسجد، وأظهر من النكد ما ظهر أثره عليه فاتفق رأي الفرائلية على أن نأتي المسجد ليلاً.

---

(١) عظيمه يعني ملكه وهو ملك إسبانيا في ذلك الوقت.

(٢) الفرائلية جمع عربي للفظة فرايلي الإسبانية (Fraile) ومعناها الراهب المنتسب إلى طريقة خاصة من جماعات الرهبان الذين يسكنون الأديرة.

وبعد العشاء من تلك الليلة توجهنا إلى المسجد المذكور فوجدنا العسكر ببابه يمنع النصارى من الدخول إليه، ودخلنا المسجد وقد أوقدوا به من الشمع ما لا يعد كثرة فإذا هو من أعظم مساجد الدنيا واسع الفناء ضخم البناء، دلت مبانيه على عظم بانيه رحمهم الله تعالى فتقدمنا أولاً إلى المحراب فإذا هو أبدع من كل مبتدع وأبهى من كل مستنبط ومخترع، وهو كله من الرخام الأبيض في داخله سبع صفائح من الرخام في طول قامة وعرض ستة أشبار ونصف في الواحدة، ومن فوق الصفائح المذكورة ما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين)، أمر الإمام المستنصر بالله عبدالله الحكم[1] أمير المؤمنين أصلحه الله بتشييد هذا المحراب بكسوته بالرخام رغبة في جزيل الثواب وكريم المثاب فتم على يد مولانا وحاجبه[2] جعفر بن عبدالرحمن رضي الله عنه بنظر محمد بن أحمد بن نصر وخالد بن هشام أصحاب شرطته[3] ومطرف بن عبدالرحمن الكاتب[4] في شهر ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة[5]، **(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور)**، ومن فوق ذلك مكتوب ما نصه (بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فأغسلوا وجوهكم... إلى تشكرون).

---

(١) هو الخليفة الأموي الحاكم الثاني بن عبدالرحمن الثالث حكم من سنة ٣٥٠ (٩٦١م) إلى ٣٦٥ (٩٧٦م).

(٢) كانت الحجابة في نظام الدولة الأموية بالأندلس كرئاسة الحكومة في وقتنا، والحاجب كان له المقام الأول في الدولة.

(٣) كان صاحب الشرطة عند الأمويين مقام ممتاز كذلك وكان كالوزير.

(٤) الكاتب في اصطلاح الأندلسيين والمغاربة قديماً هو الوزير الذي يشرف على إصدار الأوامر المكتوبة والإطلاع على المكاتبات وعرضها على الخليفة وعلى حاجبه.

(٥) شهر ذي الحجة سنة ٣٥٤ وافق ٢٨ نومبر – ١٧ دجنبر سنة ٩٦٥ ميلادية، وهذه كلها من الناشر المغربي.

ومن فوق ذلك: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلى وأنتم مسلمون...إلى تهتدون).

وهذه الكتابة كلها مرسومة في الرخام وقبة المحراب من رخامة واحدة في غاية الإغراب واللطافة، وقد أغلقوا خمسة أقواس أمام المحراب وحصنوا بها المحراب مثل آفراق[1] الذي يصنع ببلادنا قوسان من الخمسة المذكورة أغلقوهما بالبنايات وثلاثة أقواس التي بالوسط جعلوا لها شبابيك من الحديد وفي أحد الشبابيك باب يفتح ويدخل منه إلى المحراب وعلى البرج الذي بين المحراب وشبابيك الحديد قبة في غاية الغرابة سقفها قبة من الحجر في صنعة لطيفة وتحتها مكتوب بذوب الذهب في غاية الشراقة ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا.. إلى قوله تعالى ليكون الرسول شهيداً عليكم).

فخرجنا من المحراب وطفنا بالمسجد، فأخذنا في عد سواريه فأتعبنا ذلك تعباً شديداً لأن النصارى دمرهم الله أحدثوا بيوتاً عديدة وكنائس كثيرة لضلالاتهم وكفرياتهم طهر الله منهم البلاد مقتطعة من المسجد فكنا نبتديء الحساب من رأس المسجد فتلقانا إحدى الكنائس فنعد من ناحيتها الأخرى فتلقانا كنيسة أخرى فيقع لنا الغلط، فلما رآنا الفرائلي القيم على المسجد المذكور أنه لحقنا من ذلك تعب كثير أخرج دفتراً من إحدى كنائسه وأملى علينا تكسير المسجد المذكور كما هو محقق عنده فذكر أن عرضه نعني من المحراب إلى الباب الذي يخرج منه إلى الممر

---

(١) آفراق بالمد في أوله والقاف المعقودة في آخره واصل استعماله الاول لحاجز من قماش تحاط به سرادقات الملوك عند نزولهم مدة السفر، ثم استعير للمقصورة التي تحيط بالمحراب والمنبر في المساجد التي يصلي فيها الخلفاء والكلمة بربرية أصلها عربي من فرق.

وهو الباب الذي حذاء الصومعة مائتان واثنتان من البارات[١] بحساب النصارى في في كل بارة ثلاثة أقدام واختبرتها فإذا هي كذلك منها مائة وإحدى وثلاثون بارة من المحراب إلى العنزة[٢]، ومنها إحدى وسبعون بارة هو الصحن من العنزة إلى باب المسجد، وطوله من الجدار الذي عن يمين المستقبل إلى الجدار الذي عن يساره مائتان وستون بارة في كل بارة ثلاثة أقدام.

وعدد سواري المسجد سبعمائة واحدى وثلاثون سارية[٣] على كل ساريتين قوسان قوس فوق قوس كلها من الرخام الأسود والأبيض والأصفر ومن سواري البنيان اثنان وأربعون أحدثها النصارى لعلة إصلاح وعدد الأقواس التي في عرض المسجد عن يمين المستقبل إلى يساره تسعة وعشرون.

وقد اقتطع الكفار دمرهم الله من المسجد المذكور ستة وخمسين بيتاً في ذائرته وثمانية عشر بيتاً أخرى في كل واحد طبلة[٤] مفرقة في وسط المسجد أعدوها لكفرهم وضلالاتهم ومخازن لوضع صلبانهم الذهبية والفضية والذخائر الجوهرية من الأواني المرصعة باليواقيت على اختلاف ألوانها وأنواعها.

---

(١) البارة تساوي ٦٧ سنتيميتراً وهي بالإسبانية (Vara) وعليه فطول المسجد ١٧٥ ميتراً وعرضه ١٣٥ وهذه هي مقاييس ميجد قرطبة إلى الآن بالضبط مما يدل على دقة ابن عثمان في تحقيقاته وإطلاعه العميق على المصطلحات الإسبانية، وكل شؤون إسبانيا الحضارية.

(٢) العنزة في الأصل نوع عكاز أطول من العصا وأقصر من الرمح وله زج من أسفل وإذا أراد صاحب عنزة أن يصلي في الفضاء يركزها في الأرض أمامه حتى لايتخطاه أحد، لذلك أطلقت لفظة العنزة على خشبة عريضة شيئاً ما وطولها نحو القامة ولها قاعدة من الخشب غليظ وتوضع في المساجد أمام الإمام إذا صلى صيفاً في صحن المسجد فعندها ينتهي مسقف المسجد لذلك قال المؤلف: من المحراب إلى العنزة.

(٣) هذا العدد أقل من الواقع حيث أن مؤلف دليل إسبانيا بديكر الشهير يقول يقدر عدد أعمدة مسجد قرطبة بستين وثمانمائة ص ٣٧٥ من طبعة سنة ١٩٢٠، ويقول مؤلف الدليل الأزرق إن عدد أعمدة مسجد قرطبة خمسون وثمانمائة تقريباً ص ٦٧٤، من طبعة سنة ١٩٥٢.

(٤) الطبلة لفظة دخيلة يراد بها مائدة عالية يؤكل عليها أو يكتب عليها وتسمى منضدة، وهنا يقصد بها ما يسميه المسيحيون مذبحاً أي الموضع الذي يقيب به الكهنة القداس.

وقد أدخلني الفرائلي قيم المسجد المذكور إلى جميع كنائسه وموضع كفرياته وأرانا جميع ما عنده من الصلبان والصور والتماثيل التي هم لها عاكفون قبحهم الله وطهر منهم ذلك المسجد وعمره بذكره فالتفت في إحدى الكنائس فنظرت الصليب عليه صورة نبي الله عيسى عليه السلام في زعمهم الفاسد دمرهم الله فلم أملك نفسي أن قلت له هـذا محـض كذب وافتراء لم يقع بنبي الله شيء من هذه المثلة بل منعه الله تعالى منهم ورفعه إليه وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

فأخذ في الجدال والتصميم على الباطل فخشيت أن أجاريه في الكـلام لا يطلعنـي على أحوال المسجد المذكور فأعرضت عنه وأخذت في حديث آخر مع يقيني بأنه لا يقبل الحق ولا تسمح نفسه بالدنيا التي جعل تلك الخطة التي بيده أحبولته لصيدها.

وقد رأيت عندهم في بعض الكنائس من الأواني الفضية ما لا يعد ولا يحصـى فمن ذلك منارة من الفضة ذكر أن زنتها تسعة عشر ربعاً من الفضة ثم ست حسك[1] من الفضة كأنهن سواري من الرخام حقيقة، وما يشاكل ذلك كثيراً.

وأبواب المسجد المذكور ستة عشر باباً وفي صحن المسجد مـن شـجر النارنج سبعون وشجرة زيتونة واحدة، ومن شجر السرو تسعة، ومـن النخيـل ثلاثة وفي وسط الصحن أيضاً صهاريج ماء له خصة[2] بوسطه عالية عليه، وفي أركان الصهريج المذكور أربع قبب صغار خارج من كل واحدة أنبـوب مـاء، وبالصحن أيضاً أربع خصص على كل واحدة شباك من الحديد محيط بها و لكل واحدة قفل.

---

(١) حسك جمع حسكة وهي في الاصطلاح المغربي الشمعدان سواء كانت لحمل شمعة واحدة أو أكثر.

(٢) الخصة وتجمع على خصص وخصات هي حوض من رخام أو حجر مستدير ومرتفع عـن مسـتوى الأرض وفي وسطه أنبوب يتدفق منه الماء وتكون الخصة في القصور الكبيرة والرياض الفسيحة وسط صهريج مستدير أو مربع أو مستطيل وربما اتخذت فيه عدة خصات إذا كان كبيراً.

وقد أحدث النصارى بوسط المسجد بين المحراب والعنزة قبة كبيرة اتخذوها لصلاتهم وضلالتهم، وفيها آلات الموسيقى وهي أكبر الكنائس الذي أحدثوا في هذا المسجد وهي في غاية العلو ولها شبابيك مموهة وقد دخلناها ورأينا جميع ما بها من كفرياتهم أهلكهم الله.

وعنزة هذا المسجد لم يكن مثلها في مساجد الإسلام في علو السمك والنقش الغريب ويقابلها الصومعة وهي بازاء باب من أبواب المسجد يتركها الخارج عن يساره وليست غاية في العلو كمنار إشبيلية وطليطلة، وقد ذكر الفرائلي أن علوها مائتان و خمسة أقدام، وقد جعلوا فيها من الاجراس أي النواقيس ستة عشر.

وقد أحدث النصارى تحت سقف المسجد المذكور قبواً مبيضاً فسألت الفرائلي هل هكذا وجدوا سقف المسجد، فذهب معي إلى موضع بالمسجد ليس به قبو فإذا بالسقف من الخشب على هيئة سقف مساجد الإسلام، وقال إنما أحدثوا هذا القبو لأن المسجد غاية في الكبر وعلو السمك، وقد كان مظلماً فأحدث له هذا القبو ليستضيء المسجد ويكثر ضوءه بسبب ذلك نسأل الله تعالى أن يمحو منه ظلمات الكفر ويضيئة بتلاوة كتابه العزيز.

ومن بديع أثر هذا المسجد وافراط علو جدرانه، أن جعلوا له خارج سوره سواري من أصل السور غاية في العظم والضخامة ترصيصاً لبنائه وإحكاماً له.

ويدور بالمسجد المذكور من خارجه محيطاً بالسور والسواري المعينة له بلاط من أصل السور في عرض ثلاثة عشر قدماً من إحدى جهاتها وأقل من بعض الجهات وعلو قامة، وأكثر احتفاظاً للمسجد لافراط علو جدرانه.

وشهرة هذا المسجد بذكره الذي طبق الآفاق تغني عن الاطناب في وصفه، وناهيك بمسجد ليس في معمور الأرض مثله إلا المسجد الأقصى، وقد قيل إن مسقف مسجد قرطبة أكثر من مسقف المسجد الأقصى.

وأول من اختط هذا المسجد العظيم الإمام عبدالرحمن الداخل[١] ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان وسائر ملوك بني أمية من بعده زادوا في المسجد المذكور كل على حساب ما قدر له إلى زمان المنصور ابن أبي عامر فقد زاد فيه زيادة كبيرة وكانت مدة الخدمة في الزيادة التي زادها المنصور ثلاث سنين آخرها سنة أربع وثمانين وثلاثمائة[٢].

وعلى وادي قرطبة وهو الوادي الكبير من البساتين وأراضي الحراثة والعزائب[٣] لنتاج الخيل ما اختصت به قرطبة عن غيرها من سائر البلاد الأندلسية لأن خيل قرطبة وعملها هي عند النصارى أشرف خيل بلاد إسبانية عن آخرها ومن أجل ذلك منع طواغيهم المتقدمة أن ينزو أحد حماراً على فرس ومن ظهر عليه شيء من ذلك يعاقب العقوبة الشديدة ولا زالوا على ذلك الآن، ولقد رأيت بقرطبة داراً كبيرة مربوطة فيها خيل الطاغية في غاية الاتقان وهذه الدار هي بمنزلة الاسطبل مربوط فيها فحول الخيل المعدة للنزوان، وكل فرس مكتوب اسمه في خشبة مسمرة

---

(١) عبدالرحمن الداخل هو مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ويلقب بالداخل لأنه هرب من العباسيين بالمشرق وجاء للمغرب حيث قضى خمس سنوات يستعد للمرور لإسبانيا والاستيلاء عليها، وقد تم له ما أراد ودخلها منتصراً وأسس دولة بلغت الحضارة في عهدها مقاماً عظيماً، حكم ٣٣ سنة آخرها سنة ٧٨٨م.

(٢) سنة ٣٨٤ ابتدأت يوم ١٥ يبراير ٩٩٤ وانتهت يوم ٥ يبراير سنة ٩٩٥ من التاريخ الميلادي.

(٣) عزائب جمع عزيب وهو في الاصطلاح المغربي أرض الحراثة في البادية مع مراعي الماشية وأماكن السكنى للفلاحين القائمين على العزيب وأحياناً سكنى صاحب العزيب نفسه، وأصل الكلمة من أعزبت الإبل بعدت في المرعى لا تروح وأعزب الرعاة أصابوا العازب أي الكلا البعيد، والعزيب يكون طبعاً بعيداً عن المدينة، ويقول المشارقة للعزيب عزبة- والعزاب عند المغاربة القائم على العزيب.

أمامه، وفي هذه الدار من الاسطبلات المعدة لربط الخيل كثير والقيم على هذه الخيل والناظر في أحوالها ساكن في الدار المذكورة بأولاده، مستوطن بها هو وجميع أصحابه الذين يباشرون الخيل على عدد الخيل فكل فرس يقابله صاحبه إن صلح فله وإن فسد فعليه، وأما البغال فإنما ينتجونها ببلاد مانشة[1].

وأهل قرطبة أهل فلاحة وحراثة وقرطبة على كبرها فيها ستة عشر ساقية للماء لأن بلاد الأندلس كلها قليلة الماء، فلم نر لهم حرثاً على ساقية منذ دخلنا بلادهم وإنما حرثهم على البعل[2]، إلا ما يذكر عن غرناطة وعملها وأما القصبة المشهورة بقرطبة التي كان فيها سكنى ملوك بني أمية فلا زال على حالها نعني أسوارها قائمة، وكذلك أبراجها غاية في العلو مقابلة للمسجد الأعظم إلا أن البناءات التي بداخلها لم يبق لها ساكنون بقصد احراق من يطلع عليه في بلادهم من اليهود يعني إذا كان نصرانياً على دين النصرانية ثم إنه رجع إلى دين اليهود في باطنه واطلع عليه فإنه يحبس ويحصن عليهجميع ما يملك حتى يبحثون في أمره البحث التام، فإن حققت عليه الدعوى فإنهم يراودونه على أن يرجع على دين النصرانية ويتوب، فإن رجع فإنهم يجعلون له علامة على كتفيه يتميز بها حتى يعلم أهل البلد كلهم أنه كان يهودياً في الباطن وتاب ورجع إلى دين النصرانية، وإن صمم على دين اليهودية ولم يرد الرجوع إلى دين النصارى فإنهم يحرقونه.

وأما إذا اطلع على يهودي مؤصل في اليهودية فإنهم يحكمون عليه بحسب ما يؤديه إليه اجتهادهم وينفونه من البلاد ولا يجبرونه على الدخول في دينهم

---

(١) ننطق بالإسبانية مانتشا (Mancha) وهي ناحية منبسطة وسط إسبانيا اشتهرت في الأدب برواية سرفا نطيس ا لتي تقع بها حوادث بطلها دون كيخوطي دي لا مانتشا.

(٢) البعل كلمة فصيحة وهي الأرض التي لا تسقى بماء الأنهار أو العيون أونحوها وإنما تنتج فقط بماء السماء، وبهذا المعنى تستعمل هذه الكلمة في المغرب فيقال أرض بعلية وأرض سقوية.

وهذا الأدب الذي يؤدبونه بحسب ما يحكمون به باجتهادهم وديوانهم[1]، حيث دخل بلادهم مختفياً ومعلوم أنه لا يدخل بلاد اصبانية أحد من اليهود فلمخالفته لذلك توجه عليه الحكم، وأما أن أراد يهودي الدخول في الظاهر فيمكن أن يعطوه الإذن في الدخول إن كان سبباً قوياً ويلزمونه من العسكر من لا يفارقه إلى أن يخرج من بلادهم.

والسبب في عدم دخول اليهود اصبانية هو أنهم لماكانوا فيها كانوا يقتلون الصبيان الصغار خفية فكل من قبضوه وخلوا به يقتلونه واطلع عليهم في ذلك مع ما هم معروفون به من الغش والتدليس واعطاء المعاملة بالربا فاتفق رأيهم وديوانهم على أن يخرجوهم من بلادهم وذلك في زمن فرناند الخامس ولهم الآن ديوان معلوم يسمونه الانكستيون[2]، بقصد الفحص عن من يلمز باليهودية وإن اطلع على أحد فيه شيء من ذلك فلا يمنعه أحد كائن من كان ولو كان الطاغية نفسه.

ولما كنا عند الطاغية في هذه السنة وجدناهم قد قبضوا أحداً من الأعيان كان عاملاً في إشبيلية قد لمز باليهودية وسجنوه في مرسية منذ أربع سنين ونحوها وأهل ديوان الانكستيون مشتغلون بالفحص عنه إلى أن يقفوا على حقيقة أمره.

---

(١) الديوان هنا ديوان التفتيش (انظر التعليق بعده) ولفظة الديوان في الاصل فارسية بمعنى مجتمع الأوراق ثم اطلقت على الدفتر الذي تسجل فيه عطايا الجيش ثم الجبايا ثم كل المسائل الإدارية واستعير بعد ذلك للأشخاص الذين يجتمعون للتداول في شؤون إدارية أوسياسية أو نحوها واستعير في البلاد المغربية للمحل الذي تسجل فيه السلع الداخلة والخارجة والأدوات التي تدفع عنها، وقد أخذه الغربيون بهذا المعنى فقال الإسبان (Aduana) والفرنسيون (Douane) وزاد الغربيون معنى وهوو الكرسي الوثير الذي قدروا أن أصحاب الديوان يجلسون عليه فقالوا(Divan) كما أن العرب استعملوا الديوان بمعنى السجل الذي تقيد فيه إنتاجات الشعراء.

(٢) يعني بالإسباني (Inquisicion) وهو نظام شديد كان اتخذه النصارى في أوروبا لمطاردة أصحاب العقائد المخالفة للمذهب الكاثوليكي الرسمي، وقد أذاقت دواوين التفتيش جميع أنواع العذاب في جل بلاد أوروبا وخصوصاً في إسبانيا لكل من كان لا يرى راي القسيسين والرهبان، وقد أصاب اليهود من هذا الاضطهاد محن لا توصف وكذلك المسلمون بإسبانيا بعدما أرغموهم على اعتناق المسيحية.

وبخارج القصبة المذكورة دكان عالٍ مستند على أحد أبراج القصبة وعلى ذلك الدكان قبة معدة لبيعة طواغيهم، إذا تولى أحد ملك اصبانية يجتمع أهل المدينة كلها بذلك المكان أمام القصبة ويطلع فوق الدكان من هو معين للكلام و يعلم بأن فلاناً هو الطاغية والمتولي أمر اصبانية ويبايعونه على عادتهم.

ومدينة قرطبة في سفح جبل مطل عليها يقال له سرمرينة[١] فيه بساتين كثيرة من الزياتين وغيرها وكان يسمى قبل بالتاج لأنه لما كان مطلاً على قرطبة وهو مخضر بكثرة الأغصان والأشجار صار لقرطبة كالتاج وهذا الجبل أصله من بلاد البرطقال[٢] واستمر في بلاد اصبانية إلى ناحية القنت بلد بينها وبين قرطخنة[٣] سبع عشر ساعة.

وكان مقامنا بقرطبة يومين وسافرنا منها إلى مدينة الكاربا فوصلنا على خمس ساعات وبين قرطبة والكاربا[٤] من ا لزياتين شيء كثير، وقد مررنا فيها بين المدينتين بقرب من قرطبة بمدشر سكانه قائمون على عذير[٥] خيل الطاغية وهذا المدشر على ضفة الوادي الكبير وعليه قنطرة محكمة.

إنتهى.

---

(١) (Sierra Morena) وهي سلسلة جبال تمتد في جنوب إسبانيا من الحدود البرتغالية غرباً إلى ناحية المانتشا شرقاً، أما الجبال التي تتصل بها وتمتد إلى ألتقنت فإنها تحمل اسماء أخرى.

(٢) يعني بلاد البرتغال ويقال لأهلها عند المغاربة البردقيز.

(٣) يكتب ابن عثمان الأعلام كما ينطقها الإسبان ويعني مدينة قرطجنة وهي على البحر الأبيض المتوسط (Cartagena) وتبعد عن مرسية ٤٨ كيلومتراً، وهي من تأسيس الفينيقيين، دخلها العرب أول الفتح واستمرت بأيديهم خمسة قرون.

(٤) (El Carpio) قرية على كدية وهي تبعد عن قرطبة ثلاثين كيلومتراً.

(٥) العذير مراع متسعة تحاط بسياج وتربى فيها خيل الدولة ويكون عليها قيمون يهتمون بشؤونها، والأصل من الفصيح عذر الفرس بالعذار أي شده به والعذار هنا هو قسم اللجام الذي ينزل على خد الفرس، وفي ناحية الجديدة سجن سهير لأنه ضم أيام الحماية عدداً كبيراً من الوطنيين يدعى العذير ولكن بما أن الفرنسيين كانوا يكتبون العين ألفاً فقد ظن من لم يكن يعرف معنى العذير أنه العاذر غلطاً.

قول حديث:

نحب أن ننهي نقولنا الذي لم نعتد على الإكثار منها في كتب الرحلات التي كتبنا بها، و لكننا فعلنا ذلك الآن لما لذكرى الأندلس من منزلة خاصة في نفوسنا، وما لأسلافنا المسلمين فيها من جهود علمية ومدنية وعمرانية فيها، قولاً للأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه (الآثار العربية في الأندلس) وخص بأكثره جامع قرطبة العظيم.

قال:

المسجد الجامع بقرطبة:

يعد المسجد الجامع بقرطبة من أروع ما خلفته الدولة الأموية من آثار، وقد تعاقب على بنائه والزيادة فيه عبدالرحمن الداخل والأمير هشام، وعبدالرحمن الأوسط، والخليفة عبدالرحمن الناصر، كما زاد فيه الحكم المستنصر، وا لمنصور بن أبي عامر.

وقد أقام المسلمون المسجد في أول أمره على أحد شطري كنيسة سان فنسنت وأخذوا في ذلك بما فعله أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد عن راي عمر بن الخطاب عن مشاطرة أهل الذمة كنائسهم.

ولما استتب الأمر لعبدالرحمن الداخل واستقر في قرطبة نظر في أمر الجامع فسام النصارى بيع ما بقي بأيديهم من كنيستهم ليدخله فيه، وأوسع لهم البذل وفاء بالعهد الذي صولحوا عليه، فأبوا بيع ما بأيديهم، وسئلوا أن يباح لهم بناء كنيستهم التي هدمت بخارج المدينة وتعرف بشنت أجلح خارج الأسوار، على أن يتخلوا للمسلمين عن هذا الشطر الذي طولبوا به فتم الأمر على ذلك سنة

١٦٨- ١٦٩، فابتنى عبدالرحمن المسجد، وكان نصفه مسقوفاً ونصفه الآخر لا يظلله شيء، والنصف المسقوف يتألف من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة تمتد على اثني عشر قوساً تقوم على عمد من الرخام.

والسقف يتألف من سماوات خشبية كل منها تختلف عن الأخرى، وتكتفي بما فيها من بديع الصنع وروائع التلوين، وتحتها ازار من خشب نقشت عليه آيات قرآنية.

وبين العمد الرخامية على أعلى الرأس عقود متجاوزة تقوم مقام الآوتار الخشبية، وتربط الأعمدة فيما بينها عقود أخرى نصف أسطوانية، ويتعاقب في جميع العقود العليا والدنيا اللون الأصفر الشاحب واللون الأحمر نتيجة لتناوب الحجارة والآجر مما يكسب المسجد مظهراً زخرفياً رائعاً.

وبنيانه من الحجر الجيري اللين المائل إلى الاصفرار، في كتل صفت على التعاقب بحيث يبدو للعين وجهها الأكبر ثم وجهها الأصفر، ومجموعات صفوفها متسقة على نحو يؤدي فيما بينها إلى الترابط والإحكام.

والناظر إلى المسجد بين الأعمدة تبدو له وكأنها غابة من النخيل ينيرها ضوء شاحب يتسلل من الصحن ومن شبكات الواجهات، وتتسم العناصر المختلفة باتساق في المظهر الخارجي، وفي التركيب الداخلي، يحدده تداخل العقود التي تقوم على عمد ودعائم مرتفعة في الفضاء تنتهي عند السقف في وضع أفقي يكتنفه ظلام خفيف، وتنتهي من أسفل بأرض شبه ترابية، كل ذلك بين ظلال يلمع من خلالها بريق الرخام والأحجار المذهبة وقوالب الآجر.

وعدد الأعمدة ١٤٢ يتألف الواحد منها من قاعدة وبدن وتاج، قد أرسيت دون أن تتخذ مستوى واحداً بحيث أن بعضها توارى بدرجات متفاوتة، وأبدانها ملساء في مجموعها وإن كان بعضها مزداناً بضلوع حلزونية أو مستقيمة، أما التيجان فبعضها يزدان بأوراق النبات المعروف بشوكة اليهود، و بعضها الآخر في شكل الناقوس يزينها أوراق الزنبق وتذكر من يراها بزهرة اللوتس المصرية.

والمسجد تعلوه قباب تتألف من ضلوع متقاطعة فيما بينها بحيث تتكون منها أشكال نجمية بديعة، ومن أروع هذه القباب قبة الضوء أو القبة المخرمة الكبرى، وتبلغ نوافذها ستة عشرة نافذة يدخل منها الضوء فينير جوانب المسجد.

على أن أجمل ما في المسجد هو المحراب إذ أقيمت على واجهته سبعة عقود ثلاثية الفصوص، مزججة دقيقة التكوين والزخرفة، يعلوها افريزان بين بحرين من الفسيفساء المذهب على أرض الزجاج اللازوردي، وتحت هذه العقود افريزان آخران، وعلى رأسه رخامة مشبوكة محفورة منمقة تشبه القوقعة المقلوبة، وعلى جانبيه لوحتان من الرخام حفرت فيهما توريقات وتشجيرات تعد آية في الروعة و الجمال.

والمنبر عود مؤلف من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والمرجان وأوصاله من فضة مثبتة.

وقد أفاض المؤرخون في وصف ما كان عليه المسجد، فذكر ابن غالب أنه (كان يعمره ويخدمه من الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومة مائة رجل وعشرات، لهم من الدنانير على اختلاف منازلهم ثمانمائة دينار في الشهر مكافأة على رتبتهم وتعطيل أشغالهم حاشا الديار لسكناهم)، قال ابن حيان: وجدت بخط الحكم أن مبلغ

النفقة في الزيادة المنسوبة إليه من الدنانير مائتا ألف وواحد وستون ألفـاً وخمسـمائة وتسعة وثلاثون ديناراً وعشرون ونصف عشر[1].

وظل المسجد على حاله بعد الزيادة التي أدخلها عليه المنصور طوال العهد الإسلامي، ولما سقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث سنة ١٢٣٦ حول إلى كنيسة سميت كنيسة سانتا ماريا الكبرى، وفي سنة ١٣٧١ أقام ملك قشتالة دون انريـك الثاني المصلى الملكي المعروف بمصلى سان فرنندو بجـوار قبـة الضـوء، وغطيت جدرانه بزخارف من عمل المدجنين محفورة في الجص.

وتعرض المسجد منذ القرن الخامس عشر للتشويه والتبديل، ففي سنة ١٤٨٩ هدم الأسقف انييجو ماناريكي العقود والأعمدة في البلاطات الخمسة الممتدة طولاً من مصـلى فيلافسيوسا إلى جدار الجامع الغربي، وفي سنة ١٥٢٣ شرع الأسقف دون ألونسو مانريك في هدم جزء كبير من زيادة عبدالرحمن الأوسط والمنصور ليقيم كاتدرائية قوطية فـي قلب الجامع، ولكن المجلس البلدي بقرطبة ونفراً من أعيان المدينة أنكروا ذلك ولم يرضوا به، وعرض الأمر على شارلكان فوافق على هدم ما يلزم لبناء الكنيسة، ولم يكن قد رأى الجامع، فلما مر بقرطبة في سنة ١٥٢٤ بمناسبة زواجه في إشبيلية بدنيا ايزابيلا البرتغالية ورأى الجامع راعه ما رأى من جلال الفن وعظمة البنيان، ثم توجه بالحيث إلى فـراي خوان أسقف طليطلة وإلى أعضاء المجلس الكنسي وقال كلمته المضهورة: (لو كنت قـد علمت ما وصل إليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم، لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان وما هدمتموه فريد في العالم).

إنتهى

---

(١) انظر ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس تحقيقنا، قاله محمد عبدالله عنان، ص٣٠.

مواصلة الجولة:

وقد وصلنا إلى فندقنا (فندق الأمويين) مخترقين المدينة القديمة سائرين بجانب حائط الجامع الكبير العظيم، وكانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً.

وكان ليل هذا الفندق ذي الاسم التاريخي العريق مليئاً بالأحلام التي أكثرها أحلام سارة بسبب الإطلاع على هذه الآثار الإسلامية المشرفة.

قلت للأخ مخلف كمال: إنني أريد أن أصحو غداً مبكراً لأذهب مبكراً لمعاودة مشاهدة الجامع ولرؤية الآثار العربية الأخرى التي لم أرها من قبل، وأرى أن تأتي إلينا في السابعة والنصف، فقال: هذا غير ممكن لأن الساعة الثامنة يكون الظلام لا يزال مسيطراً ولا يرى المرء شيئاً إلا في الضوء، لأن صلاة الفجر في السابعة والنصف، ولكن سنأتي إليكم في الثامنة والنصف.

يوم الخميس: ١٤٢٣/٨/٤هـ:

اللغة الإسبانية:

إنني أعرف منذ مدة طويلة كلمات قليلة من الإسبانية لا تغني عني شيئاً، ولكنني كررت الزيارات بعد ذلك إلى البرازيل التي تتكلم اللغة البرتغالية، فتعلمت من تلك اللغة ما شعرت بأنه يكفي للتفاهم بها مع أهلها في الأمور السهلة من اللغة، وكان ذلك ولكنه نفعني أيضاً في بلدان اللغات الأخرى المتفرعة مثل البرتغالية عن اللاتينية مثل اللغة الإسبانية والإيطالية ولغة رومانيا.

فصرت إذا كنت في بلد يتكلم بالإسبانية أتكلم بالبرتغالية فيفهمون مني في الغالب فحوى ما أريده وقد فعلت مثل هذا أمس وأول هذا اليوم مع أنني لم أكن مصطراً إليه، لأن معي من الإخوة المقيمين في إسبانيا من يترجم لي كلامهم إلى العربية.

وكون اللغة الإسبانية والبرتغالية متقاربتين هو وحدة الأصل في اللغة اللاتينية ثم هو وحدة الفرع إذْ كان الشعبان يعتبران من الناحية اللغوية شعباً واحداً، حتى استقل البرتغاليون بما استرجعوه من الجنوب الغربي من شبه جزيرة إيبيريا التي هي شبه الجزيرة الأندلسية وعندئذ بدأ التباعد بينهما.

ولكن هذه الوحدة اللغوية السابقة التي صارت شبيهة بالوحدة اللغوية في الوقت الحاضر تغذيها عوامل نفور بين البلدين أهمهما الاحتكاك القديم بينهما والثاني كون كل شعب منهما له في الحقيقة خصائص مظهرية بل وعنصرية يخالف فيها الشعب الآخر.

وطالما كنت أعجب من تقاربهما في اللغة وتباعدهما في المظهر وتقاسيم الوجوه، بل وحتى تقاطيع الجسم.

ويمكن التمثيل لهما بالشعب السوري والشعب اليمني رغم كونهما شعباً عربياً واحداً، ورغم الوحدة اللغوية والتاريخ الذي يكاد يكون مشتركاً لا تزال توجد فروق مظهرية واضحة بين أفراد الشعبين، أكثر من الفروق الموجودة بين الإسبان و البرتغاليين.

وأكثر ما يميز اللغة الإسبانية عن البرتغالية تلك الكلمة الشائعة، بل المتكررة على الشفاه آناء الليل وأطراف النهار وهي التي تقابل كلمة (شكراً) بالعربية فهي في الإسبانية (قراتيس) وفي اللغة البرتغالية (أوبرقادو) إذا تكلم بها رجل و(أوبرقادا) إذا تكلمت بها امرأة.

وقد عقد الأستاذ محمد عبدالله عنان فصلاً عن أمر اللغة العربية في الإسبانية، وذلك في كتابه (الآثار العربية في الأندلس) فقال:

اللغة العربية وتأثيرها في اللغة الإسبانية:

وأول هذه المظاهر ما كان للغة العربية من تأثير في اللغة الإسبانية تجلى في كثير من الألفاظ التي تعد أوعية للأفكار وأدوات للحضارة، ووثائق حية تشهد بالعشرة التي التقى في ظلالها المسلمون والمسيحيون، وتحدد مدلول الظواهر الاجتماعية، وتكشف عن معالم الحياة العامة والخاصة.

فالألفاظ العربية لم تقتصر على العلوم الإسلامية التي ورثتها إسبانيا عن العرب كالفلسفة واللاهوت والطب والرياضة والفلك والهندسة والموسيقى وما إليها، وإنما كانت عناصر وأمارات تشير إلى نظم إدارية وقضائية وتقاليد فنية

وعسكرية، وأساليب في التجارة والصناعة والزراعة وما إليها مما يدخل في الكيان الاجتماعي والسياسي للبيئة العامة.

ولم تكن إسبانيا لتغفل عن هذه الحقيقة في أبحاثها بل أولت هذه العروبة اللغوية من العناية ما هو جدير بها منذ القرن العاشر الذي كان من ثمراته المعجم اللاتيني العربي (Glossariumlatino arabicum)، وتلاه في القرن الثالث عشر (Vocabulista inarabico)، ويعزى إلى المستشرق القطالاني فراي بدور ريموندو مارتن، لكن لعل الذي فاق هذين المعجمين المعجم الذي ألفه فراي بدرو الكالا نحو سنة ١٥٠٥، الذي عنوانه (Vocabulista arauigo)، وقد جمع فيه اللهجة العربية التي كان يتكلم بها أهل غرناطة لعهده، ثم كثر تأليف المعاجم التي من هذا القبيل في الإسبانية والبرتغالية والفرنسية، ومن أشملها كتاب انجلمان الذي توسع فيه دوزي وهو يضم جملة صالحة من الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية.

وإن رحلة في عالم هذه الألفاظ لكفيلة بأن يقف منها المرء على تغلغل العربية في مناطق الحياة بشبه الجزيرة الإيبرية.

ويظهر وجه العروبة في أسماء الأنهار والمواضع والبقاع والبلاد، فمن الأنهار (Guada Iquivir) الوادي الكبير، (Guadlaviar) وادي الأبيار، و(Belcayde) أبو القائد، وأسماء المواضع أكثر من أن تحصر وكلها تذكر بالعصر العربي، فمن القرى والمدن (Almodovar) المدور، و(Albacete) البسيط، و(Alcazar) القصر، و(Calatrava) قلعة رباح، و(Calatavud) قلعة أيوب، و(Medinacali) مدينة سالم، و(Alcira) الجزيرة وهي جزيرة شقر، و(Aldovera) الدويرة، و(Alejar) الحجار، و(Algarbe) الغرب، و(Algarra)

الغراء، و(Alfoz) الحوز، و(Almasera) المعصرة، و(Almazcara) المعسكرة، و(Alqueria) القرية، و(Alrrabal) الربض، و(Duya) ضيعة، و(Jerica) شارقة، و(Jete) شط، و(Mazmorra) مطمورة، و(Meala) محلة، و(Medina) مدينة، و(Ruzafa) رصافة، و(Taiba) طيبة، و(Zalamea) سلمية، و(Zocodover) سوق الدواب، و(Zubia) زاوية، و(Zuera) زهيرة، و(Zucayna) سكينة.

ولا تزال تسمع في أنحاء إسبانيا الألفاظ التي تتصل بالري والزراعة، فالقوم يقولون: (Azud) السد، و(Acequia) الساقية، و(Albercas) البرك، (Acena) السانية، وفي البساتين (Arriate) الرياض، وهم يؤدون لقاء ري أرضيهم ما يسمونه (Alfarade) الفرضة، وفي الحقول يستخدمون (Noria) النورية أو يملأون (Aljibe) الجب بالماء للانتفاع به وقت الجفاف.

ولو أن إنساناً دخل بستاناً من البساتين لرأى فيه من الأزهار ما يذكره بالعصر العربي مثل: (Adelfas) الدفي، و(Azucenas) السوسانة، و(Jazmines) الياسمين، و(Arrayan) الريحان، و(Albahaca) الحبقة، و(Alhucema) الخزامى.

ومن الفواكه (Alberchigos) الفرسق، و(Albaricoques) البرقوق، و(Azerolas) الزعرورة، ومن البقول والخضر (Berenjenas) الباذنجان، و(Arroz) الأرز، و(Alubias) اللوبيا، ويضاف إلى الأطعمة (Azafran) الزعفران، و(Ajedrea) الشطرية، ويطعم القوم خيولهم بـ (Alfalfa) النصفه، و(Algarrobas) الخروب، و(Altramuces) الترمس.

وتقع عين المرء في إسبانيا على (Aldea) الضيعة، أو (Alqueria) القرية، تحيط بها أ شجار تعرف بـ (Almeces) الميس، ويجلس المرء ليستريح في (Zagunan) السطوان، عند مدخل البيت، ويرى القوم وهم يزنون ما معهم بـ (Quintales) القنطار، أو (Adarmes) الدراهم، و(Quilates) القيراط ويقيسون بـ (Azumbre) الثمن و(Fanega) الفنيقة، و(Cahiz) أو (Ca z) القفيز، ويسمعهم وهم يقدمون سلعهم ويتوخون (Alboroque) البركة في تعاملهم وهم قادمون من (Almacen) المخزن أو (Bazar) بازار أو (Alhonediga) الفندق، ثم يمضون إلى (Almudi) المودى أو إلى (Alcaiceria) القيسرية أو (Alfori) و(Alhuri) الهرى، ثم يشهدون (Almoneda) المناداة ويمرون بـ (Azogue) السوق ويعلمون أن السعر إذا ارتفع فمرد ذلك إلى (Aduanas) الديوان (الجمارك) بحيث لم يبق لهم الن الربح (Maravedi) مرابطي.

ويدق النساء التوابل في (Almirez) المهراس، ويصنعن أصنافاً بختم بها الطعام مثل (Almojabauas) المجبنة، و(Arrope) الرب و(Alfenique) الفانيد، وقد تقدم إلى القوم (Cafe) القهوة محلاة بـ (Azucar) السكر، ومنهم من يتناول قليلاً من (Alcohol) الكحول.

وفي الدار تفرش الأرض بـ (Alfombra) الحمرة، وينام رب البيت على (Marfega) المرفقة، ويتوسد (Almohada) المخدة، ويتخذ (Alifafe) الخفاف، ويغلق الباب بـ (Aldoba) الضبة.

وأهل البلدة منهم (Albanil) الباني، وهو يبني (Alcoba) القبة، و(Alcazar) القصر، ومنهم (Albeitar) البيطر، و(Albardero) صانع البردعة، و(Alfayate) الخياط، و(Alfageme) الحجام، و(Alhamel) الحمال، و(Almocrebe) المكاري،

وتزخرف الحجرات بـ (Azulejos) الزليج، ويضرب القوم (Adufes) الدف، و(Tambore) الطنبور، و(Atabales) الطبل، و(Laudes) العود، وينفخون في (Alboques) البوق، ويعزفون على (Guitarras) القيثارة، ويرقصون (Zambra) الزمرة، و يستعمل الصيادون (Jabega) الشبكة، و(Almadraba) المضربة، و(Almadia) المعدية.

وقد يلبس الشيوخ بالقرية (Chupa) الجبة وثياباً مصنوعة من (Algodon) القطن، كما يلبسون (Albornos) البرنس، و(Zaraguelles) السراويل، و(Alifafes) الخفاف.

ومن الوظائف والرتب العسكرية الإسبانية (Alcaide) القائد، و(Alferez) الفارس، و(Adalid) الدليل، و(Almogaver) المغاور، ويستعملون ألفاظ (Atalayas) الطلائع، و(Rebatos) الرباطات، و(Acemila) الزاملة[1].

إنتهى.

---

(١) الآثار العربية في الأندلس، ص١١٢- ١١٦.

فائدة الآثار الإسلامية:

كسب البرتغاليون مكسباً عظيماً من وجود الآثار العربية عندهم وإن كانوا أكثر تعصباً من الإسبان إذْ بادروا إلى محو كثير منها، أما الأسبان فإنهم كسبوا أكثر من ذلك، ومازالوا يكسبون، ولذلك رأيناهم يصونون الآثار العربية ويحرصون عليها حرصهم على شيء نفيس لو فرض أنه أصابه ضرر لما وجد ما يسد سده، مع أنهم لديهم آثار رومانية وقوطية ولكنها لا تقارن بالآثار العربية ولا توزن بوزنها، بخاصة في المظهر الجمالي، فمثلاً كثير من الآثار الرومانية في إسبانيا تتمثل في جسور وقناطر، وقنوات لسحب المياه، وهذه مفيدة ولكن لم تراع فيها الناحية الجمالية في الأساس.

ويمكن القول مثل هذا في الهند التي يَسبُّ بعض المتعصبين من أهلها المسلمين و ملوكهم الذين حكموا الهند، ولكنهم لا يزالون يكسبون مكاسب عظيمة من السياح المتفرجين، ومن يصل تاج محل والقلعة الحمراء في (أكرا) والمساجد والقصور في (فتح بور سكري) والمسجد الجامع والقلعة في دلهي القديمة وتاج المساجد في بهوبال، فهذه الآثار الإسلامية وإن لم تكن الآثار الوحيدة في الهند وإنما توجد معها آثار هندية قديمة فإن الآثار الإسلامية أكثر جمالاً وقد جمعت بين الجمال والأناقة وحسن الصناعة.

ولو ضربنا المثل بمدينة قرطبة واستبعدنا منها الآثار الإسلامية التي أهمها المسجد الجامع وبعده القلعة و الجسر على نهرها لما بقي فيها شيء له أهمية أو قيمة من الآثار الرومانية أو القوطية، ولصارت لا تزيد على أن تكون بلدة معتادة متوسطة الحجم، لا طعم لها ولا مزية فيها.

الوادي الكبير:

شرقي نهر قرطبة المعروف بالوادي الكبير

الوادي الكبير هو نهر قرطبة أي النهر الذي تقع عليه مدينة قرطبة القديمة ولا يبعد مجراه عن المسجد الجامع إلا بمسافة قصيرة جداً.

خرجنا إليه في صباح هذا اليوم مع الأخ (مخلف كمال) فرأينا القناطر المشهورة فوقه التي نوه بها المؤرخون المسلمون وذكروا عددها، وقد قيل فيها: إن أصلها روماني حافظ عليها العرب مثلما حافظوا على الآثار الرومانية النافعة في الأندلس من الجسور والسدود وقناطر المياه.

والقنطرة هي التي صارت تعرف الآن بالجسر في لغة الصحفيين عندنا.

أما تسمية هذا النهر بالوادي فإنها كانت شائعة في الأندلس إذْ كانوا يسمون النهر وادي وهذا في الاستعمال العامي لكن لفظة نهر معروفة عندهم أيضاً.

وأما نعته بالكبير فإننا لم نره كذلك، وقد قيل لنا إنه كان بالفعل كبيراً في الماضي بمعنى أن مجراه مفعم بالمياه ولكن ذلك تقلّص الآن، وقلّ جريان الماء فيه حتى رأينا الماء فيه لا يملأ كل مجراه.

فيصح أن يقال فيه إن مجراه كبير ولكن ماؤه قليل.

والقنطرة التي على مجرى هذا النهر تعتمد على أعمدة ضخمة من الحجارة تجمع بينها من الأعلى أقواس حجرية أيضاً، وإنه لمن العجب أن تبقى هذه القنطرة طيلة القرون مع أنه لم يكن توجد مادة كالأسمنت تجمع ما بينها، ولذلك نَوَّه المؤرخون بهذه القنطرة وعدوها من المنشآت الهندسية التي ينبغي أن ينوه بها.

وعندما تأملت مياه النهر الجارية فيه وليست بكثيرة رأيت أنه ليس من الصحيح أن مجراه يمتلي بها في أيام كثيرة من العام، لأنني رأيت أشجاراً نامية في حافات المجرى كبيرة ومزدهرة حتى كأنها الغابات، ولو كان الماء يجري كثيراً فيه في وقت من أوقات السنة لما كانت كذلك.

ورأيت في هذه الأشجار ألوفاً مؤلفة من الطيور البيض التي تشبه ما نسميها عندنا بالغرانيق وهي طيور مائية كانت تمر ببلادنا في هجرتها من جنوب الأرض إلى شمالها وبالعكس.

وقد قال لي الأخ (مَخْلَف كمال): إن هذه الأشجار التي تنبت في مجرى هذا النهر هي فريدة لا يكاد يوجد لها مثيل مطابق في غير هذا المكان.

ولاشك في أن وجود هذه الطيور المائية هنا هو من أجل ماء النهر الجاري الذي في حافتيه مياه شبيهة بالراكدة وبخاصة من الأشجار تكون فيها أسماك صغيرة أو مخلوقات مائية أو نحوها مما تأكله الطيور.

القلعة الحرة:

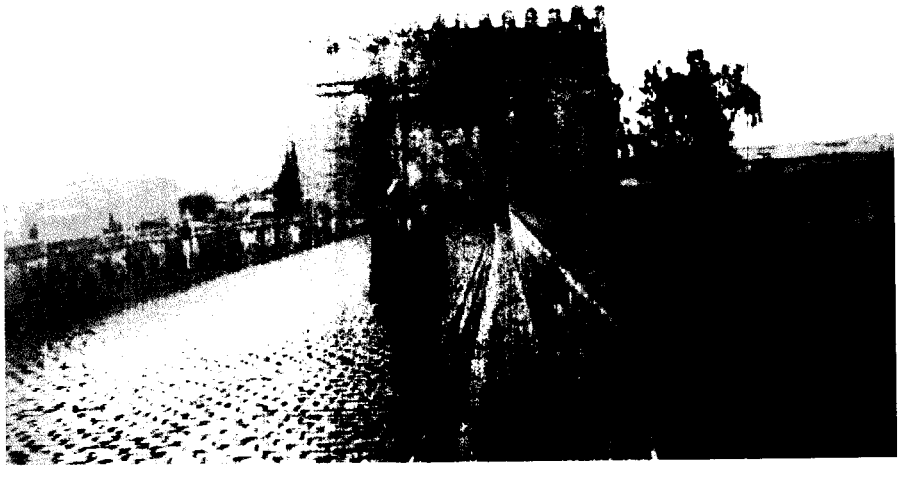

المؤلف في القنطرة فوق الوادي الكبير أمام القلعة العربية (في قرطبة)

تقع على نهاية القنطرة التي هي الجسر فوق (الوادي الكبير) نهر قرطبة من جهة الجنوب الشرقي قلعة عربية الطراز تسمى (القلعة الحرة) باللغة الإسبانية، وقلت لصاحبي عندما رأيتها وسمعت باسمها من أين لها الحرية؟ وأنىَّ لها بها.

إنها قلعة عربية رغم ما قيل عن أصلها الروماني، لأنها حتى وإن بنيت أول الأمر من قبل الرومان- إذا صح هذا- فإن العرب بقوا يستعملونها ويحكمون ما حولها أكثر من ثلاثة قرون وهم جددوها، إن لم يكونوا هدموها وأعادوا بناءها.

وكل ما فيها مما يراه الناظر إليها الآن يدل على أنها عربية من طراز البناء بالحجارة والنوافذ وبابها الضخم.

وتستعمل هذه القلعة في الوقت الحاضر متحفاً، وهي جديرة بذلك لأنها واقعة بجانب هذه القنطرة التاريخية التي يمر بها الوادي الكبير- كما يسميه الأسلاف الأندلسيون.

وغير بعيد منها بل هي في مواجهتها إذا خرجنا منها إلى القنطرة مبـــاني المسجد الجامع العظيم (مسجد قرطبة) الذي رغم ما حاول متعصبوا النصـــرانية أن يمحوا ذلك من مظهره وأن يشعروا الناس بأنه قد صار كنيسة لا يزال مسجداً لم يستطيعوا أن ينالوا من مظهره الإسلامي النقي إلا بأن يحدثوا فيه أحداثات هي أشبه ما تكون بالخدوش على خد الغانية الحسناء.

وهم لا يزالون يسمونه المسجد (الماسكيتا) بالإسبانية، ولا تعرفه عامتهم إلا بذلك، فلا يعرف بالكنيسة أو بالكاتدرائية التي هي الكنيسة العامة في المدينة في عادتهم.

وحتى الأمم المتحدة قد سجلته باسم المسجد ولا يعرف عندها وفي العـــالم إلاَّ بهذا الاسم.

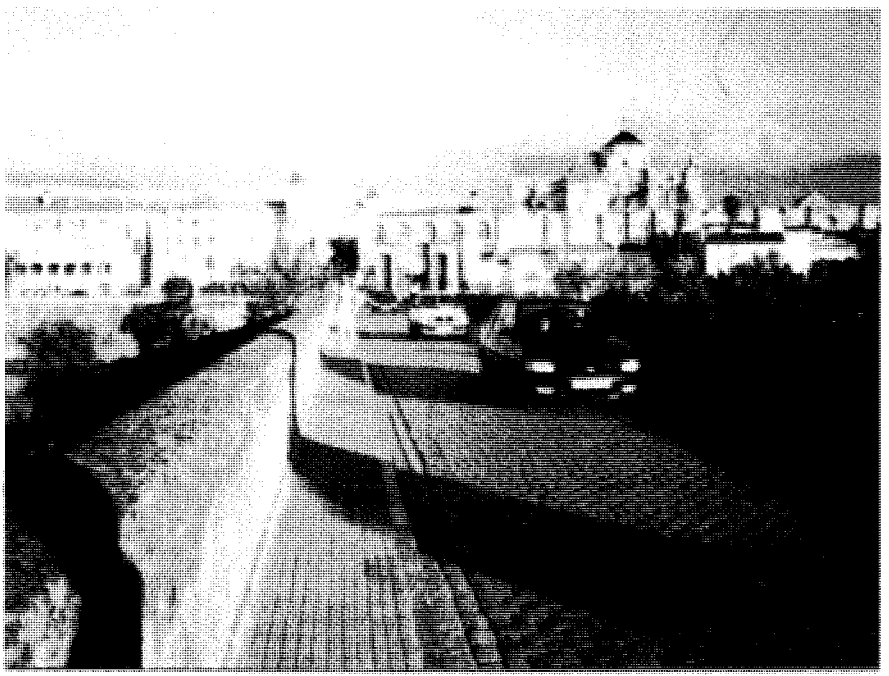

الجسر على نهر قرطبة أو القنطرة على الوادي الكبير

أما هذا النهر الذي كان كبيراً في زمن العرب المسلمين فإنه قد صغر وتضاءل كما يتضاءل جسم الشيخ الكبير الذي تضعف عظامه ويتقبض جسمه، ولكن المسجد العظيم لم يزده الدهر إلا شموخاً، ولم تزده القرون إلا شرفاً على شرف حتى صار زائروه أكثر من زائري أية كنيسة في إسبانيا، بل ربما كانوا أكثر من زوار كل كنائس إسبانيا مجتمعة.

ولقد كان في زمن بنائه معروفاً لأهل قرطبة وربما لبعض أهل الأندلس فقط فصار الآن معروفاً لأناس كثير في أنحاء العالم كله.

وليس ذلك فحسب، وإنما صار مصدر دخل ورزق لأهل قرطبة بخاصة ولأهل إسبانيا بعامة أكثر من أية كنيسة أخرى في البلاد، إذ تدر عليهم ضرائب الدخول فيه ما لا تستطيع كنائس إسبانيا مجتمعة أن تدره عليهم.

وكأنما ظن المتعصبون من النصارى أنهم بمحاولتهم مسخه بتحويله إلى كنيسة قد فشلت فحاولوا أن يمسحوه إلى كنائس عديدة نثروها في أرجائه، و لكنها لم تستطع حتى إثبات وجودها فيه، إلاّ إذا عَرَّف بها معرف من أهل البلاد.

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون).

وقد ترددت فوق هذه القنطرة أي سرت فيها جيئة وذهاباً لم استطع مفارقتها بسهولة مع أن القلعة العربية التي حولت إلى متحف كانت مغلقة، ولكن إطلالة (جامع قرطبة) أو (الماسكيت) كما يسمونه علينا ونحن فوق القنطرة أمام القلعة قد جعلتنا نخجل من تقصيرنا وجعلتنا لا نترك هذا المكان التاريخي بسهولة، وكأنما نشد إليه شدّاً.

غربي نهر قرطبة أو الوادي الكبير

صورة إسرافيل:

بينما كنت أتردد على هذه القنطرة لا تسمح نفسي بمغادرتها أراني الأخ (مخلف كمال) تمثالاً لملك، بفتح اللام يقولون: إنه اسرافيل، وإنه هو حامي قرطبة وقال بعضهم إنه حافظ قرطبة، والمعنى عندهم واحد، وعندنا باطل، لأن الحافظ هو الله سبحانه و تعالى لا حافظ غيره، ولا رب لنا ولا لغيرنا بحق سواه.

وقد أوقدوا تحته شموعاً ربما كانت موضوعة موقدة قبل انبلاج النور.

ورأيت بعض المارة منهم وهم قليل إذا جاءوه جعلوا على صدورهم أي رسموا في الهواء بأيديهم صورة صليب.

العودة إلى الجامع:

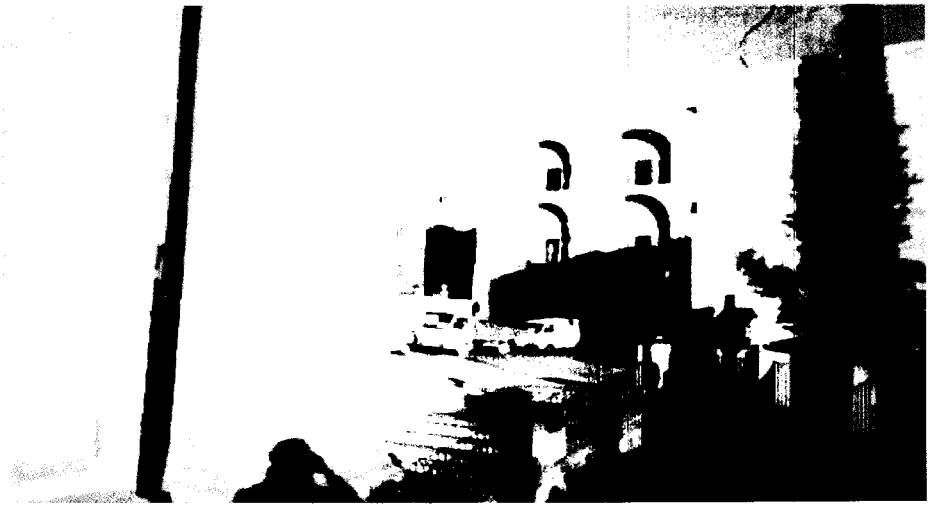

مبنى عربي ا لطراز في قرطبة القديمة

عدنا إلى قرطبة القديمة التي قلبها النابض وقطبها الثابت هو جامعها العظيم فدخلنا إليها والجامع منا قريب مع بوابة رومانية يسمونها الآن (بوابة النصر) ذكروا أنها من إنشاءات الرومان في المدينة و سماها الإسبان (بوابة النصر) بعد أخذ المدينة من العرب وهي أشبه ما تكون بقوس النصر الصغير، إذْ يعلوها قوس حجر متقن.

عدنا نباري الحيطان الخارجية الضخمة للجامع، إذْ تبدو مبنية بقوة وكثافة حتى إن بعضها تبدو حجارتها ضخمة عميقة الدخول في الحائط وأسافلها أعرض من أوساطها وأعاليها، وقد زينوا بعضها مع أنها خارجية بأقواس عربية أندلسية وبتزيينات عديدة ولكنها من الحجارة، ومن مواد البناء الأساسية التي بني بها الجامع.

ومما يذكر أن بناءه من الخارج لم يتغير عما كان عليه أيام العرب، وإنما التغيير كان في داخله وفي أشياء معينة ضيقة.

اسم قرطبة:

كنت أفكر وأنا أدور حول المسجد من الخارج عائداً من الوادي الكبير والقلعة الحرة في معنى اسم قرطبة الذي كنت مقتنعاً من كونه ليس عربي الأصل فوجدت الأخ المرافق (مخلف كمال) يقول: المعروف أنه اسم روماني وأن الرومان كانوا ينطقون به، أما الأسبانيون فإنهم يلفظون به الآن قرطبة، ولم أجد من يخبرني عن معنى هذا الاسم في اللغة الرومانية واللغة الإسبانية.

والأهم من مجرد الاسم حالة المدينة فهي إذا استثنينا الآثار العربية لا تزيد على أن تكون مدينة أوروبية متوسطة أو صغيرة لا أهمية لها ولا طعم فنياً فيها كما قدمت، بل إنها إذا قورنت بما كانت عليه أيام العرب اتضح أنها انحطت بعد ارتفاع وقلت بعد كثرة في السكان، وكانت في زمن الحكم العربي قائدة المدن الأوروبية والآن هي في ذيلها.

ويتضح لنا ذلك مما ذكر لنا عن عدد السكان فيها الآن وهو (٣٤٠) ألفاً، مع ما توصل إليه بعض الباحثين بأن عددهم في قرطبة إبان الحكم العربي كان ستمائة ألف نسمة.

وإيّاً كان الأمر بالنسبة إلى عدد السكان فإن الذي لا ينازع فيه أحد من الباحثين أن مدينة قرطبة كانت أول مدينة أوروبية عرفت الإضاءة العامة، إذْ كانت شوارعها تضاء بالقناديل في وقت كانت فيه المدن الأوروبية تسبح في الظلام ولا تعرف الإضاءة العامة مع أنها أحوج إليها وأحق بها لأن معظمها

مدن شمالية يرين عليها الضباب وتلفها الغيوم التي تجعل نهارها أشبه بالليل وليلها ظلمات بعضها فوق بعض.

سرحة الجامع:

المؤلف في رواق مسجد قرطبة

سرحة الجامع أو فناؤه المكشوف يقع إلى الشرق الشمالي منه أي يجعله المصلي في محراب المسجد جهة يده اليسرى وهو فناء واسع جداً وقد جعلوا الدخول إليه مباحاً من دون تذاكر لأنه يعتبر خارج الجامع.

ويحيط بهذا الفناء المكشوف الذي كنا نسميه في القديم (سرحة المسجد) وهو صرحة المسجد بالصاد في الفصحى- أروقة بأقواس هلالية أندلسية فنية جميلة بنيت عندما بني القسم الثالث وهو الأخير من الجامع.

الحمام يلتقط الحب في فناء مسجد قرطبة المكشوف

وسقوف الأروقة من الخشب وأعمدته أو اسطواناته من الرخـــام ولكنهـــا قصيرة رشيقة وهي في حد ذاتها تحفة من التحف، بل إن هذا الصحن وما يحيط به من أروقة ممتدة يعتبر أثراً تاريخياً غالياً لو لم يكن يوجد إلا هي، ولكنها لم تحط بما يلزم لها من تقدير بالنسبة إلى ما عليه الجامع مـــن عظمـــة واتســـاع، وإتقان صنعة.

وما رأيت مثيلاً لهذا الفناء وامتداداً للأروقة حوله التي تركبها أقواس هلالية من المساجد القديمة إلا الجامع الكبير في مدينة بخارى ويسمونه هناك جامع كلان أي الجامع الكبير، لأن (كلان) كبير باللغة الفارسية، ولكن الصنعة والهندسة في أروقة فناء جامع قرطبة هذا لا تباريها أروقة جامع بخارى.

ومن ذلك أن المرء يرى هذه الأسطوانات بمعنى العمد في الأروقة وهي كثيرة ممتدة فلا يرى فيها واحداً زائداً في الطول أو العرض ولا إصبعاً واحداً إلا إذا اقتضى الأمر الفني ذلك مثل أعمدة الزوايا ونحوها.

ورأيت حماماً أخضر كحمام الحرم المكي، بل كالحمام في الحرمين الشريفين فذكرني مرآه بمرآى الحمام في داخل ساحة الحرم الشريف قبل أن يمنع وجوده بمعنى أن ذلك عندما كان يسمح بإلقاء الحبوب له داخل الحرم فيكثر فيه، ولكنه كان يسبب اتساخ الحرم لكثرته ووقوعه على أماكن ينبغي أن تظل نظيفة حتى ما هو مثل قذى العين.

ولكن الشيء الذي لاحظته وقد رأيت رجلاً معه خبزة وهو يفت منها فتاتاً صغيراً يلقيه للحمام هنا- في فناء جامع قرطبة- فيقبل الحمام على هذا الفتات مجتمعاً متزاحماً حتى يبدو كما لو كان سيتعامل عليه.

وقلت: لا شك في أن هذا من بخلهم، ولو كان الحمام هنا ينال كفايته من الطعام لما تزاحم على هذا الفتات هذا التزاحم العظيم.

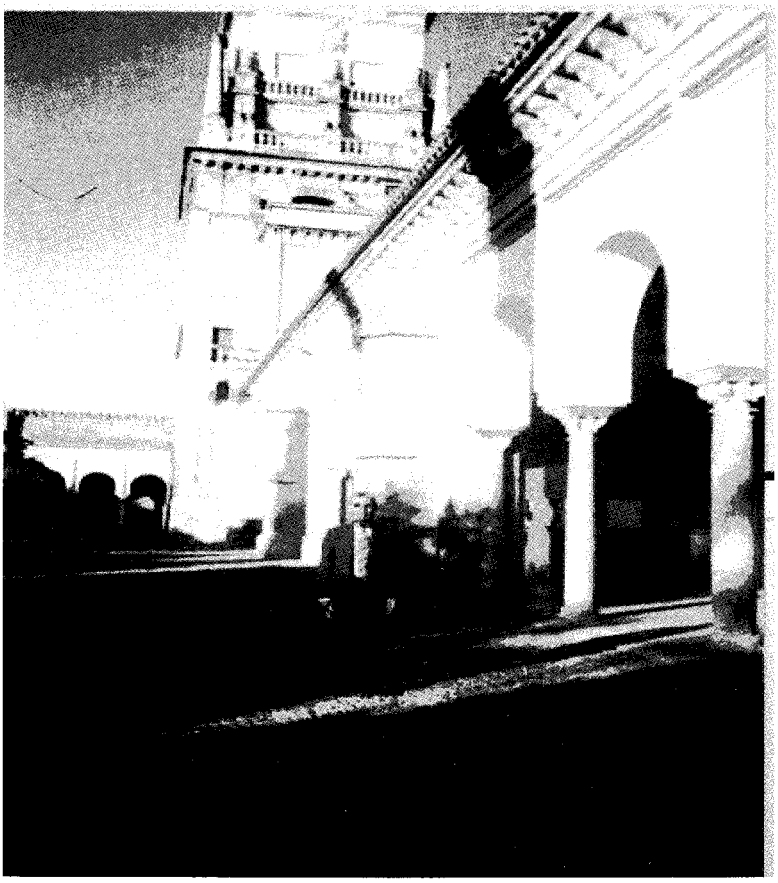

المؤلف أسفل منارة مسجد قرطبة

وتكسو أرض الصحن التي لا يستعملها أحد أشجار بعضها من أشجار البرتقال، وقلت في نفسي لماذا لا يطالب المسلمون هنا أو حتى على لسان قناصل الدول الإسلامية، الموجودين في قرطبة، أو حتى سفرائها في مدريد بأن يخصص مكان في هذا الفناء أو في أحد أروقته لمن أراد من المسلمين أن يصلي فيه فهو خارج ديوان المسجد الجامع وهو مفتوح للناس يدخله من أراد من دون رسوم أو تذاكر، بل حتى من دون أن ينتظر أحد من السلطات الحكومية أمره؟

المنارة المغطاة:

وهل تغطى المنارة؟

الجواب: إن التعصب النصراني في وقت من الأوقات قدجعلها تغطى فقد سبق أن ذكرت كيفية ذلك في الكلام على الجامع أمس.

وتذكرت هذا في صباح هذا اليوم عندما رأيت هذه المنارة المغلوبة على أمرها تطل على فناء الجامع المغتصب وقد ألبسوها رداء نصرانياً ستر- على زعمهم- ما كان لها من طابع إسلامي مميز.

وقد بحثت عن الشاهد الذي كان يعلوها في عهد المسلمين فوجدت بديلاً عنه برجاً لناقوس الكنيسة فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولاشك في أن من المصلحة العامة للإسبانيين من حيث المحافظة على المظهر الإسلامي للمنارة الذي كان منسجماً مع مظهر المسجد أن يبعدوا عنها ذلك الرداء النصراني المصطنع إذا كان يمكن ذلك من دون تشويه لها.

ومن الملاحظ أن سقوف هذه الأروقة كلها من الخشب وأنها أروقة قديمة بخلاف الجامع الذي سقوفه في غالبيتها قباب محكمة، وأن النصارى قد أفسدوا بعضها عندما وضعوا تحته كنيسة فأبدلوها بسقوف خشبية نقشوا عليها شعاراتهم والصور المستوحاة من ديانتهم ولكن ذلك كان على نطاق ضيق بالنسبة إلى سعة الجامع العظيم.

وقد وضعوا فوق الأعمدة تزيينات من البناء جميلة ومعظم هذه التزيينات على هيئة محاريب غير حقيقية.

العودة إلى قرطبة القديمة:

في أحد أزقة قرطبة القديمة

لم نكن غادرنا قرطبة القديمة وإنما كنا في المسجد والقنطرة التاريخية والقلعة العربية ثم فناء المسجد المكشوف وكلها تمثل عالماً جميلاً تاريخياً بل شاهداً عدلاً على ما بلغه أهل الأندلس المسلمون من مدنية وحضارة، ولكنني أردت أن أعود ثانية إلى ذلك الجزء النفيس من قرطبة القديمة الذي يقع إلى الغرب من (جامع قرطبة) لإلتقاط صور بعضه لم أستطع التقاطها في الليل، ولمعرفة أسماء بعض أزقته وشوارعه القصيرة، فلم يشق عليَّ ذلك، لذا وجدتني أسارع إلى صورة تذكارية في هذا الزقاق الداخلي الضيق.

الصليب فوق قصر الخليفة:

مر بنا القول بأن قصراً مميزاً يقع إلى جهة الغرب من جامع قرطبة محاذياً لجزء من الجامع لأن الجامع واسع ممتد عرف عندهم بأنه قصر الملك مع أنه لم يكن ولاة قرطبة بل الأندلس يتلقبون بالملك، وإنما كانت ألقابهم (الأمير) في أول الأمر ثم صاروا يلقبون بأمير المؤمنين فهو إذاً قصر أمير قرطبة أو قصر الخليفة في قرطبة، وقد تكلمت عليه ولم أدخله لأنه كان مغلقاً في مساء أمس، ذهبنا إليه في هذا الصباح فوجدناه مفتوحاً.

ويفصل بينه وبين الجامع شارع عرضه ٩ أمتار.

وكان أول ما أحزننا أن وجدنا قصر الأمير أو الخليفة يعلوه صليب لا يزال فوقه حتى الآن، ولم يكن للمسئولين أي اهتمام واعتبار لاستنكار قد يبدو من المسلمين المحليين في إسبانيا ولا المسلمين في دولهم وممالكهم لوجود الصليب فوق قصر الخليفة في قرطبة.

ومعلوم أن العصر الذي تخلص فيه الإسبان من المسلمين في الأندلس كلها كان عصر تعصب لهم، وربما فهم الناس أن يجعلوا على مثل هذا القصر صليباً، ولكنهم الآن في الوقت الحاضر قد زال عنهم ذلك التعصب، أو زال من أكثرهم، بدليل أنهم قد تهاونوا هم أنفسهم بدينهم المسيحي وأبطلوا كثيراً من شعائره أو تركوها للقسس والرهبان ومن يريد من غيرهم وأولئك قليل، فليس لهم إذاً عذر في إبقاء هذا الصليب الذي إذا أزيل لن يحزن لإزالته ذو بال.

وقد دخلنا القصر وإن لم نطف في أقسامه لضيق الوقت وعدم وجود الفائدة من ذلك فرأيناهم قسموه لكبره واتساعه إلى قسمين أحدهما اتخذوه متحفاً للفنون

الجميلة والثاني مقراً لرئاسة القساوسة في قرطبة، وكان هذا الأخير منذ زمن وهو الذي من أجله رفع الصليب على القصر.

ولم نشبع من التردد في أزقة قرطبة القديمة مع أن السير الطويل فيها متعب لأنها مبلطة بالحجارة القديمة أو التي على طراز القديمة فليست ملساء متساوية الأحجام، وإنما بعضها ناتي قليلاً وبعضها عكسه، إلا أنهم جعلوا فيها أرصفة ضيقة جداً لا تتسع إلا لماشٍ واحد بلطوها حديثاً ببلاط أملس.

وتدخل السيارات أعظمها ولكنها لا تكاد تتسع لسيارة واحدة.

مغادرة قرطبة:

غادرنا قرطبة القديمة في الحادية عشرة والنصف متوجهين إلى (غرناطة) وقد اخبرنا الدكتور صالح السنيدي أنه طلب من أحد الإخوة العرب في غرناطة أن يحجز لنا لدخول قصر الحمراء هذا اليوم في الثانية ظهراً أو قبل ذلك بنصف صاحة، قال: لأن الزوار للقصر من السياح وغيرهم كثير، يضيق بهم القصر لذلك صاروا يدخلون الناس بالترتيب، وبناء على حجز مسبق لهم.

وهذا عجب من العجب لأن الدخول برسوم كثيرة ومع ذلك يقبل الناس أكثر مما يتحمل المكان أن يتسع لهم.

لم يكن معنا في السيارة إلى (غرناطة) إلا الدكتور صالح السنيدي وهو سائقها ونحن الاثنين أنا ورفيقي في السفر الدكتور عبدالرحمن العيفان.

كانت مغادرة قرطبة مع شارع واسع قد غرست فيه نخلات من نخلاتنا العربية المباركة، وبركتها عندنا هي في هذا الجنى الطيب اللذيذ من البسر إلى الرطب إلى التمر ولكن بركتها في هذه الديار قد فارقتها فلا تتمر – بالتاء المثناة– وذلك لكون البلاد تأتيها أمطار صيفية وكون الحر في الصيف ليس شديداً وألزم ما يلزم لنضج التمر صيف حار جاف طويل.

وقد رأينا لافتة الطريق تعلن إن (غرناطة) تبعد عن قرطبة ١٦٧ كيلومتراً.

ولاحظت أن أرياف قرطبة وهي الأماكن الريفية المعمورة بالزراعة هي أخصب من التلال حتى إن بعض الربى المرتفعة خالية من الخضرة ومبعث الخضرة في أرياف قرطبة من أعشاب ربيعية وربيعهم هنا في الصيف أكثر عشباً من فصل الربيع بخلاف بلادنا التي يكون فيها الربيع إذا جادها المطر

معشباً حتى إذا حل الصيف بدأ بالذبول والاصفرار إلى أن يموت موتاً كلياً عندما يشتد ا لحر ويقوى سلطانه.

ولكن تلك الأرياف هي أكثر خصباً من منطقة مدريد وأكثر أعشاباً ومراعي من المراعِي البرية للماشية.

وعلى ذكر الماشية طرأ على ذهني سؤال عن المركوبات التي كان يركبها العرب في الأندلس وهي الإبل كما عليه الحال في الصحاري وفي الأسفار بين المدن من البلدان العربية أم هي غيرها.

ولا أعرف جواب ذلك بالضبط، ولكنني أعرفه مما قرأت عنهم أنهم يستخدمون في الانتقال الخيل والبغال والحمير.

وظني أنهم لابد أن يكونوا يستخدمون الإبل لأن مراعيها موجودة، والبلاد ليست شديدة البرد، بل إنها في برد بلاد الشام أو نحو منه.

ولا شك أيضاً في أن بعضهم يستعمل العربات التي تجرها الخيول لكونها القادرة على حمل الأثقال.

المزيد من الزيتون:

بدأت أشجار الزيتون تجلل الربى بعد أن قطعنا ٣٠ كيلومتراً من الطريق.

الطريق بين قرطبة وغرناطة، ربى تغطيها أشجار الزيتون

بلدة قصر النهر:

وصلنا إلى بلدة اسمها (كاسترو دي ريو) أي كاسترو النهر، لأن (ريو) في اللغات اللاتينية تعني النهر و(دي) أداة إضافة، وكاسترو عرفت معناها من غير هذه البلاد بأنه (القصر) ولم اتحقق من معناها هنا.

وتبعد هذه البلدة عن مدينة قرطبة بـ ٤٠ كيلومترا، وتعتبر من القرى القريبة منها.

ومررنا يمين الطريق ببلدة اسمها (قبرة) مشهورة بإنتاج الزيتون الذي رأينا أشجاره كثيرة واسعة، بل إن جميع أرضها- على وجه التقريب- مشغولة بأشجار الزيتون حتى تساءلت في نفسي مثلما فعلت من قبل عن كيفية لقط هذا الزيتون؟

ولا شك أن هذا السؤال لا يدل على السذاجة، لأنني رأيت أهل مدينة (باكو) في إذربيجان إبان الحكم الشيوعي الروسي لها إذا حان موسم قطاف الزيتون عطلوا المدارس ووجهوا تلاميذها لقطف ثمار الزيتون.

وربما كان لدى هؤلاء الإسبان وسائل أخرى تقنية لأنهم أرقى من الروس والوقت الآن حافل بالمخترعات والوسائل الحديثة أكثر من ذلك التاريخ.

ومعروف أن الزيت الإسباني يصدر إلى سائر أنحاء العالم ومنها بلادنا التي تستهلك مقادير كبيرة منه، رغم ما عرف حديثاً من كون المناطق الشمالية في نجد صالحة لإنتاج الزيتون، وقد بدأ الآن إنتاجه ولكن بمقادير قليلة وكذلك صلح في تبوك والجوف عندنا.

وحتى جنوب المملكة في جبال السراة قرب الطائف من جهة الجنوب حتى (أبها) يوجد فيه الزيتون البري الذي يسمونه (العتم) وقيل لنا: إنه إذا لقح صار زيتوناً خالصاً، ولا نعرف ذلك ولكن الذي أعرفه أنه إذا كان الزيتون البري يجود فيها فإن القياس يقتضي أن يكون الزيتون المعتاد ينمو فيها أيضاً قياساً على كثير من الأشجار والنبات الآخر.

ولو اعتنينا بالأماكن التي يمكن أن تنتج زيتوناً صالحاً للاستهلاك في المملكة لوفرنا مبالغ نقدية كبيرة على البلاد وأوجدنا إداماً رخيصاً مفيداً للناس.

بلدة باينا:

وصل الطريق إلى بلدة اسمها (باينا) وهي متسعة والقسم الأكبر منها في أعلى الجبل.

وقد خمنت أن اسمها عربي أصله باينة من البيان والظهور ولم أحق ذلك، بل لم نقف فيها ولم نحل فيها، وكان بإمكاننا ذلك لأن سيارتنا معنا، ولكن لم يسعفنا الحظ والوقت بذلك.

وهي قرية كبيرة ويمكن أن توصف بأنها بلدة صغيرة، بيوتها متطامنة وتبدو كما لو كانت تتعلق بالجبل لأنها صاعدة بصعوده.

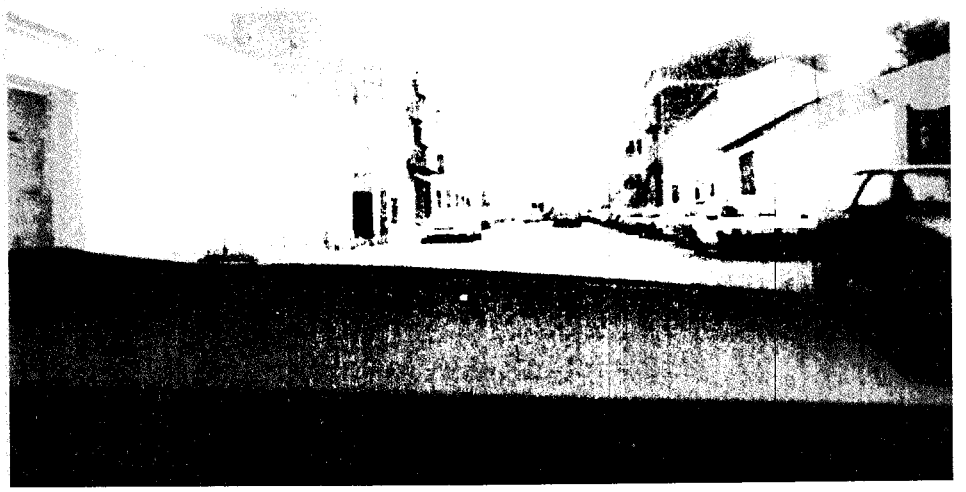

بلدة في الطريق بين قرطبة وغرناطة

ويخترقها الطريق الذي سلكناه فأفضى بعدها فجأة إلى شفير وادٍ يجري فيه نهير صغير تشرف عليه ربى غاية في الخضرة توشحه قطع من مزارع (دوار الشمس) الذي نسميه في بلادنا الشمسي بأزهاره الصفر الفاقعة، ويزرع هذا الشمسي في البلدان الباردة من أجل زيته للإدام، ومن أجل ثفله لغذاء الدواجن أما ورقه وأغصانه فإنها علف للماشية.

تكاثف الزيتون:

مع استمرار الطريق إلى غرناطة تكاثفت أشجار الزيتون، بل غابات أشجار الزيتون وصار يوجد بصفوف منظمة وطبقاً لأبعاد متساوية بين كل صف منها وآخر، وبين كل شجرة وشجرة أخرى بجانبها حتى خُيِّل إلينا أن القوم أرادوا أن يسرفوا في هذا الأمر، وليس ذلك لمجرد الزراعة المعتادة، لأنهم قطعوا الأشجار الوحشية التي هي البرية التي لم تغرس وكذلك أشجار الظل وزرعوا بديلة عنها أشجار الزيتون، حتى إنه في بعض المواضع تكون أشجار الزيتون هي التي تلي جوانب الطريق، أي هي المغروسة على جانبيه بديلة من أشجار الظل التي تكون على الطرق في العادة، مما ذكرني بمدينة (باكو) عاصمة جمهورية أذربيجان فقد جعلوا الأشجار التي على الشارع والطرق من أشجار الزيتون، هذه يشبه بما صارت البلديات عندنا تفعله من غرس النخيل في الشوارع.

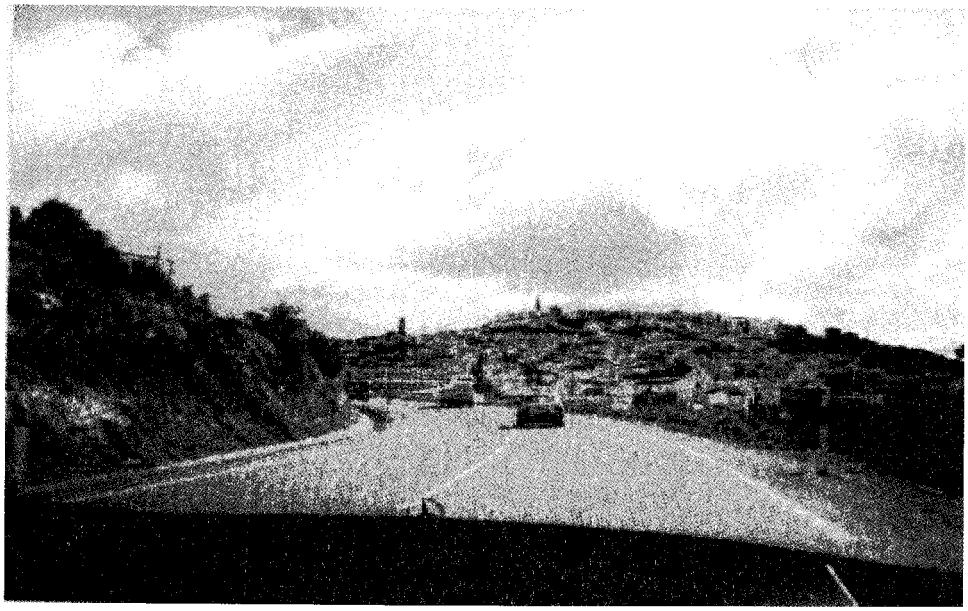

بلدة باينا بين قرطبة وغرناطة

وهو أمر مفيد إذْ فيه المنظر والظل والعائد الذي قد يحتاجه الناس إذا ألجأهم الزمن إليه.

بلدة الكاوديت:

ذكر لنا الأخ الدكتور صالح السنيدي الذي يعرف الإسبانية لأنه درس الدكتوراه في جامعة غرناطة أن معنى (الكاوديت) هو الشجاع بالإسبانية، وهذا يوحي بأن اسمها إسباني مع أن هذا لا يمنع من كونها ذكرت في المراجع العربية بهذا اللفظ أو بما يقرب منه مما استعمله لها العرب مثلما استعملوا الأسماء الأعجمية لقرطبة وغرناطة وطليطلة وإشبيلية.

في بلدة (الكاديت) هذه تلة مرتفعة واحدة فوقها قلعة عربية فيما يظهر من ظاهرها.

في الطريق بين قرطبة وغرناطة

حدود ولاية غرناطة:

تتصل ولاية قرطبة بولاية غرناطة أي لا تفصل بين ولايتيهما أرضً أخرى، وقد وصلنا إلى حدود ولاية غرناطة في الواحدة إلا عشر دقائق وقد بقيت على الوصول إلى مدينة غرناطة نفسها نحو ٣٦ كيلومتراً.

وفي داخل حدود الولاية وصل الطريق إلى قرية اسمها موكلين وهي صغيرة أغلب بيوتها من طابق واحد.

بلدة كاسترو دي ريو بين قرطبة وغرناطة

وقد مررنا بعدة قرى أو بلدان صغيرة لا شك في أن بعضها ذات تسميات عربية بمعنى أن اسمها سواء أكان عربي الأصل أو أسباني الأصل كان معروفاً عند العرب ولكننا لم نقف عندها، ولا كان معنا من يفيدنا بشيء من أحوالها.

قال الشريف الإدريسي في (نزهة المشتاق) وهو مغربي يعرف الأندلس معرفة حقيقية وقد عاش في القرن السادس الهجري:

ومدينة غرناطة محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة فخلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة، مدَّنها وحَصّن أسوارها وبنى قصبتها حبوس الصنهاجي ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن وهي مدينة يشقها نهر يسمى حدروا وعلى جنوبها نهر الثلج المسمى شنيل ومبدؤه من جبل شلير وهو جبل الثلج، و ذلك أن هذا الجبل طوله يومان وعلوه في غاية الارتفاع والثلج به دائماً في الشتاء والصيف.

غرناطة: مدينة بالأندلس بينها وبين وادي آش أربعون ميلاً وهي من مدن البيرة، وهي محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة إلبيرة فخلت وانتقل أهلها إلى اغرناطة، ومدَّنها وحصَّن أسوارها وبنى قصبتها حَبُّوس الصنهاجي ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس، فكملت في أيامه وعمرت إلى الآن، ويشقها نهر يسمى حَدَرُّهْ وبينها وبين إلبيرة ستة أميال، وتعرف بأغرناطة اليهود لأن نازلتها كانوا يهوداً.

وهي اليوم مدينة كبيرة قد لحقت بأمصار الأندلس المشهورة، وقصبتها بجوفيّها وهي من القصاب الحصينة، وجلب الماء إلى داخلها من عين عذبة تجاورها، والنهر المعروف بنهر فلُوم ينقسم عند مدينتها قسمين: قسم يجري في أسفل المدينة وقسم يجري في أعلاها يشقها شقاً فيجري في بعض حمّاماتها وتطحن الارحاء عليه خلال منازلها، ومخرجه من جبل هناك، وتلقط في جريه مائه برادة الذهب الخالص، ويعرف بالذهب المدني، ومقبرة أغرناطة بغربيها عند باب البيرة، وفحص إلبيرة أزيد من مسافة يوم في مثله يصرفون فيه مياه

الأنهار كيف شاءوا كلّ أوان من جميع الأزمان، وهي أطيب البقاع بقعة وأكرم الأرضين تربة لا يعدل بها مكان غير غوطة دمشق وساحة القيوم، ولا يعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص، وما من فاكهة توصف وتستطرف إلا وما هناك من الفاكهة يفوقها، ويجود فيها من ذلك ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبههما.

وحرير فحص إلبيرة هو الذي ينتشر في البلاد ويعم الآفاق، وكتان هذا الفحص يربي جيده على كتان النيل ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين، وبإلبيرة معادن جوهرية من الذهب والفضة والصفر والحديد والرصاص والتوتياء، وجبل الثلج هو جبل يشرف على جبل إلبيرة.

إنتهى كلامه.

هذه غرناطة:

لابد أولاً من أن نذكر معنى اسمها ثم نذكر رسمها، أما أسمها فإن معناه (رُمَّانة) وذلك لكون الرمان يكثر فيها شجره، ويجود فيها ثمره.

ومما يدل على عدم اطلاعي أنني عندما كنت في مدريد التقيت في مكتب مدير المركز الإسلامي في مدريد بأحد الإخوة الإسبان المسلمين وهو رئيس جمعية إسلامية في غرناطة ومن أهلها فقلت في نفسي: إن هذه فرصة تنتهز لسؤاله عن معنى كلمة (غرناطة) فأجاب مسرعاً: إنها تعني (الرُمَّانة) وقد فرحت بذلك و لكنني عندما عدت إلى المملكة رجعت إلى كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي وجدته يذكر أن معنى اسم غرناطة في الأعجمية هو (رمانة) فعجبت من كونه رحمه الله عرف قبل ثمانية قرون أو نحوها معنى اسمها، رغم بعده عن مكانها إذْ كان قضى معظم حياته في الشرق الإسلامي ولم يزر الأندلس.

وأما رسمها فإن العلماء الأوائل من العرب الذين سجلوا اسمها ذكروها بلفظ (اغرناطة) بإثبات همزة في أول الاسم، وأقدم من رأيته ذكر ذلك الإدريسي في (نزهة المشتاق لاختراق الآفاق) ثم وجدت صاحب كتاب (الروض المعطار، في أخبار الأمصار) قد ذكرها كذلك بإثبات الهمزة وهو مغربي مثل الشريف الإدريسي وينقل كثيراً عن الإدريسي، ولكن لم يثبت أنه زار الأندلس كما فعل الشريف الإدريسي رحمه الله.

ويأتي الزمن الحديث فنعرف أن الأسبان يسمونها (إقرنادا) بإثبات الهمزة في أول الاسم، وهو الذي عرب بلفظ (اغرناطة) بإثبات الهمزة أيضاً، غير أن الشائع الآن هو حذف الهمزة في أوله، وهذا كان شائعاً أيضاً في القديم، لذلك ذكرها أهل المعاجم في حرف الغين، وممن فعل ذلك، ياقوت الحموي رحمه الله، ولذلك دوناها بهذا اللفظ الشائع حتى الآن (غرناطة) بدون ألف في أوله.

الاسم الشاعري:

اسم (غرناطة) بالعربية و(إقرنادا) بالإسبانية هو اسم شاعري سميت عليه مؤسسات كثيرة على مستوى العالم مما هو مطلوب له حسن اللفظ وشاعريته من حدائق وفنادق وميادين وشوارع، وكثير منها في البلدان العربية وفي الرياض على سبيل المثال حي جديد في شرقيها اسمه (حي غرناطة).

بل سميت باسم (إقرنادا) الإسباني دولة هي (دولة اقرنادا) في البحر الكاريبي الواقع بين القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية، وقد زرت تلك الدولة وتكلمت عليها في كتاب مطبوع عنوانه: (قرينادا وسانتالوسيا ودومينكا).

مدينة غرناطة

ولذلك لم استغرب عندما شعرت وأنا أقترب من مدينة غرناطة بالجمال الذي يفرض نفسه وأرجعت ذلك أول الأمر إلى الخصب الظاهر في ضواحي المدينة وإلى نضارة النبات ولدونة أغصان الأشجار.

وقد بدت لنا المدينة من الطريق في الجهة اليسرى وسهل زراعي نضر في يمينه، والجو غائم، فصرت أشعر بالجمال ولا أدري مبعث ذلك.

وكأنما هذا هو كقول أحد الأدباء في وجه جميل: إنه يشعر من يراه بالجمال، وإن لم يدر مكمن ذلك الجمال، بل ولا كنهه ولا كنه الشعور به.

حمراء غرناطة:

دخلنا إلى غرناطة مع شارع جيد، ومع ذلك رأيتهم يوسعونه وصعدنا مباشرة للجبل الذي تقع فيه الحمراء المشهورة بالحمراء فقط، ذلك لكون موعد دخولنا إليها قد أزف، إذْ لابد في دخولها من حجز لكثرة الداخلين بل لكثرة طالبي الدخول فيها.

وذلك رغم غلاء رسوم الدخول، وقد اخبرنا الإخوة العرب من العاملين فيها بعد ذلك أن قصر الحمراء الذي يسمونه (قصر الملك) وهو الذي فيه عجائب الآثار لا يتسع لأكثر من ٤٨٠٠ سائح حسب ما قررته الحكومة الإسبانية على اعتبار أن بعض السياح يكون معهم أدلاء وبعضهم يحتاج إلى مدى لكي يصور بمصورته ما يشاء، وإذا زاد طالبو الدخول على هذا العدد وقفوهم إلى دفعة ثانية.

وقال الإسبانيون المشرفون عليها إن الآثار قد تتضرر بالزحام إذا تزايدت أعداد السياح داخلها وهذا ظاهر.

صعدنا إلى الجبل الذي تقع فوقه الحمراء وليس بالعالي، وعليه بيوت مطلية بطلاء أحمر وتربة الأرض حمراء، والبيوت صاعدة مع صعود الجبل حتى وصلنا هدفنا المنشود وهو (الحمراء) دخلنا إلى موقف واسع للسيارات بجانبها، بل بجانب الساحات المكشوفة والميادين

التي تزخر بالآثار، وإن كانت مباحة لدخول من يشاء، وإنما الرسوم لمن يريدون دخول قصر الملك كما يسمونه.

فوجدنا جميع المواقف مشغولة بالسيارات وكدنا أن نيئس، وتحيرنا ماذا نعمل إذا لم نجد مكاناً نوقف فيه سيارتنا مع أن الوقوف بتذكرة حسب الزمن الذي تقضيه السيارة داخل المواقف مثل غيره في أنحاء العالم، و لحسن حظنا صادفنا شخصاً يريد الخروج بسيارته فأسرعنا نلصق به لأن هناك سيارات غيرنا لم تجد موقفاً فأوقفنا السيارة فيه.

وذهبنا سيراً على الأقدام إلى مدخل الحمراء.

كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف، وصادفنا أحد الإخوة العرب من العاملين فيها وهو فلسطيني كان قطع التذاكر لنا أمس وذكر أن موعد دخولنا هو الثانية، وقال تستطيعون إذا جئتم بعد الثانية أن تدخلوا ولو تأخرتم شرط ألا تتأخروا إلى السادسة لأنها تغلق في السادسة دون الداخلين.

وجدنا بابها الرئيسي عليه لافتة بل كلمة واحدة ضخمة بالعربية (الحمراء)، وتحتها بحروف أصغر (الهمبرا) بالإسبانية لأنهم يزيدون في اسمها باء.

وجدنا أفواج السياح صفوفاً على مداخلها طويلة كلهم ينتظر مجرد وضع الإشارة على تذكرته ثم الإذن له بالدخول.

وقد أخبرنا الأخ الفلسطيني الذي يعمل فيه واسمه محمد ونسيت باقي اسمه أن الأفواج السياحية يحجز لها وكلاء السياحة المنظمون لرحلاتهم في أوقات مبكرة، وقال: ومع ذلك طاقتها الاستيعابية محدودة بالنسبة إلى الألوف المؤلفة من السياح الذين يريدون دخولها.

ووجدنا الزحام الشديد عليها حتى على مقصف قريب من مدخلها يبيع الأشـــربة الباردة و الحارة وليس فيه كراس، إذ وجدنا الناس صفوفاً أمامه كل يريد أن يشـــتري منه، هذا وقد اشتد البرد مما لم أجد له نظيراً في مدريد ولا في قرطبة.

المأدبة التي أفسدت البرنامج:

انطلق بنا الأخ الدكتور صالح السنيدي بسيارته ونحن نفهم أن ذلك بينما يحين موعد دخولنا في الساعة الثانية، واخترقنا شوارع عديدة من شوارع غرناطة من دون أن نعرف عن أسمائها شيئاً، ولا عن ميادينها، وذلك أن أفكارنا متعلقة بدخول الحمراء، وفي أملنا أن نقوم بعد ذلك بجولة في شوارع غرناطة وتبين لنا أن معظم مباني المدينة حمراء مختلطة ببيضاء والمراد بذلك الشوارع الحديثة وقد غام الجو واشتد البرد ولذلك رأيت أكثرهم قد ارتدوا ملابس ثقيلة.

ثم خرجنا من المدينة إلى ريف لم ندر ما المقصود منه إلا أن الدكتور السنيدي قال: إننا ذاهبون إلى محل الغداء، أليس الأفضل أن تتغدوا قبل أن تدخلوا إلى الحمراء لأن دخولها يحتاج إلى وقت طويل، فقلت له: الأفضل أن نتغدى في مطعم قريب منها وليس هذا الذي هو خارج المدينة.

فقال: نحن مدعوون على الغداء، أنا أخبرت فلاناً أننا موجودون وطلبت منه أن يعدوا لنا الغداء!

وصلنا إلى منطقة (بونتانو دي كوبياس) على بعد ٨ كيلات من حدود مدينة غرناطة ودخلنا منزلاً وجدنا فيه ثلاثة من الإخوة العرب من سوريا وفلسطين وهم يعملون في إعداد الغداء في بيت خالٍ، ولكنه مؤثث ذكر أنه لرجل إسباني صديق لأحدهم- وهو ريفي تماماً بحيث أنه لا يوجد في الشارع المقابل له من جهة الغرب أي بيت قريب وإنما البساتين وتجمعات بيوت قليلة بعيدة.

وقد أبطأ علينا الطعام ثم جاء الإخوة به وهم ثلاثة اثنان من سوريا والثالث من فلسطين وكلهم يحمل شهادة الدكتوراه وهو طعام شامي أشرفوا على صنعه

فهو حمص بجانبه زيتون محلي كثير- ونحن في بلاد الزيتون بخاصة غرناطة- وقد أمعنا فيه أكلاً ثم جاءوا بالكباب الشهي والأرز مع السلطة الخضراء.

المؤلف معه عنقود عنب قطعه من حديقة المنزل خارج غرناطة

وبعد وقت انتقلنا إلى مكان آخر من هذا المنـــزل فجـــاءوا بالشـــاي، وكـــانوا يخدموننا بأنفسهم إذْ ليس معهم خادم في هذا البيت ثم صلينا الظهر والعصر جمعاً.

وكان من ألطف ما فيه أننا نزلنا إلى حديقة صغيرة لهذا المنـــزل ولكنهـــا مثقلة بالثمار ومنها تين أسود، والأجود منه ذلك العنب الأســـود الـــذي كانـــت عناقيده تتدلى من عرائشه على ارتفاع قامة الرجل، وهو من العنب الذي يؤكـــل فاكهة ولا يعصر خمراً فأكلنا منه والتقطنا الصور التذكارية.

منظر الجبل الثالج:

هذه الدعوة على الغداء افقدتنا و قتاً ثميناً إذْ كنا نؤمل أن نزور الحمراء في سعة من الوقت حتى ننتهي من الإطلاع على مدينة غرناطة والجولة فيها مع صباح الغد، وقد عرفت من أخينا وزميلنا الدكتور صالح السنيدي أنه أقام في غرناطة عشر سنين للدراسة منها سنتان لتعلم اللغة الإسبانية لذا صارت رؤية ما فيها مالوفة له لا تثير اهتمامه، وكان قال لي: إنه سيكون دليلنا فيها، ولكنني قلت له وللإخوة: إنني أريد أحد الإخوة العرب يصحبنا في زيارة الحمراء حتى يشرح لنا ما نحتاج إلى شرحه من حالها.

فتراجعوا بينهم، وقالوا إنه الدكتور غَطفان، ولما كنت أعرف أن غطفان اسم قبيلة عربية كان تقطن شمال المدينة الشرقي، وعلى حدود نجد من الحجاز وتهامة عند البعثة ولم أكن أتصور أن يوجد شخص اسمه (غطفان) لذا استعدت منهم الاسم الذي ألفوه فقالوا: هو أخونا غطفان....

ولكن نرجو أن نجده وقد وجدوه وكان هذا من حسن حظنا، لأنه محب للبحث حقاً ولديه معلومات عامة، وتقيم معه زوجته هنا بل إنه يعمل في غرناطة مع الإذاعة العربية التي بدأت تذيع بالعربية من غرناطة لغرض تجاري وسياحي.

واعدناه مكاناً معيناً قريباً من بيته لنلتقطه منه ونحن نسابق الوقت إذْ كان الإخوة أخبرونا أن قصر الحمراء الذي يسمونه قصر الملك يغلق الساعة السادسة.

كان من المناظر الشيقة في غرناطة عندما كنا خارجها منظر جبال (سيرنفادا) التي كان العرب يسمونها جبال الثلج، وقد ارتدت منذ الشتاء حلة لا تخلعها أبداً من الثلج الناصع البياض، وتقع إلى الجنوب من غرناطة ترى منها ولكنها لا تحاصرها، وإذا كان المرء في وسط المدينة لم يرها واضحة لأن دونها جبالاً أخفض منها ليس على رؤوسها ثلج.

ولم يكدر من منظر تلك الجبال الثالجة إلاّ وجود غيم أبيض يكـــاد لونـــه يختلط بلون الثلج.

وهذا الثلج هو الذي يمد نهري غرناطة اللذين اسمهما (شانيل) و(حُدَّره) بالمياه.

وسيأتي الكلام عليهما فيما بعد.

لقد ذكرني منظر هذا الجبل الذي يقع إلى الجنوب من المدينة بمنظر مشابه له واقع في جنوب مدينة (الماتا) عاصمة جمهورية قازاقستان، ويرى منها كما يرى جبل غرناطة هذا من غرناطة، ولا يفارق الثلج كتفيه أبد الدهر، وقد ذكرت ذلك في كتاب (حديث قازاقستان).

رجعنا عائدين إلى مدينة غرناطة مع طرق خارجها غير واسعة و لكنهـــا جيدة حتى دخلناها مع جسر واسع نوه المرافقون بأن هذا الجسر مثل جسور عدة غيره، إنما بني بعد انضمام إسبانيا إلى السوق الأوروبية المشتركة، مع أنـــه لا تزال تواجه السيارات في داخلها إشارات مرور كثيرة بسبب نقـــص الشـــوارع المستقيمة التي فيها أنفاق أو جسور فيها، وهذا في أكثر مدن إسبانيا وبخاصة في الأقسام القديمة منها لصعوبة شق الأنفاق وبناء الجسور، لأنه يترتب عليه هـــدم بيوت كثيرة ذات طابع عريق فيها.

الدخول الى الحمراء:

كنا مسرعين مشفقين بل وجلين من أن يفوت الوقت المحدد لدخول الحمراء هذا اليوم وبنا شوق لرؤيتها كما أن غداً له عندنا برنامج آخر، ولذلك لم يمكـــن ملء شريط جديد للمصورة كما كنت آخذه في كل مرة عندما أريد الذهاب إلـــى موقع مهم.

ووصلنا إلى بوابتها في السادسة وخمس دقائق، ومن عجلتي أن سقطت نظارتي وسقطت إحدى زجاجتيها فلبستها بزجاجة واحدة، ودخلنا نلهث إلى الحمراء ونحن نصعد درج المدخل من الشارع وليس من مواقف السيارات.

وعندنا سمحوا لنا تنفسنا الصعداء والمراد من ذلك دخول القصر الملكي ولكن المصورة لم يبق فيها متسع إلا لعدد قليل من الصور والنظارة بزجاجة واحدة.

ومع ذلك نسيت ذلك كله وأنا أطل من الحمراء العالية إلى حي (البيازين) تحتها وأشم بفكري ووجداني رائحة التاريخ التي تتسم لنا بالزهو ممزوجاً بالآسى.

المِشْوَر:

قاعة في الحمراء يبدو من نوافذها حي البيازين في غرناطة (تصوير المؤلف)

بكسر الميم وإسكان الشين وفتح الواو: مصطلح مغربي يدل على المكان الذي يستقبل فيه حاكم البلاد كبار زواره والذين لهم مشكلات أو أمور تقتضي العرض عليه، بجانبه مكان للصلاة فيه مجلس يطل من النافذة على حي البيازين القديم.

ولا يمكن وصف هذا المِشْوَر الذي فيه قاعة فاخرة مزينة بالنقوش والكتابات العربية بالخط الكوفي إلا بأن نقول: إنها الحمراء الأندلسية التي تنفرد بهذا البهاء والروعة من بين آثار العالم الباقية من القرون.

فالتزيينات والنقوش، بل والعبارات العربية المكتوبة عليها بطريقة فنية لا تقتصر في مراعاة الجمال على النقطة التي ينظر إليها الناظر منها، وإنما تنسجم مع الجو الفني المفعم بالجمال الذي يسود القاعة كلها.

في قصر الحمراء مع الدكتور العيفان

ولا يمكن للقلم أن يذكر تفاصيل ذلك كله إلا إذا لبث فيها أياماً وأشهراً ولكنه يعجب من دقة المقاسات بين السطور في مواضع الفسيفساء (السيراميك) الأندلسية بحيث لا يكون فيها نشاز أو ميل أو تعرج إلا وفق ذوق فني بديع، ومن العبارات العربية المكتوبة فيها (الملك لله) (القدرة لله) و(العز لله) مكررة في عدة مواضع.

أردت أن أقيد نقاطاً مما يستثير الإعجاب فيها فلم استطع لأنها كلها تتسم بالبهاء وتثير الإعجاب، بل تثير الطرب، وتخيلتها لغيرنا نحن العرب فتصورتها تحفة فنية رائعة لا يملك من يراها إلا الإعجاب بها، بل عدم الرغبة في مغادرتها إلاّ بعد أن يستمتع بها كلها، وذلك يحتاج إلى أيام هذا لو افترضنا أنها لغيرها أي من مخلفات أمة من الأمم الآخرى، أما إذا شاهدها العربي وهي من مخلفات عرب مسلمين من بني قومه فإنه يعجب ويزهو، بل يفخر بأن العرب المسلمين قد بلغت بهم المدنية ووصلوا إلى درجة من السمو الفني إلى أن يصنعوا هذه الأشياء التي لم يكونوا يفكرون بانها وقتية معرضة للزوال، وإنما هي صنعت لتقاوم القرون، وتبقى شاهداً على حضارتهم وتفكيرهم البعيد لمن يأتون بعدهم من الأمم.

وهكذا يتخيل العربي من واقع ما يشاهده الآن من أفواج السياح الذين جاءوا من أنحاء العالم ليشاهدوها، ومثيلاتها في بلاد الأندلس، ويرى فيهم الأوروبيين الذين جاءوا من بلاد أوروبية قريبة وفيهم من هو ذو مظهر أوروبي ولكنه قادم من بلاد بعيدة كالأمريكيين الشماليين والأستراليين والنيوزيلنديين.

وأما اليابانيون ومن لف لفهم وأشبههم في الخلقة من أهل الشرق الأقصى فإن لهم وجوداً ظاهراً هنا بين السواح.

و(المشور) هذا يمكن أن يترجم (مجلس السلطان) لولا أن للسلطان مجالس عدة كل مجلس مخصص لغرض من الأغراض.

في جانب من المشور مصلى فيه محراب كتبت فوقه عبارة: (لا غالب إلاّ الله).

ساحة الغرفة الذهبية:

من المشور خرجنا إلى ساحة أو فناء (الغرفة الذهبية) تحيط به أروقة غاية في الروعة والجمال، ومع ذلك هي رشيقة قوية حتى إنها صمدت للعوامل الطبيعية على مر السنين، وصمدت للزلازل والاهتزازات، فلم تزدها إلا رسوخاً ولم تفقد بسبب ذلك أي شيء من رونقها فضلاً عن قوتها.

ساحة الغرفة الذهبية

وفي حيطان هذا الفناء نقوش وتزويقات بديعة ترتفع بارتفاع الحائط إلى ما يعادل ارتفاع أربعة طوابق أو نحوها.

والأقواس المحيطة بالساحة تركبها أقواس عربية أندلسية بديعة ذات أشكال هلالية.

وقد تكررت عبارة (لا غالب إلا الله) التي قال بعضهم إنها شعار ذوي الأمر والنهي من أهل غرناطة، وعبر بعضهم عن ذلك بعبارة أخرى وهي إنها شعار سلاطين غرناطة ويعجب المرء أشد العجب من الاصباغ التي كونت منها النقوش ومن الكتابة العربية المتقنة المحفورة على الصخر وكل الكتابات والعبارات والآيات القرآنية الكريمة كلها بارزة على الحجارة، وكنت تحيرت أول الأمر في الطريقة التي استعملوها في الكتابة البارزة على الصخر حتى رأيت بعد ذلك في أحد ممرات القصر غير المعتنى بها حجارة ساقطة كأنها البلاطة الكبيرة فإذا بها عليها الكتابة البارزة في الحجارة، و إذا بهم ينقشون الصخر حتى تصبح الكتابة بارزة عليه ثم بعد أن يقطعوه قطعاً متناسبة فنياً ثم يلصقون بعضه ببعض على الجدر والحيطان، وبذلك تكون العبارة الواحدة مكتوبة على عدة ألواح من الحجارة الملصقة بطريقة فنية لا يفطن الواحد منا إلى وجودها أي إلى وجود تلك المادة التي ألصقت بها.

فناء الرياحين:

كان معنا الأخ الكريم الدكتور غطفان العلواني الذي لازمنا طيلة الجولة في الحمراء، وأفادنا بمعلومات وفسر لنا كثيراً مما أشكل علينا فيها.

مبنى قديم في غرناطة

انتقلنا معه إلى فناء يسمى (فناء الرياحين) وبعضهم يسميه (قاعة قمارش) ولا أعرف معنى قمارش وأما فناء فإنها مستعملة حتى الآن في البلاد المغربية، ومن أهم ذلك الميدان المسمى ساحة الفناء في مراكش والمسجد الكبير الذي يقع عليه المسمى جامع الفناء وهو بكسر الفاء وبعض الجهال ينطق بها بفتحها التي معناها الهلاك، ولا يسمى أحد مكاناً عزيزاً عليه باسم يدل على ا لهـــلاك، وقـــد ذكرت أمر ذلك الفناء في مراكش في كتاب (الإشراف على أطراف من المغرب العربي).

وتحيط بهذا الفناء عقود تركبها عمد رشيقة في تناسب عجيب ووفـــق ذوق راقٍ لم تؤثر على قوتها أو تحملها عوادي الزمن.

ومن الكتابات العربية التي لا تخلو منها أية غرفة أو فناء أو أي مكان لـــه أهمية في الحمراء كتبوا على هذا الفناء مما كتبوه.

(عز مولانا السلطان أبو عبدالله) و(الشهادتان): (لا إله إلا الله محمد رسول الله) و(لا غالب إلا الله) وقصيدة شعرية أولها:

طلعت بأفق العاليـــة برحمـــة ليجلو ما قد كبا من ظلمـــات

وهي مكتوبة بخط كوفي يبدو أن في بعضها شيئاً من اللحن حسبما تـــرآى لنا من قراءتها.

قاعة السفراء:

وهذه القاعة فاخرة ولكنها ليست بالغة الاتساع وهي قاعة السفراء يســـتقبل فيهـــا السلطان سفراء الدول الأجنبية الذين يأتون بسفارات أي رسائل يحملونها من الملـــوك أو الأمراء إليه، وهي أيضاً يستقبل فيها سفراء الدول وقناصلها لديه مع اختلاف الاصطلاح في سفير ونحوه عندهم كما هو عليه الآن، فيما يتعلق بدقة ذلك، أو عدمها.

وهي عالية السقف إلى درجة أن ارتفاعها يعادل ارتفاع خمسة طوابق من الأبنية الحديثة عندنا.

ورأيت فيها مصباحاً فاخر الصنعة ذكر لنا مرافقنا الدكتور غطفان.... أن ظله يقع على مجلس السلطان ليصدق عليه ما جاء في الأثر من أن السلطان ظل الله على الأرض.

وجميع حوائط هذه القاعة العالية السقف منقـــوش بنقـــوش فنيـــة دقيقـــة، وبأصباغ قاومت الزمن فلم يتمكن من محوها، وبكتابات عربية وعبارات عربية،

وحتى الفسيفساء (السيراميك) عليها رسوم زهور تكون أحياناً موزعة على بلاطات صغيرة عديدة ولكنها موصولة بحيث تبدو كما لو كانت بلاطة واحدة عليها رسم زهرة واحدة.

وقد لاحظت كما في أماكن أخرى أنهم قد يكتبون بأنواع من الخط الكوفي أوما اشتق منه غير الكتابة السائدة عندهم بالكوفي، مثلما نعمل نحن الآن بأنواع الكتابة العربية وإن كانت الكتابة عندهم أقل تنوعاً مما هي عندنا.

الروازن الفنية:

كان في بيتنا في بريدة كوى- جمع كوّة- وهي النافذة غير النافذة في الجدار- ان صح التعبير- فهي تكون في الجدار على هيئة نافذة صغيرة إلا أنها تكون مثلثة قاعدتها أسفلها و طرفها الضيق أعلاها، وقد يكون أعلاها وهو رأسها مقوساً غير حاد الرأس.

وتكون أكثر ما تكون في غرفة القهوة التي هي غرفة الاستقبال التي يجلس فيها الرجال يشربون القهوة ويستقبلون فيها ضيوفهم، وأذكر أنه يوجد في (قهوتنا) عدة منها كان والدي رحمه الله يضع فيها المرآة والمشط الذي يمشط به لحيته أما شعر رأسه فإنه كان يحلقه، ولا يتركه يطول، رغم كونه شاب وعمِّر دون أن يصيبه الصلع، وكان يضع فيها أيضاً مقصاً.

وبعضهم يسميها الروزنة وكان أهلها يسمونها كذلك (روزنة) أو كوة.

وقد رأيتهم هنا في أماكن عديدة من قصر الحمراء قد وضعوا مثل هذه (الراوزن) أو الكوى في حيطان الأماكن المهمة ولكن شتان ما بينها وبين ما كان عندنا فبيوتنا كانت من الطين و(الستاد) بمعنى المعلم الذي يبنيها كثيراً ما يجافيه

الذوق السليم وليس فيها أي تزيين أو تزويق إلاّ كونها تطلى بالجص الأبيض إذا كانت (القهوة) التي هي فيها مجصصة مع إطار حولها من الجص، وكثيراً ما يفسد ذلك الجص أو يسودّ من الد خان الذي يعبق به المكان لكون النار توقد فيه بكرة وعشيا من أجل صنع القهوة أو من أجل التدفئة في الشتاء.

وأما الراوزن أو الكوى في هذا القصر العظيم الفاخر (قصر الحمراء) فإنها مكسوة بالفسيفساء الملونة الجميلة التي قاومت عوامل الدهر، وما زالت على رونقها وجمالها، وفيها تزيينات أخرى في تناسب عجيب.

ويتقدم (قاعة السفراء) فناء عليه أروقة جميلة وقد زينوها بأقواس عربية وزينوا حيطانها بالنقوش والفسيفساء وكتبوا عليها أشعاراً بالعربية منها قصيدة في مدح السلطان أولها:

فيا ابن العلى والحلم والبأس والندى ومن فاق آفاق النجوم إذا انتمى
طلعن بأفق المليك رحمة يجلوا ما قد كان بالظلم أظلما

وظني أن صحة هذا البيت:

طلعن بأفق للمليك ورحمة

وبعد هذين البيتين بيتان آخران.

وقد كتب هذا الشعر وغيره على هيئة زنّار.

فناء الأسود:

ليس في الحمراء تماثيل ولا صور مجسمة إلاّ هذه الأسود- جمع أسد- في فناء الأسود الذي هو فناء تحيط به الأروقة المزوقة على الطريقة الأندلسية المعهودة.

وسمي (فناء الأسود) لأن فيه تماثيل لـ ١٢ أسداً من الحجارة المنقوشة، وكان الماء يخرج من أفواهها على هيئة نوافير.

وقيل: إنها كانت مقسمة إلى أقسام في كل مرة يصيب الماء من فم أسد دون آخر ولم يعرف المهندسون المحدثون السر في ذلك، فحاول مهندس أيطالي أن يعرفه فخربها فصار الماء يخرج من أنوفها كلها.

وكان الماء يخرج من فم الأسود واحداً بعد الآخر بصفة فنية منتظمة، وفق توقيت محدود، ثم أوقف جريان الماء إلى جهتها، وصار الماء لا يخرج مطلقاً.

وتحيط بفناء الأسود أروقة تحملها عقود في غاية الروعة والجمال تحتها الأعمدة أو الأسطوانات الرشيقة الجميلة.

جميع ما ذكرناه مغطى بنقوش وتزيينات على الفسيفساء، أو ما يسمى بالسيراميك أو البلاطات حتى صار كل جزء منه، بل كل متر منه أو شبر تحفة فنية رائعة بحيث يستحق أن يزار ويرى لأنه قد مضت على وضعه وبنائه مئآت السنين، إضافة إلى الفن الجميل، والذوق الراقي الذي بني به وأقيم على قواعده.

وكله بدون استثناء فيه كتابات عربية من جمل أو أبيات شعرية أو آيات قرآنية ولكنني لاحظت أنهم يكتبون الشعر على هيئة زنار وهو الذي يكون في الحائط وسائراً معه على خط عرضي فبيت الشعر يكون المصراع الأول وهو الشطر الأول منه مكتوباً كتابة معتادة غير أن البيت الثاني يكون بجانبه عرضاً وليس تحته وهكذا البيت الثالث بجانب البيت الثاني بحيث يكون الشعر كله على مستوى واحد بالنسبة لمن يقرأه واقفاً.

ولم يشذ (فناء الأسود) عن هذه القاعدة، ففي حيطان أروقته كتابات عديدة مثل عبارة: (عز مولانا السلطان أبي عبدالله المغني بالله).

وكرروها مع عبارات أخرى معتادة في أبنية أخرى في (الحمراء).

قاعة ابن السِّراج:

والسراج هنا بتخفيف الراء أي عدم تشديدها، على لفظ السراج الذي يضيء وهي قاعة متوسطة السعة مزوقة تزويقاً عظيماً وفيها من بدائع الفن في التجميل أكثر من غيرها ولا يقال: إنها عملت لذلك لكونها قاعة ابن السراج، وإنما ذلك فيما قيل أن ابن السراج الذي كان من كبار المقربين من السلطان وهو من عائلة (بني سراج) المشهورة بالوجاهة أو المال والحظوة عند سلاطين غرناطة هو الذي تولى نقشها وتزويقها وأهدى ذلك للسطان.

ولكن ذلك لم يمنع عنه النكبة التي نكبه بها السلطان فقد قتله هو وجمع من أسرته، ونكبهم مثل ما نكب الخليفة هارون الرشيد البرامكة مع الاختلاف في حال الأسرتين والبلدين.

وقد خلدت الأخبار والأساطير ذلك بأن زعمت أن السلطان قتلهم في هذه الغرفة التي بنوها له، وفيها فسقية أي بركة صغيرة مزوقة أعدت لكي تمتلىء بالماء الذي ينبع من أرضها لأنه قد أوصل إليها بطرق فنية ثم يذهب منها مع مجرى مكشوف معدّ لذلك في بلاط الغرفة إلى خارج القاعة من جهة الفناء.

وذكرت الأسطورة أو لنقل: إنها القصة المتداولة على أن هذه البركة امتلأت بدمائهم كما كانت تمتلىء بالماء وجرت الدماء فيها مع مجرى الماء.

أما بعض الدماء التي لم تصل إلى (الفسقية) فإنها تركت على حالها دون غسل لذلك بقي أثرها على الأرض أدهم اللون وهو لون القهوة ولا يزال.

وقد استبعدت أن يبقي أثر الدماء كل هذه القرون وافترضت أن المسئولين عن الفنون السياحية، كانوا يجددون لذلك الأثر المزعوم من أجل المحافظة على مظهر الغرفة للأغراض السياحية ومحافظة على ما ورد.

أما أسباب نكبة بني سراج فهي على ما قيل إن أحدهم نقم عليه السلطان على تجرئه على امرأة من حرمه أو نسائه، وأن السلطان قتله، وقتل بعض أقاربه وصادر أموالهم.

وقد رأيت أكثر من صرح بموضوعهم هو الرحالة ابن عثمان صاحب (الأكسير في فكاك الأسير) الذي بعثه ملك المغرب آنذاك محمد بن عبدالله، سفيراً إلى إسبانيا فزار الحمراء واطلع على هذه الغرفة وذكر أن دم ابن سراج أو بني سراج لا تزال أثاره باقية وقال:

وقد أرانا القيم على دار المملكة المذكورة قصراً كبيراً سواريه من الرخام الأبيض وأدخلنا قبة من قببه، وقال في هذه القبة ذبح ملك غرناطة عدة من أولاد السراج، وذلك على عهد السلطان حسن آخر ملوك غرناطة فيما يزعم النصارى في تاريخهم، وذلك أن بعض أولاد بني زكري الغرناطيين وشى إلى الملك بأحد أولاد السراج وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه بغرناطة فذبح منهم بالقبة المذكورة جماعة أعيان، وكان أولاد السراج في ذلك العهد أقوى شوكة في جيش المسلمين وبلادهم أندخر المتقدمة الذكر، و قد كانت باقية بأيديهم بعد تغلب الكفرة على قرطبة يحاربون عليها وحين بلغهم خبر من قتل من إخوانهم بغرناطة حملتهم الحمية والأنفة

والغيظ على أن لحقوا بطاغية الوقت فتنصروا على يديه وقصدوا غرناطة فأغاروا عليها وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة.

هذا مع العلم بأن زيارته للحمراء كانت بعد سقوطها بيد الإسبان بـ ٢٩٥ سنة، وقبل زيارتنا لها بـ (٢٣٠) سنة.

هذا وفي قاعة بني سراج أبيات شعرية أحدها:

ذلت له حمس البرايا معيدة ... ويصبح معتل النسيم رواقيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ... ولم تك في أفق السماء جواريا

وهناك العبارات المألوفة (لا غالب إلا الله).

قاعة العدل:

انتقلنا بعد ذلك إلى (قاعة العدل) وهي قاعة مثل ما سبقها فخمة رائعة حتى إنها لجمالها وتنسيق النقوش بل الفن الذي فيها تنسيك ما قبلها، بل يخيل إليك إنها تفوقها.

أما هذه القاعة فإنها حافلة بالنقوش الجميلة الدقيقة.

وينبغي أن يعرف القارئ الكريم أنه ليس المراد بقولنا: إن فيها نقوشاً أنها توجد في جزء منها، بل إنها توجد فيها كلها حوائطها كلها مكسوة بهذه الزخارف والتزيينات الفنية ولا يوجد فيها فراغ عاطل عن هذه الحلية الجميلة العجيبة.

وفيها أيضاً مثل غيرها كتابات عربية محفورة على الصخر الذي جعل بلاطات ألصقت بالحيطان بمادة لا ندري ما هي بحيث لا تبين المادة، بل لا تبين

الفواصل بين رقائق الحجارة هذه فيخيل للمرء أنها حائط واحد قد كتبت فيه هذه الكتابات البارزة في الصخر.

وفيها محراب كتبوا عليه بخط واضح:

(الملك الدائم، والعز القائم لصاحبه).

قاعة الأختين:

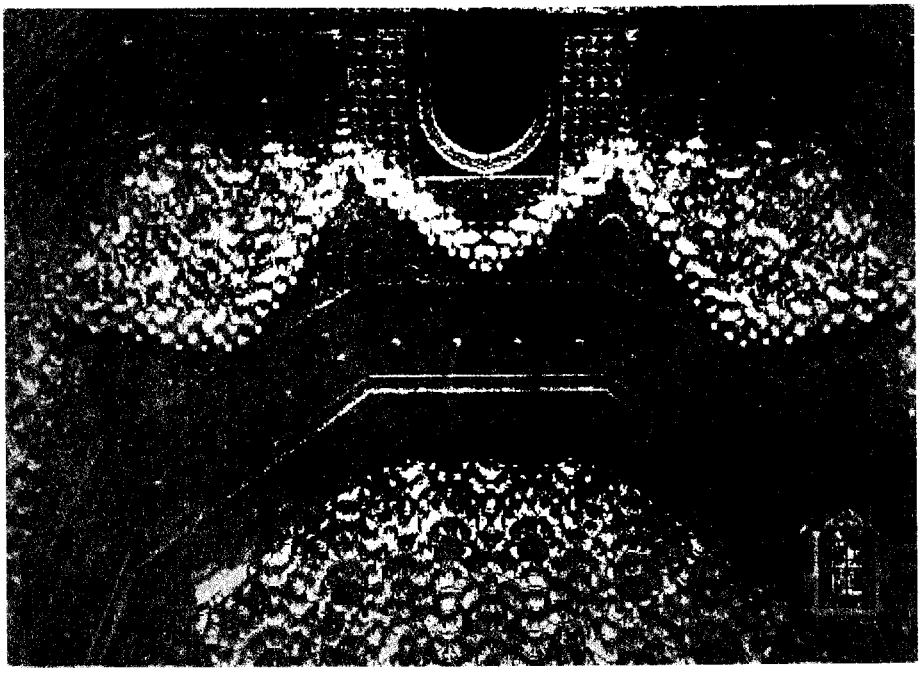

قاعة الأختين في غرناطة

والأختان: تثنية أخت.

وهذه القاعة هي متميزة بسقفها مثل سقف (قاعة بني سراج) لا يمكن وصفه وصفاً مطابقاً لحقيقته التي هي تداخل أجزاء القبة من الداخل بعضها

ببعض تداخلاً متدرجاً متناسقاً حتى قمتها من الداخل، بمواد أشبه ما تكون بالزجاج وليست بزجاج وربما كانت من كسر المرمر أو نوع لامع من الرخام، ولكنه مقسم ومقطع على حسب المسافات والأبعاد في داخل القبة حسب سعتها في الأسفل وضيقها في الأعلى، ومع ذلك وضعوا في داخل هذه القبة أشكالاً ورسوماً هندسية جميلة وكلها بارز بروزاً، وليس محفوراً فيها حفراً، مما جعله يكاد يكون معجزة فنية.

وفيها هذا الشعر الذي كتبه أوأملاه فيما يظهر رجل لا يعرف الشعر لأنه ليس دقيق المعنى فحرف كلمة أو كلمتين، وهو:

له حمس البرايا بعيدة

وربما كانت كلمة خمس هي (خُمس) محرفة أو نبا عنها نظرنا.

أما تسمية هذه القاعة بقاعة الأختين فقد اختلف فيه، لأنه لم يذكر صراحة فمن قائل: إنها تعني مدينتي دمشق وغرناطة، أو لنقل: إنها ترمز إلى اسمي دمشق وغرناطة، والأخوة بينهما، على مثل ما يسمى بالتوامة بين مدينتين في الوقت الحاضر، وهذا لا يمكن قبوله بسرعة على اعتبار أن هذا الأمر لم يكن شائعاً في القديم وإن كان لا يمنعه العقل.

والثاني: أن السلطان متزوج بأختين، وهذا غير صحيح عقلاً، أولاً لأنه مسلم والإسلام يأبى الجمع بين الأختين وثانياً: أنه لا حاجة بالسلطان إلى مثل ذلك لأن السبايا من الجواري الجميلات كثيرات، والحرائر من غير المحرمات على مثله كثيرات، ولا يمكن أن يسكت العلماء والفقهاء بل ولا رجال الدولة والمقدمون فيها على مثل هذا الأمر لو حدث.

مع أن السلطان لم يذكر عنه تفريطاً في دينه أو تهاوناً بأوامر الله ورسوله، وهناك رأي ثالث له وجاهة وهو أن تسمية هذه القاعة بقاعة الأختين، حدثت بعيد انقضاء عصر العرب وعلى وجه التحديد في عهد الملك شارلكان الذي بنى بجانب الحمراء مكان أبنية من ملاحق الحمراء قصراً له شوَّه به هذه المباني الفنية المتلاصقة وإنه هو الذي سمى هذه القاعة بـ (قاعة الأختين) لأن له امرأتين حبيبتين أي معشوقتين قيل إنهما أختان، وقيل إ نه هو سماهما اختين، وإن لم يكونا اختين من النسب.

صورة لأبراج من الحمراء على البعد في أعلى الجبل من نهر حدره

الذي نَوّه بالحمراء:

وصلنا في تجوالنا في غرف الحمراء وأفنائها وأبهائها إلى ركن قديم ولكنه أشبه بالسكن وليس فيه التزويق الذي في الأقسام الكلية من المباني، وإن كانت مبانيه على الطراز نفسه وقد أسموه أو نعتوه بأنه سكن (واشنطن ايرقنع) وهو عالم وكاتب أمريكي بهرته الحمراء فأقام فيها أياماً طويلة، وقيل، بل أقام فيها أشهراً، يدرسها ويدون دراسته عنها بهيئة مفصلة لم يسبق إليها، وقد ضمن ذلك كله كتاباً عن الحمراء كتبه بالإنكليزية ثم ترجم إلى الإسبانية.

وعجبت هنا من أن يدرس الحمراء دراسة متعمقة كاتب أجنبي أمريكي، ولا يفعل ذلك كاتب عربي، وإنما اقتصرت كتابات العرب على المشاهدة العاجلة والتعليق على ذلك، ربما كان ذلك بطريقة لا تبعد عن طريقتي هذه العاجلة غير المتمنعة، إلا بما يسمح به الوقت، وظروف الرحلة.

وإن كنت أعرف طائفة من علماء العرب اهتموا بالأندلس على وجه العموم أي بجميع بلاد الأندلس على رأسهم أمير البيان شكيب أرسلان اللبناني الذي كتب كتابه، بل معلمته الاندلسية العظيمة (الحلل السندسية، في الأخبار والآثار الأندلسية)، وطبع منه ثلاثة مجلدات وقيل إنه طبع منه أيضاً رابعاً لها ولكننا لم نطلع منه إلا على تلك المجلدات الثلاثة، وعرفنا أن الكتاب لم يكمل، ولو كمل لكان آية في خطط ا لبلدان، وكيفة دراستها وما يتعلق بها.

ومنهم الدكتور محمد عبدالله عنان المصري الذي كتب كتاب (الآثار العربية في الأندلس).

والدكتور حسين مؤنس من مصر أيضاً.

والشيخ الأستاذ محمد الفاسي من المغرب الذي حقق رحلة محمد بن عثمان المكناسي المسماة: (الإكسير في فكاك الأسير)، المطبوعة عنه في الرباط.

ولكن بلاد الأندلس معين لا يكاد ينضب من الفن الرائع، بل من الحضارة الرائعة المتمثلة في هذه الآثار الباقية، ومن الأشجان والأحزان التي تطغى على خاطر العربي المسلم الذي يشاهدها فيقف عندها مشدوهاً بين الإعجاب والاستغراب وبين الأسف والأسى على هذا الخراب الذي أصاب جسم الأمة المسلمة في بلاد الأندلس التي هي في الحقيقة فردوس مفقود.

قال الأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه: (الآثار العربية في الأندلس):

قصر الحمراء في غرناطة:

يعد قصر الحمراء منتهى ما وصل إليه الفن الأندلسي من رقة حضرية وترف دنيوي، ومثالاً من أمثلة الفن الذي أوحت به الرغبة في التمتع بالحياة ومباهجها، فهو يتراءى بين الخمائل والجنان كأنه دمية تهب عليها نسمات رقيقة، وتنساب فيها المياه الجارية، وتغرد عليها الطيور الصداحة فتتألف من ذلك كله سيمفونية رائعة عناصرها مشتقة من الطبيعة الحية التي تغمر بألوانها وأنغامها الآبهاء والقاعات.

وأقدم آثار الحمراء حصن القصبة الذي ينسب إلى محمد بن نصر (١٢٤٨-١٢٧٢) مؤسس دولة بني نصر، ولم يبق منه إلا باب النبيذ الذي لا يزال قائماً في معزل عن بقية الأبنية الأخرى، ثم بنى محمد الثالث (١٣٠٢- ١٣٠٩) مسجداً سلطانياً لا أثر له اليوم فقد هدم بأمر من الملك فيليب الثاني سنة ١٥٧٦.

ومن أقدم قصور الحمراء التي ترجع إلى عهد يوسف الأول قصر البرطل، ويطل على بركة تزو دها نافورة بالمياه، ووراءه قاعة مربعة تشبه البرج، وإلى يمينه مسجد صغير ملحق به، وغير بعيد من قصر البرطل يقوم برج الأميرة على مرتفع يعلو الحفير الفاصل بين الحمراء وجنة العريف، وفي وسطه صحن داخلي صغير تحيط به من جهاته الأربع مجنبات، وتزدان قاعاته بزخارف زليجية ملونة وأخرى مذهبة، وبين مصلى البرطل وبرج الأميرة برج يعرف ببرج الشرفات لكثرة شرفاته المدببة وميازيبه البارزة على أحد جوانبه.

وقصر الحمراء يتألف من ثلاث مجموعات، اثنتان منها ترجعان إلى عصر يوسف الأول والثالثة ترجع إلى عصر محمد الخامس، والمجموعة الأولى لم يبق منها إلا اسمها، أما المجموعة الثانية فتضم قصر السلطان ومقر الحكم، ويتوسطه بهو الريحان، وفي جهته الشمالية برج قمارش الذي يشتمل في داخله على قاعة السفراء.

وزخارف هذا القصر آية في الإبداع تتألف من زخرفة جصية ملونة ونباتية وكتابية.

وإلى شرق مجلس قمارش وبهو الريحان الحمامات السلطانية، وهي من أقدم أبنية القصر ترجع إلى عهد يوسف الأول، والقاعة الأساسية فيها تعلوها قبة تخترقها مناور على هيئة أشكال نجمية ينفذ منها الضوء، وتكسو الجزء الأول من الجدران تربيعات رائعة من الزليج.

وأما المجموعة الثالثة وهي من بناء محمد الخامس فهي مجموعة قصر السباع، صحنه الرئيسي ويعرف ببهو السباع تتوسطه فوارة تتألف من ثلاثة أجزاء يستدير تحت الجزء الأدنى منها اثنا عشر أسداً تمج الماء من أفواهها.

وتدور بالصحن أربع بوائك تقوم على عمدها الرفيعة الرشيقة عقود نصف أسطوانية مطولة تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية، وفيها نقوش كتابية يذكر فيها محمد الخامس ويلقب بالغنى بالله وشعر لابن زمرك في مدحه.

وتحيط بالصحن من الشمال والجنوب قاعتان من أروع ما جاد به فن العمارة في الأندلس الجنوبية منهما قاعة بني سراج وعلى رخامها آثار بقع حمراء يقال إنها من دماء بني سراج بعد أن بطش بهم ملوك بني نصر، وتعلوها قبة من المقرنصات الدقيقة نجمية الشكل، أما القاعة الشمالية المقابلة لها فتعرف بقاعة الأختين نسبة إلى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلتين في الشكل كانتا تكسوان الأرض، وقبتها مثل قبة قاعة بني سراج نجمية الشكل تتألف من مقرنصات دقيقة تشبه خلايا النحل، وتؤدي إلى شرفة تطل على حي البيازين[1].

وقبله بنحو مائة سنة قال الوزير محمد بن عثمان المكناسي المغربي في زيارته لغرناطة التي وقعت في عام ١١٩٣م من كتابه (الإكسير في فكاك الأسير):

مدينة حمراء غرناطة أعاده الله دار إسلام:

وهي مدينة عظيمة قديمة دار مملكة للمسلمين رحمهم الله موضوعة كالشكل المثلث في بسيط فسيح من الأرض دحاه الله تعالى أمامها مخضرّاً بالبساتين والأجنات والفدادين جميع ذلك على السقي قد أحاطت الجبال بانفساحه والمدينة مستندة إلى جبل فوق المدينة الحمراء يشق غرناطة المذكورة وادي هدر[2] نصفين عليه خمس قناطير يعبر عليها سكانها وماء هذا الوادي غاية في

---

(١) الآثار العربية في الأندلس، ص١٩٧- ١٩٩.

(٢) هذا النهر يسمى بالإسبانية (Darro) ومن العجيب أن ا بن عثمان سماه بالاسم الذي كان معروفاً به عند العرب على خلاف عادته، ولعل الإسبان كانوا لا يزالون يسمونه كذلك، وهو يأتي من الشمال الشرقي وينعرج جنوباً أسفل قصبة الحمراء ويصب في نهر شنيل.

العذوبة، فقد ذكر لي أنه يمر على معدن ا لذهب وكثيراً ما يجدون الذهب به في المدينة فيباع بأكثر مما يباع به الذهب الأحمر وبخارج المدينة وادي شنيل[1] الشهير الذكر مار بطرف المدية والتقى بخارجها بوادي هدر المذكور واستمر يعظم بما يضاف إليه من فضول السقي إلى أن لحق بالوادي الكبير المار بإشبيلية وقد صار نيلاً عظيماً.

ثم إننا لما أشرفنا على هذه المدينة وجدنا خويلة بعثها أهل البلد طليعة لهم يأتونهم بخبرنا فسلموا علينا وانقلبوا إلى المدينة يركضون خيلهم للإعلام بوصولنا، وبعد هنيئة خرج أعيان البلد في أكداشهم فترجلوا عنها وأظهروا من الفرح ما أظهروا وطلبوا منا الركوب في كدشهم فأجابهم النصراني الكبير الذي كان مرافقاً لنا من قبل الطاغية أنه لا يمكن ذلك لأن هذا الكدش الذي نحن راكبون فيه هو للطاغية فلا يليق أن ينزل منه ويركب في كدشهم ولكن ركبوا وتقدموا أمامنا للبلد فإذا بخارجها جميع سكانها نساء ورجالاً وكل من له لعب أو فرجه خرج وكان عندهم يوماً عظيماً.

ودخلنا المدينة في ازدحام كبير كاد أن يمنعنا من المسير لولا أن تقدمت أمامنا الخيل إلى أن وصلنا الدار المعدة لنزولنا فإذا ببابها من الخلائق مالا يعد ولا يحصى وإذا بدار كبيرة قد تكلفوا في فرشها وزينتها غاية التكلف، وهي عندهم معدة لديوانهم واتفاقهم على عقد الأمور وحلها.

ودخل معنا حاكم البلد وأعيانها إلى أن استقر بنا المجلس ثم استأذنونا في الانصراف وانصرفوا وورد قائد العسكر بطائفة من عسكره أوقفها بباب الدار

---

(١) بالإسبانية (Genil) وأصل اسمه العربي من (Singilis) وهو اسمه اللاتيني وهو نهر صغير إلا أنه أيام ذوبان الثلوج في الجبال يمتليء ماء لمدة قصيرة.

وورد صاحب المال الذي بيده الدخل والخرج فسلم وقال إن الطاغية أمره أن يكون عند أمرنا منفذا لجميع مثاربنا مادمنا ببلده فأظهرنا من التعفف والإعراض عما بيده ما يناسب جلال الإسلام وذلك بتوفيق من الله تعالى والمنة له.

ومن الغد ورد علينا حاكم البلد وقال إن أعيان البلد أرادوا القدوم عليك نائبين في السلام عن أهل البلد على وجه مخصص فنحبك أن تأذن لهم فأذنت لهم وبقرب الزوال من ذلك اليوم سمعنا بالمدينة ضجيجاً ودوياً عظيماً ومزامير وطبولاً وقصدوا دار نزولنا فقيل هؤلاء أعيان البلد فدخلوا الدار ومعهم خلق كثيرون لا يحصون، فلما قربوا من المنزل تميز منهم ثلاثة لابسين السواد فدخلوا إلينا وحدهم وبقي من عداهم خارج الباب فجلسوا معنا فتكلم أحدهم بكلام معناه أن أهل البلد عينونا للقدوم عليك نائبين عنهم في أداء ما يجب لك عليهم وأن عظيمهم أمرهم بذلك كما أمرهم أن يكونوا عند أمرك ما دمت في بلدهم وتعظيماً وإجلالاً لمنصب سيدنا ومولانا أمير المؤمنين، وكل ذلك نزر وقليل في حقه، فقابلناهم بما يناسب قولهم وشيعناهم وانصرفوا على هيئتهم التي وردوا عليها، وهذه عادة جارية عند أهل الحواضر العظام، و قد فعل ذلك أهل قالص لما قدمنا عليهم وكذا أهل إشبيلية وغيرهم.

وفي عشية ذلك اليوم طلعنا إلى مدينة حمراء غرناطة التي أنشأها أمير المسلمين أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمدبن خميس بن عقيل الخزرجي الأنصاري سلطان الاندلس يلقب بالغالب بالله نشأ بأرجونة[1] من كنبانية قرطبة أطيب البلاد مدرة وأوفرها غلة في ظل نعمة وعلاج فلاحة وبين يدي نجدة وشهرة فانطوت أفكاره على تأميل الأمر والرياسة وقد حدى رغبته

---

(١) أرجونة بفتح فسكون وهي بالإسبانية (Arjona) وهي قرية صغيرة بين قرطبة وجيان و لكنها ليست على الطريق الكبير.

تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة وإفريقية فخطب لهم زمناً يسيراً وتوصل بسب بذلك إلى إمداد منهم بمال وإعانة.

وقد افتتح أمره بالدعاء للمستنصر العباسي ببغداد حاذياً حذو سميه ابن هود وكان يعقد للناس مجلساً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافه طلاب الحاجات وهو الذي تملك قرطبة وإشبيلية ثم خرجت عن يده كما تقدم، مولده سنة إحدى وتسعين وخمسمائة[١] بأرجونة عام الأراك[٢] وتوفي ليلة الجمعة تاسع وعشرين لجمادى الثانية لسنة إحدى وسبعين وستمائة[٣].

وأول من سكن هذه المدينة وصيرها دار ملك قبل الملك المذكور الحاجب المنصور أبو المتنبي زاري بن مناد الصنهاجي[٤] لما تغلب جيش البربر مع أميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة واستولى على كثير من كور الأندلس سنة ثلاث وأربع مائة[٥] وظهر على طوائف الأندلسيين واشتهر أمره وبعد صيته ثم أجاز البحر إلى بلاد قومه بإفريقية بعد أن ملك بغرناطة سبع سنين واستخلف

---

(١) سنة ٥٩١ هجرية بدأت يوم ١٦ دجنبير سنة ١١٩٤م وانتهت سوم ٥ دجنبير سنة ١١٩٥م.

(٢) الأراك اسم حصن يسمى اليوم (Santa Maria de Alarcos) بناحية قلعة رباح بالقرب من وادي يانة اشتهر في التاريخ بالموقعة العظيمة التي تحمل اسم موقعة الأراك والتي انتصر فيها الخليفة الموحدي يعقوب المنصور على ملك قشتالة الفونسه الثامن وقد وقعت يوم ثامن شعبان سنة ٥٩١ (الموافق للثامن عشر يوليه سنة ١١٩٥م).

(٣) الموافق ليوم ٢١ يناير سنة ١٢٧٣م.

(٤) أصل بني زبري هؤلاء من إفريقية حيث كانت لهم دولة بقلعة حماد، ووقع أن ثار جماعة منهم والتفوا حول زاوي بن زيرى فأشار عليهم بمغادرة المغرب والالتحاق ببني عامر في قرطبة أيام الحاجب عبدالملك المظفر، وخدموا دولته مدة إلى أن آل الأمر بزاوي أن استولى على غرناطة واستقل بحكمها وفتح معاقل وقرى في ناحيتها ثم بداله أن يرجع إلى إفريقية وكان ذلك سنة ٤١٦هـ (١٠٢٥م) وترك الأمر لابن أخيه.

(٥) ابتدأت سنة ٤٠٣ الهجرية يوم ٢٣ يوليه سنة ١٠١٢م وانتهت يوم ١٢ يوليه سنة ١٠١٣م.

عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن[١] وكان حازماً داهية متوسط النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة[٢] ثم بعده ابنه الحاجب المظفر باديس[٣] وتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة[٤] وبعده حفيده عبدالله[٥] بن بلقين بن بادس إلى أن خلع سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة[٦] وتصير أمرها إلى ملك الأمراء من لمتونة[٧] لما ملكوا أمر المسلمين بالأندلس يوسف بن تاشفين وولده بعده وتناوب أمرها جملة من ملوك لمتونة إلى أن انقرض أمرهم منها سنة أربعين وخمسمائة[٨].

وتصير الأمر بها إلى بني عبدالمؤمن المسمين بالموحدين إلى أن انقرض أمرهم واختل ملكهم فقام عليهم بالأندلس الأمير المتوكل على الله أبو عبدالله محمد بن يوسف بن هود الجذامي عام ستة وعشرين وستمائة[٩] ثم اضطرب

---

(١) حبوس بتشديد الباء، وتلقب بسيف الدولة واتسعت رقعة مملكته بفتح جيّان وقبرة وكان له وزير داهية أديب باللغتين العربية والعبرية هو ابن نغزالة وهو أول يهودي تولى الوزارة للملوك المسلمين بالأندلس- وتوفي حبوس في السنة المذكورة.

(٢) ابتدأت سنة ٤٢٩ الهجرية يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٠٣٧م وانتهت يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٠٣٨م.

(٣) باديس كان يلقب بالحاجب المظفر وقد طالت مدته وفي أيامه بلغت سلطة بني زيري أقصى مداها وكان بنو زيري يوالون الحموديين أصحاب مالقة ويخطبون لهم لكن ا بن باديس ابن حبوس تخفى عن هذه التبعية الرمزية بل تقدم إلى مالقة وضمها إلى مملكته سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨).

(٤) ابتدأت سنة ٤٦٥ الهجرية يوم ١٧ شتنبر سنة ١٠٧٢م، وانتهى يوم ٥ شتنبر سنة ١٠٧٣م.

(٥) كان لعبدالله هذا أخ اسمه تميم كان و الياً على مالقة أيام والده، فلما توفي وحل محله بغرناطة ثار تميم واستقل بمالقة، وظلت أحوالها في تدهور وكذلك أحوال الجزيرة الأندلسية كلها إلى أن انقذها يوسف بن تاشفين وقبض على عبدالله ووجهه سجيناً إلى أغمات وعلى تميم وألزمه المقام بمراكش.

(٦) ابتدأت سنة ٤٨٣ الهجرية يوم ٦ م ارس سنة ١٠٩٠م وانتهت بوم ٢٢ يبراير سنة ١٠٩١م.

(٧) يعني المرابطين ويدعون كذلك بالملثمين وبالدولة الصنهاجية.

(٨) ابتدأت سنة ٥٤٠ الهجرية يوم ٢٤ يونية سنة ١١٤٥م وانتهت يوم ١٢ يونية سنة ١١٤٦م.

(٩) ابتدأت سنة ٦٢٦ الهجرية يوم ٣٠ دجنبر سنة ١٢٢٨م وانتهت يوم ١٩ نومنبير سنة ١٢٢٩م.

الأمر ولم ينشب أن قام عليه هذا البيت من بني نصر فأقاموا ملكاً كبيـــراً، وأول ملوكهم هو الأمير محمد بن يوسف المتقدم الذكر.

رجع إلى ذكر مدينة الحمراء:

لما طلعنا إليها من غرناطة صعدنا عقبة ثم دخلنا باب القصبة يقال لـــه بـــاب الرمان[1] ولا زال مسمى بهذا الاسم منذ كان المسلمون رحمهم الله بها حتـــى انتهينـــا إلى دار المملكة النصرانية، فإذا بكبير النصارى الموكل بها واقف ببابها وأوقف معـــه طائفة من العسكر، فلما أقبلنا عليه أظهر من الأدب في كلامه وخطابه ما أظهـــر ثـــم تقدم ففتح الباب ودخلنا وأرانا جميع ما احتوت عليه من القبب والقصـــور فـــإذا هـــي إحدى عجائب الدنيا في غرابة الشكل ولطافة البنيان وفي كل جهة من جهاته بســـتان أو جنان و بياض قببها وقصورها في أثناء الاخضرار كليل توقد كوكبـــه أو بحـــر طفا حبيه مع ما بها من جداول الماء الغريبة الاختراع، البديعة الانطباع، وقد عمـــل الجباص في جميع هذه القبب والقصور فأحسن ما شا، وأغرب ما أنشا وجـــل عملـــه مكتوب بخط عربي حسن ولا زال ذلك إلى الآن في غاية الكمال مثل لا غالب إلا الله وهي أكثر ما رسم هنالك والحمد لله على نعمة الإسلام وآيات قرآنيات مثل سورة قـــل أعوذ برب الفلق والاهكم الاه واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وآية الكرسي وغيـــر ذلك مما لا يسعني كتبه.

وأما أبيات القريض فالقلب بقرأئتها مريض، فقد كتب في باب قبة مربعـــة ثلاثون شبراً في الربع بوسطها خصة ما: أبيات شعر وهي: (الكامل)

---

(١) في الحقيقة يسمى هذا الباب اليوم بالإسبانية (Puerta de las Granadas)(أي باب الرمان) ولعله كان يسمى أيام ابن عثمان بالاسم العربي ثم ترجم للإسبانية.

رقمـــت أنـــاملي صـــنيع ديبـــاج مـــن بعـد مـــا نظمـــت جـــواهر تـــاج
وحكيـــت كرســـي العـــروس وزنتـــه أنـــي ضـــمنت ســـعادة الأزواج
مـــن جـــاءني يشـــكو الظمـــا فمـــوردي صـــرف الـــزلال العـــذب دون مـــزاج
فكـــأنني قـــوس الغمـــام إذا بـــدا والشـــمس مولانـــا أبـــو الحجـــاج
لا زال محـــروس المناقـــب مـــا غـــدا بيـــت الإلـــه قبلـــة الحجـــاج

وبعد ذلك: (عز لمولانا السلطان الملك المجاهد أبي الحجاج عز نصره النصر والتمكين و الفتح المبين لمولانا أبي الحجاج أمير المؤمنين أيد الله أمره وأعز نصره، وما بكم من نعمة فمن الله).

وأبو الحجاج هو يوسف بن اسماعيل بن فرج يكنى أبا الحجاج وهو سابع ملوك بني نصر، كانت ولايته الملك بعد أبيه رابع عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، وهو ابن خمس عشرة سنة، وتوفي شهيداً غرة شوال من سنة خمس وخمسين وسمبعمائة في السجدة الأخيرة من صلاة العيد على يد شقي ممروق طعنه بخنجره فأكرمه الله تعالى بالشهادة ثم قبض على الممروق ثم أحرق بالنار.

والطاغية المذكور اسمه فرناند الخامس كاطلك وهـــو الـــذي حاصـــر مدينـــة غرناطة ونزل عليها بمحاله وعساكره في ثاني عشر جمادى الأخيرة من ســـنة ســـت وتسعين وثمانمائة، فأهلك الحرث والنسل وضيق عليهـــا غايـــة التضـــييق و اشـــتد الحصار ودام القتال نحواً من سبعة أشهر وقطع الجالب وانســـدت أبـــواب المرافـــق والمراقب وطمع العدو في أخذ غرناطة واشتد الأمر على المسلمين فاجمع أهل العمل والمشورة مع السلطان فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين وهو أن يصـــالحوا

الطاغية عن غرناطة بالمدينة الحمراء على شروط سبعة وستين رضيها الفريقان وكتبوا البيعة للطاغية ونزل سلطان غرناطة عن الحمراء.

وفي ثاني ربيع الأول من سنة سبعة وتسعين وثمانمائة استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان خوفاً من الغدر، ولما تم الأمر حصن الطاغية الحمراء ثم احتال على السلطان حتى طلب منه الرحيل لبر العدوة وكتب له كتاباً أن لا يمنعه أحد من السفر حيثما أراد من بر العدوة فركب البحر ونزل باملیلية واستوطن بفاس وتوفي بها سنة أربعين وتسعمائة[1]، ثم إن النصارى نكثوا العهود ونقضوا الشروط إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة[2]، وهذا على سبيل الاختصار ومن أراد الاطناب فعليه بمواضعه.

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبدالله محمد الذي انقرضت بدولته مملكة المسلمين بالأندلس ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله واسطة عقدهم ومشيد مبانيهم وأخذها والأمر لله فما أعظمها مصيبة على المسلمين فإنا لله وإنا إليه راجعون وقد دفن عدو الله في الجامع الأعظم بغرناطة وبازائه قبر زوجه الملكة زابيل[3]، جدد الله عليها العذاب في القبر ويوم الحساب.

وبأعلى الجبل فوق المدينة الحمراء بستان عجيب جامع لكل غريب، مشرف على الحمراء وعلى غرناطة، تنحدر إليه المياه من أعلى الجبل في

---

(١) ابتدأت سنة ٩٤٠ الهجرية يوم ٢٣ يوليه سنة ١٥٣٣م وانتهت يوم ١٢ يوليه سنة ١٥٣٤م.

(٢) ابتدأت سنة ٩٠٤ الهجرية يوم ١٩ غشت سنة ١٤٩٨م وانتهت يوم ٧ غشت سنة ١٤٩٩م.

(٣) هي الملكة المعروفة في ا لتاريخ بإسابيلة الكاثوليكية، وكانت ملكة قشتالة فلما تزوجت بملك أراغون فردناند تم على يدهما توحيد المملكة الإسبانية خصوصاً بعد أن قضى على مملكة بني الأحمر بغرناطة وكانت اسابيلة عدوة لدوداً للإسلام وساعدت حركة التفتيش ووسعت دائرتها، توفيت سنة ١٥٠٤م.

جداول كأراقم مذعورة تنساب في خمائل للأنس منشورة وبوسط البستان خصص ماء ترمي بالمياه في الجو على أشكال مختلفة بين أفنان ملتفة ولا زال بهذا البستان شجر السرو من عهد المسلمين إلى الآن رحمهم الله، وكذا شبابيك من القصب المسمى عندنا بالماموني[1]، لا زال على شكله الذي تركه عليه المسلمون رحمهم الله، ومهما تلاشى حبل أوقسبة تخلف بأخرى وهو على وضعه باق إلى الآن وبصدر هذا البستان مقعد بهي جدرانه مرقومة بعمل الجباص بأحسن ما شاء، مكتوب ببابه بعمل الجباس أيضاً: (الكامل)

قصر بديع الحسن والإحسان	لاحت عليه جلالة السلطان
فكأن مجلسه العروس تبرجت	عند الزفاف بمجلسها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر اذ	نال اعتناء خليفة الرحمان
خير الملوك أبي الوليد المنتقى	من نخبة الا ملاك من قحطان
المقتدي بالطاهرين جدوده	أنصار خير الخلق من عدنان
لحقته منه عناية قد جددت	منه جمال مصانع ومبان

وغير ذلك من الكتابة العربية كثيراً وأبو الوليد هذا هو إسماعيل بن فرج بن نصر خامس ملوك بني نصر أمير المؤمنين بالأندلس ولد يوم الجمعة سابع عشر شوال سنة سبع وسبعين وستمائة[2]، وبويع يوم الخميس سابع وعشرين شوال من عام

---

(١) المأموني في الأصل قبة في وسط بستان تتخذ من قصب أو نحوه متشابك ثم صارت اللفظة تطلق على كل ستار من قصب أو خشب من هذا النوع في جوانب الممرات في الحدائق ويظهر أن أصل الكلمة نسبة إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وقد كان أنشأ قصراً فخماً وجعل في وسط حدائقه بحيرة وجعل وسطها قبة من زجاج وصفها الأدباء وذكرها المؤرخون (انظر نفح الطيب، طبعة ليدن، ج١، ص٣٤٧، و ج٢، ص٦٧٣).

(٢) الموافق لثالث مارس سنة ١٢٧٩م.

ثلاثة عشر وسبعمائة[1]، وتوفي يوم الاثنين سادس وعشرين رجب من سنة خمس وعشرين وسبعمائة[2]، سبحان الملك الحق الباقي بعد فناء الخلق.

وقد طلعت إلى قنة الجبل فواجهنا جبلاً بالقرب منا، فيه كهف ذكر بعض أهل التاريخ أن هذا الكهف هو كهف أصحاب الكهف، فسألت عن ذلك النصارى فقالوا إن هذا الكهف معروف عندهم كان فيه أناس أموات من أول الزمان ولا يعرفون من هم، وقد ذكر لي نصراني أنه دخل إلى الكهف المذكور منذ ثمان عشر سنة فوجد به عظام أولئك القوم لا زالوا على حالهم فتبركنا بهم إن كانوا هم، وهذا الجبل الذي فيه الكهف هو في قبلي غرناطة والحمراء مشرف على وادي هدر الداخل لمدينة غرناطة وقد ذكر بعض المفسرين إن المدينة التي بقرب أصحاب أهل الكهف يقال لها طرسوس والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقد أنشأ كارلوس كينط أحد طواغي اصبانيا بازاء دار المملكة بالحمراء داراً عظيمة في غاية الضخامة يضاهي بها دار ملوك الإسلام، لقد حكيت ولكن فاتك الشنب[3]، وقد هلك عدو الله قبل أن يتممها ولا زالت على حالها.

وقد بعث إلينا جنس من الرهبان منعزلين في دار كبيرة لا يخرجون ولا يدخل إليهم أحد إلا من يخدمهم ويتقضى لهم أغراضهم يسمونهم كرطوخس[4]،

---

(١) الموافق للرابع عشر يبراير سنة ١٣١٤م.

(٢) الموافق لثامن يوليه سنة ١٣٢٥م.

(٣) هذا الشطر الثاني من بيت هو:

يا بارقاً بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

(٤) بالإسبانية (Cartujas) وهو النطق الإسباني لكلمة (Chartreux) وهو اسم طريقة مسيحية أسسها القديس برونه سنة ١٠٨٤م بأحد أودية جبال الألب يدعى (La Grande Chartreuse) حيث بنى أول دير لأصحابه وهم يعيشون منعزلين عن العالم انعزالاً تاماً.

يزعمون أنهم زهدوا في الدنيا وانعزلوا عن الخلق، وكل من يدخل إلى هذه الدار بهذا القصد لا يخرج منها، فقد سألت أحدهم كم له في تلك الدار، فقال ما ينيف على ثلاثين سنة، وحالهم كحال النساء المسميات بالموخات التي تقدم ذكرهن، وقد أدخلوني إلى جميع كنائسهم وأرونا جميع ما بها من الذخائر الموقوفة على الكنيسة إلا الجامع الأعظم[1]، لما بعثت إلى الفرائلي القيم عليه لنقدم عليه أجاب أنه إذا دخلنا ومررنا بالصليب الذي يعبدون نفعل مثل فعلهم، فقلت له قد دخلنا إلى كنائس بلاد اصبانية كلها والاسكوريال الذي هو أعظم كنائسهم وبه جمع كبير من الافرايلية ولم يشافهنا أحد بما ذكرت فما ذاك إلا أن معبودك وإلاهك الذي تعبد أفضل من ألهتهم التي يعبدون فأقبل عليه جميع الافريلية بالتوبيخ والعتاب، وقالوا له قد فضحتنا فهذا الذي أردت أن يسمع العامة، وطلبوا مني الدخول بعد فامتنعت، قبحهم الله و طهر منهم البلاد.

وهذه المدينة اختصها الله بالحرير عن سائر البلاد وبها من مرمات نسجه على اختلاف أنواعه ما لا يعد، ولا يفوق هذه المدينة في الحرير إلا مدينة مرسية المتقدم ذكرها فمنها يجلب الحرير إلى غرناطة لأن صنعته بغرناطة أكثر من مرسية.

وقد أقمنا بغرناطة ثلاثة أيام وقد فرح بنا أهلها فرحاً كبيراً أربى على كل أحد ومن جملة ذلك أن أحضروا أهل المدجينة خصوصاً وعموماً في الدار والأزقة ونالوا

---

(١) من العجيب أن هذا التعصب لا يزال متمكناً من نفوس رهبان أسبانيا إلى الآن حتى إننا لما كنا بقرطبة مع صاحب الجلالة المقدس بالله الملك محمد الخامس رحمه الله سنة ١٩٥٦م في زيارة رسمية وكنا داخلين للمسجد الأعظم الذي صيروه كنيسة أشار الراهب (الفرايلي كما يقول ابن عثمان) لصاحب الجلالة بازالة طربوشوه فتنبه في الحين أحد الرسميين الأسبانيين الذين كانوا يرافقوننا فنهر الراهب وصده عنا والحالة إن علامة الاحترام عندنا هي تغطية الرأس لا تعريته ا هـ من حاشية الأستاذ محمد الفاسي.

الجميع أنواع الحلاوى والأشربة لكل من حضر وقد بالغوا في الإكرام ومع ذلك يعتذرون يقولون إن عظيمهم أمرهم وحث عليهم في الفرح بنا وكلما يفعلون يظهر لهم أنهم مقصرون فقابلناهم عن إحسانهم بما يناسب وبهذه المدينة من بقايا الأندلس شيء كثير فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب، وقد تعرف إلينا أحد أصحاب الشرطة ممن له غلظة وتجبر، وقدرأيت فيه ظلماً كثيراً يضرب النصارى ويشتمهم، وقد أتانا ذات يوم، فقال إنني من المسلمين وإنما جعلت هذه الخطة بيدي سبباً للوصول إلى أذاية هؤلاء الكفرة وأنا من أولاد صيرون.

وقد أقمت بغرناطة ثلاثة أيام ثم سافرنا منها في أجنتها وبساتينها مسيرة ساعتين وقلنا بالبنطة المعة للمسافرين ولما صلينا العصر توجهنا إلى بلدة يقال لها لوخة[1].

إنتهى كلام الوزير ابن عثمان المكناسي.

إطلالة على حي البيازين:

أول ما يطالع يمينك وأنت تسير في الحمراء إذا صادفت نافذة أو ربوة تطل على الخارج (حي البيازين) فهو واضح الوضوح من نوافذ عدة من القاعات حيث يراه المرء تحته ببيوته غير الواسعة وسقوفه الحمر الجميلة، وهذه التسمية العربية القديمة (البيازين) التي لم يعرفها جهلة المتعلمين من العرب فظنوها البائسين- جمع بائس- والأمر ليس كذلك، و إنما البيازين هم الذين يتولون تجارة (البيزرة) وهي معناها تربية الصقور الجارحة التي تعد للصيد، والإتجار بها،

---

(١) كان العرب يسمونها لوشة (بالإسبانية Loja) وهي مدينة صغيرة تبعد عن غرناطة ٥٣ كيلومتراً غرباً، وإليها ينسب لسان الدين ابن الخطيب اللوشي ولا يزال بها آثار عربية قائمة الآن.

أخذاً من تسمية الصقر بالباز: جمعه (بزاة) والذي يعانيه (بَيَّاز) وهـــي صـــيغة مبالغة مثل حَمَّار وصَقَّار للذي يصنع الصفر، وجرَّار للذي يصنع جرار الفخار، ونَجَّار وخرَّاز الخ.

عند برج قديم في القسم القديم من غرناطة

وكانت لنا وقفة في شرفة خارجية في طرف من أطراف القصر وهـــو مرتفـــع وموقعه مرتفع على ما حوله من غرناطة، ومن ذلك حي (البيازين) الذي بدا تحتنـــا، وسوف نخترقه أو نسير بحذائه ويأتي الحديث عن ذلك فيما بعد بإذن الله.

حمام القصر:

وصلنا إلى حَمَّام القصر، ولابد أن يكون على مستوى القصر غير أن التزيينات لا تكون مناسبة فيه، لأن الحرارة والرطوبة تؤثر عليها وهو واسع سقفه على هيئة قبة غير كاملة التقبيب، وفيها قواعد زجاجية على شكل ثماني أي تكون كالنجمة ذات الزوايا الثمان.

ولكنها مغلقة، ورأيناه أقساماً ثلاثة أدناه البراني، والذي بعده الوسطاني، والأخيرة الجواني، فيدخل من يريد أن يستعمله في البراني وتكون حرارته قليلة، ثم إذا تهيأ جسمه للحرارة بالمكث فيه قليلاً انتقل إلى الوسطاني الذي هو أشد حرارة منه، وهكذا الجواني، والمراد من ذلك التدرج في الدخول ومثله في الخروج.

وانتقلنا من الحمام إلى رواق ينطلق من عنده ليس فيه تزويق وسقفه من عقود الآجر على هيئة سقف القبو المستطيل، والظاهر أنه مساكن للخدم.

الصوت المتردد:

وصلنا إلى غرفة مربعة تركبها قبة، وليست فاخرة وإنمامزيتها أو لنقل انفرادها أنها مدروسة دراسة قديمة بالطبع في عهد العرب من جهة تردد الصوت.

فما أن يتكلم الإنسان في زاوية من زواياها بصوت منخفض حتى يسمعه من يكون في الزاوية الأخرى بحيث لو كان في مكان غير هذا المكان وتكلم رافعاً صوته قليلاً لما سمعه، ولكن ذلك مبني على دراسة تردد الصوت، وربما كانت نظرية تكبير الصوت ناشئة عن مثل هذه الدراسة.

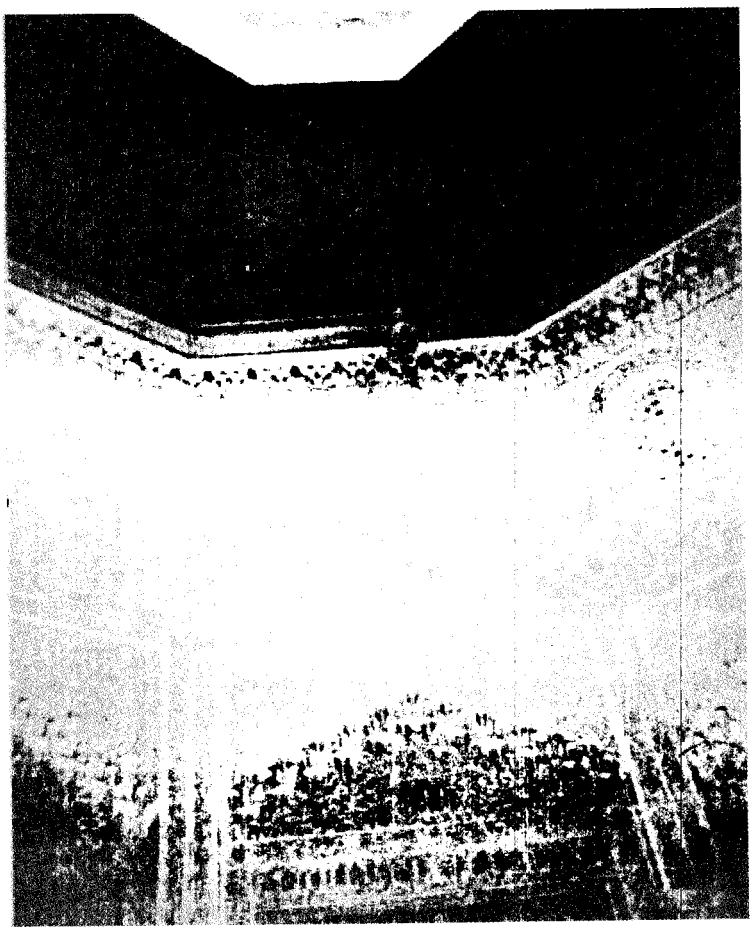

زخارف رائعة في قصر غرناطة (تصوير المؤلف)

والشيء الغريب العجيب أنني رأيت اسوداداً في الزاوية فقال لي الـــدكتور غطفان: إن هذا السواد فيها ناتج عن تكرار أنفاس الناس فيها وهم يجربون تردد الصوت فيها، وما أبعد ذلك، لأنني رأيت السياح ينتظر بعضهم بعضاً عندما يخلو المكان من واحد يكون ينتظر بعده آخر وآخرون فيبدؤن أو قل فيعيدون التجربة.

حوض السباحة:

خرجنا إلى حديقة القصر، ولم نشف النفس من الإطلاع على ما فيه، ولكنني كنت منقبض الصدر لأنني لم أستطع أن أصور بسبب نفاد المصورة من الشريط، وكنت أيضاً أسير بنضارة ليس فيها إلا زجاجة واحدة، رغم كثرة السياح، وازدحامهم في القصر، حتى يضطر المرء أحياناً أن ينظر حتى يستطيع أن يمر من بينهم، ولشيء آخر وهو ضيق الوقت.

وفي فناء الحديقة حوض السباحة عنده غرفة مزينة بالفسيفساء وغيرها من الأصباغ والتزيينات الأخرى.

برج الأميرات:

مشينا من حوض السباحة مع ممرات مبلطة ولكنها غعير معتنى بها وكلها في الحديقة أو أماكن تشبهها وأشجار الحديقة معظمها من الأشجار المثمرة، ومنها أشجار التين الأبيض التي عليها ثمارها حتى وصلنا (برج الأميرات) وهو واقع عند سور القصر من قصر الحمراء أي أنه بعيد أو مبعد عن وسطها، ولم أجد من يفسر لي سبب تسميته (برج الأميرات) وإن كان أحدهم قال: لأنه كان قد سجنت فيه أميرات، ولكن من هن تلك الأميرات؟ وما هي قصتهن؟

ورايت طريقة منظمة للدفاع عن القصر، إذْ رأينا فيه طريقاً منخفضاً إلى الأرض قليلاً نازلاً من داخل القصر هو درب الخيَّالة وهم الفرسان على خيولهم، فوقه ما يشبه الممر المرتفع حتى يبلغ ارتفاعه رأس السور أو بالقرب منه، وهو موقف الرماة الذي يرمون الأعداء بالسهام التي تنطلق من الأقواس التي تشبه البنادق أو الأسلحة النارية الخفيفة، وإن لم يكن فيها نار، ولا ما يشبهها.

وهناك خندق منخفض جداً يملأ دونه بالماء حتى يمنع الأعداء من الوصول إلى القصر وليس فيه الآن من الماء شيء، ولكن ظاهر أنهم يملأونه عند الحاجة ويتركونه عند عدمها، وهناك قنطرة ماء يأتي منها الماء إلى القصر من مكان مرتفع وهذا هو سر كثرة النوافير فيه ومنها الأسود التي تنطلق من أفواهها المياه على هيئة نافورات، غير أنه ينبغي أن يلاحظ أن الماء لا يكون صالحاً للسير في النافورات أي الفسقيات التي هي برك منظمة إلا إذا كان يأتي إليها بوساطة أنابيب وهي موجودة هنا.

الحدائق الصيفية:

وقعنا بعد هذا بحدائق واسعة منسقة ذات ممرات عديدة هي الحدائق الصيفية لقصر الحمراء وقد أخذ منا التجوال فيها وقتاً وجهداً.

وذكر لنا الأخ الدكتور غطفان أنها هي التي تسمى (جنة العريف) ولم أعرف معنى العريف هنا وإن كنت قرأت شيئاً عنه في السابق لا أتبينه الآن، إلا أنني عرفت الآن أن (جنة العريف) هو اسم القصر الصيفي الذي تعتبر الحديقة حديقة له.

ولم ندخل القصر الصيفي هذا لأنه مغلق للترميم والإصلاح كما قا لوا، ولو اقتصروا على وصف ما يجرونه فيه بالترميم لكان أولى الآن الإصلاح يفسده، ويذهب بقيمته التاريخية القديمة كما هو ظاهر إلا إذا كانوا يريدون بإصلاحه ترميمه فهذا مفهوم.

وأما الحديقة الصيفية هنا فإنها ذكرتني بقصر الصيف في بكين وفي مدن أخرى في الصين، حيث كان ملوك الصين القدماء تكون لهم قصور في الصيف

يسكنونها غير القصور المعتادة، وذلك لكون بلادهم باردة في الشتاء معتدلة في الصيف مثل هذه البلاد الأندلسية إلا أنها أشد منها برداً.

وقد رأيت في هذه الحدائق مسرحاً حديثاً بناه الإسبان، وهو رغم وقوعه في هذه المنطقة الجميلة التي تعبق بالتواريخ يعتبر نشازاً من النشاز غير أن الذين أنشأوه طاب لهم أن يجدوا هذه الحدائق الواسعة المنسقة بجوار الآثار العربية في سفح جبل أخضر يطل على مدينة غرناطة القديمة فأنشأوا هذا المسرح.

وقد رأيت الجميل العجيب في جانب من الحديقة وهو ممر متصل طويل من أحواض الماء ومن النوافير التي فيها بطول يصل إلى مائة متر أو نحو ذلك.

ومن أحسن ما صنعه القائمون على الحديقة أنهم وضعوا في أكثر أنحائها مقاعد خشبية ليستريح عليها المتنزهون وليجلسوا فيها جلسة تأمل.

وفي النهاية زرنا (اسطبل الخيول) وهي الخيول التي كان المجاهدون في سبيل الله من أهل الأندلس يركبونها للجهاد ولكن أخلافهم ضيعوا ذلك باختلاف أهوائهم ونزاعات بعضهم مع بعض، واستعانة بعضهم بالإسبان الكفار ضد إخوانهم المسلمين فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد ساد الظلام ونحن في الحديقة، وقد أغلق قصر الحمراء ولكن الحديقة لم تغلق بعده إلاّ أنه عندما حل الظلام أعلنوا بأنهم يغلقونها.

تركناها في الثامنة وقد ساد الظلام ولم نشف النفس من الإطلاع عليها كلها.

عدنا بعد ذلك إلى الفندق الذي نزلنا فيه، وأراد الأخ الدكتور غطفان بن كاظم العلواني مرافقنا أو لنقل إنه مرشدنا أن يودعنا فأمسكت به وقلت له؟ إننا لن نبقى في مدينة (غرناطة) إلاّ فترة يسيرة ونريد أن نقوم بجولة فيها وبخاصة في قسمها القديم ولا نستغني عن وجودك معنا.

فذكر أنه موظف في الإذاعة العربية لغرناطة، وعمله يبدأ في السابعة، فقلت له: إذا كان الموضوع يحتاج إلى إذن من رئيسك فإنني على استعداد لأكلمه أو غيره من العاملين الذين لابد من أن يكون فيهم من يتكلمون العربية لأن عملهم في الإذاعة العربية.

فذكر أنه سوف يتصل بالمدير ويخبرنا بعد صلاة العشاء، وقد أخبرنا بعد ذلك أن المدير سمح له بساعتين يكون فيهما معنا ولأنه قال له الحقيقة وهي أنني أحمل جواز سفر دبلوماسياً وأحتاج للتكريم بهذا الأمر في غرناطة، ولكن الأخ الدكتور غطفان أخبرني بعد ذلك أن المرير عندما سمح له بالغياب معنا لمدة ساعتين كان طلب منه أن يعمل ساعتين بديلة عنهما.

ومن طريف المصادفات أننا بينما كنا نتجول في ميدان (كولون) الذي سيأتي الكلام عليه لمح الدكتور غطفان مديره فأسرع يناديه ويسلم علينا ويقول بالعربية ونحن نسمع لأنه يحسن العربية: إن هؤلاء هم الذين كلمتك عنهم فسلمنا عليه وجاملنا وتحدثنا فترة معه بالعربية.

حي البيازين:

كنت أرى (حي البيازين) أسفلنا ونحن في قصر غرناطة وقد عزمت على التجول فيه ولكن الوقت كان متأخراً الليلة عن البحث عنه.

ثم تبين أن فندقنا واقع على حاشية هذا الحي من جهته الداخلية، بل تبين أن الفندق يقع على حافة المنطقة التاريخية القديمة من غرناطة، إذْ يقع سور غرناطة القديمة قربه بحيث لا تزيد المسافة بينهما على اثني عشر متراً، وقد بقيت بوابة من هذا السور التاريخي على حالها سوف يأتي الكلام عليها عندما نشاهدها ونصورها غداً.

ثم دخلنا حي البيازين من غير قصد عندما ذهبنا إلى:

مسجد التقوى:

المؤلف في محراب مسجد التقوى في حي البيازين في غرناطة

خرجنا من فندقنا قاصدين مسجد التقوى، وإذا بنا نقع مباشرة في (حي البيازين) الشهير الذي نبحث عنه وهو حي قديم ضيق الأزقة يشبه إلى حد كبير الحي القديم خلف مسجد قرطبة.

وكل شوارعه مبلطة بالحجارة، وليست مستوية تحت قدمي الماشي، وليس فيه شوارع مستقيمة، وإنما شوارعه أزقة لا يستمر طولها، بل تنحني بسرعة، ولكنها ظاهر من أمرها أنها قديمة وأن هذا الحي في هذا المكان القديم منه فريد بين أحياء غرناطة.

وقد وصلنا فجأة إلى (مسجد التقوى) في الحي نفسه وهو مسجد حديث وليس مسجداً ذا شكل للمسجد من منارة وقبة وإنما هو منزل مؤلف من ثلاث طبقات اشترته الإمارات العربية ولم يوضحوا ما إذا كانت دولة الإمارات العربية هي التي اشترته أو جمعية خيرية في الإمارات وسلمته للمسلمين، وقد اشترت الطابقين الأرضي والذي فوقه، وامتنع أهل الطابق الثالث وهم من الإسبان عن بيعه.

ومع ذلك لم يعارضوا في كونه مسجداً، بل استمروا ساكنين فيه والمسجد يشغل الطابقين اللذين أسفل منهم.

دخلنا إلى الطابق الأول الذي لم يكن واسعاً لأنه اقتطعت منه غرفة ولا يستعمل للصلاة إلا يوم الجمعة، لأن الطابق الثاني الذي فيه المسجد يضيق بالمصلين صلاة الجمعة فيصلون في هذا الطابق الأسفل مع الطابق الذي فيه المسجد.

صعدنا إلى الطابق الثاني فوجدناهم في صلاة العشاء وكنا صليناها جمعاً مع المغرب إلا أن أحد المرافقين لنا من المقيمين في غرناطة دخل في الصلاة معهم، وعندما سجدوا صورت الصف الأول، وكان فيه صفان الثاني منهما لم يكتمل، وقد صورتهم وهم يهمون بالجلوس ومن خلفهم لئلا يشوش عليهم التصوير إ ذا كان من أمامهم وهم في الصلاة، وقصدي من ذلك تذكر طول الصف وعدد المصلين فيه.

صورة للمصلين في مسجد التقوى في غرناطة وهم سجود، وقد انتقدها أحدهم

وبعد الصلاة التفت أحد الإخوة المصلين وهو مغربي مثل أكثر المصلين، وقال بحدة وخشونة من الذي صورنا ونحن نصلي؟

ولم أقل: أنا ولم يقل أحد المصلين إنه فلان ولكن المصورة كانت معي، فقلت له وقد انضم إلينا إمام المسجد: إن هذا ليس التصوير المنهي عنه، وإنما غلط من سماه تصويراً وأردت أن استدلَّ على ذلك بالأحاديث التي تنهي عن التصوير، ولكن الرجل بدأ ضيق الصدر حاد الطبع، وقال أحد المصلين من

المغاربة أيضاً: إنه ليس قصد الأخ الذي أنكر التصوير أنه محرم وإنما له ملحظ آخر لأن الحكومة قد تستدل بالتصوير إذا كان فيهم من هو ملاحق منها.

وكفاني أحد الإخوة الحاضرين بأن الصورة ليس فيها شيء من وجوههم بل هي تصوير للصف، وانضم إمام المسجد إلينا يقول: إن هذا التصوير لا بأس به ولكنه كان متحفظاً في الإفصاح عن ذلك أول الأمر حتى خرج الذي أنكر الصورة.

جلسة في المسجد:

جلسنا مع الإمام وبعض الإخوة المصلين وأكثرهم عرب من المغرب، وفيهم اثنان أو ثلاثة من المسلمين الجدد من الإسبان.

وقال أحدهم يعتذر عما بدر من الرجل المنكر: إنه أخ مغربي يخشى أن تستعمل الصورة ضد أحد المسلمين فقلت له: إن عدم محبتهم للصورة: أمر يقررونه هم ونحن نأسف لكوننا لم نعلم بذلك، وانما الخوف من الصورة بأنها لن تنشر هنا وإنما ستكون إذا نشرت بعد سنوات في كتاب لا يقرأه إلا أناس في البلدان العربية الشرقية، ولا يتضح في الصورة وجه لأي أحد منهم.

ثم حدثوني عن المسجد وكان الإمام أكثرهم ودية وترحيباً وهو مغربي اسمه (حامد عمر لولي) فذكر أن المسلمين كانوا استأجروا هذا البيت لأول مرة في عام ١٩٨٤م وصلوا فيه ثم اشترته الإمارات العربية ما عدا الطابق الثالث كما تقدم.

قالوا: ويصلي الجمعة فيه في العادة عدد في نحو المائة مصلٍ قالوا: والمسلمون يزيدون وقال الإمام: لم يكن المسلمون هنا يظنون عندما استأجروا هذا المسجد وصلوا فيه لأول مرة أن عدد المصلين المواظبين على الصلاة سيبلغ هذا المبلغ، وذكروا أن الذين اسسوه في الأصل بمعنى بدءوا الصلاة فيه عمادهم

المسلمون الجدد من الإسبان، إلا أن العرب وبخاصة المغاربة كثروا فيه حتى صاروا الأكثرية.

قالوا: واصله بيت قديم عريق في هذا الحي القديم العريق (حي البيازين) فقلت: لقد قرأت اسمه هكذا (حي البيازين) في المراجع القديمة التي كتبت قبل قرون فقالوا: إنه لا يزال على اسمه القديم إلا أنه حرف الآن على أفواه الإسبان إلى حي (البايزين) وجاء من العرب من حرف معناه إلى (حي البائسين) ظناً منه أن البائزين معناها: البائسون.

وكانت الجلسة في المسجد (مسجد التقوى) جلسة طيبة استفدنا منها كثيراً وكنت لاحظت ونحن نتحدث أن جميع اللوحات المعلقة في حيطان المسجد هي بالعربية وحدها.

يوم الجمعة ١٤٢٣/٨/٥هـ- ٢٠٠٢/١٠/١١م:

جولة في غرناطة:

وهذه جولة مفيدة على الأقدام قمنا بها مع أخينا الكريم الدكتور (غطفان بن كاظم العلواني) وهو خبير بقلب مدينة غرناطة الذي سنقوم بالجولة فيه، وهو سوري يقيم هنا ويقول إنه لا يشكو من شيء، إلاَّ أن زوجته وقد جاءت للعمل معه في إسبانيا وهي طبيبة سورية متخرجة من سوريا لذا لم يسرع الإسبان في منحها رخصة العمل الطبي بسبب عدم تقويم شهادتها الطبية و معادلتها بالشهادات المماثلة في المستوى التي تصدرها الجامعات الإسبانية، قال: وهذا ليس خاصاً بزوجتي، بل هو عام لمن يكونون مثلها من الأطباء، وإنها تقول: إنه لا يوجد ما يجبرنا على البقاء ومحاولة العمل في إسبانيا، وأرض الله واسعة.

شارع كولون:

سمعت بعضهم هنا يلفظ به (كولان) وهو غير ما كنت حفظت من اسمه في أمريكا الوسطى وأقطار البحر الكاريبي، وبخاصة جمهورية الدومينكان التي عاصمتها (سانتودومنقو) التي احتفت به لانه أقام فيها فترة ومات فيها ولده، ودفن هناك ولا يزال قبره مشهوراً في ضاحية عاصمتها (سانتودمنقو) وقد ذكرت ذلك في كتاب: (بورتو ريكو ودومينكان) من سلسلة الرحلات في جزر البحر الكاريبي، وا لمراد بـ (كولون) كريستوفر كولومبس، مكتشف العالم الجديد الذي أرسله ملكا إسبانيا وهما الملك فريناند وزوجته الملكة إيزابيلا للبحث عن طريق يوصل إلى الهند من المغرب، أقرب من الطريق المعتاد الذي يذهب إليها من جهة الشرق.

شارع كولون ينطلق من ساحة كولون في غرناطة

(شارع كولون) هذا من أهم الشوارع في المدينة وهو تجاري عامر بالمحلات التجارية ومكاتب الشركات.

كان المقرر أن ننطلق في الجولة ابتداءاً من الساعة السابعة ولكن الدكتور غطفان اتفق معه رئيسه في العمل أن نبدأ في الثامنة وأن يعود إلى عمله في العاشرة.

لذا بدأنا في الثامنة بالضبط هذه الجولة.

والشارع يعتبر الشارع الرئيسي في غرناطة لذلك وصف رسمياً بأنه الشارع الكبير، و بأنه شارع كبير (قراندیا دي كولان) بالإسبانية.

وفي نهاية هذا الشارع ما يعيد إلى ذلك ا لمرء عصر الاستكشاف ممثلاً في ميدان ينتهي إليه الشارع سنذكره فيما بعد فيه تمثال للملكة ايزابيلا وهي تستقبل كريستوفر كولومبس (كولون) الذي اكتشف العالم الجديد، وذلك قبل ذهابه في سفره الذي أصبح أعظم استكشاف جغرافي في تاريخ البشرية إذْ كان أهل العالم القديم لا يعرفون شيئاً عن العالم الجديد وأهله، وأهل العالم الجديد لا يعرفون شيئاً عن العالم القديم وأهله.

تمثال الملكة إيزابيلا الكاثوليكية وهي تستقبل في غرناطة كريستوفر كولومبس (كولون) عند سفره لاكتشاف ما وراء المحيط الأطلسي

والمراد بالمعرفة معرفة الوجود وليس معرفة الأحوال، وفي هذا الشارع خطوط للقطار القصير الكهربائي (الترمواي) الذي كان يعتبر أول المواصلات العامة التي تسير على الكهرباء في شوارع المدن، وقد ألغيت عنه أخيراً مثل أكثر المدن الكبيرة كالمدن العربية لأنها قديمة وتعرقل سير السيارات، مع أن التخلص من السير ببعض السيارات أو استبدالها في شوارع المدن بالمواصلات العامة لمن لا يضطرون لأخذ سياراتهم أمر مرغوب فيه، بل هو مطلوب.

فهذا الشارع المهم الذي لا تزال فيه خطوط (الترمواي) باقية رغم إلغاء القطار نفسه، هو ذو أرصفة جيدة واسعة، بل ممتازة، وهو يبدو أرقى الشوارع التجارية داخل المدينة.

ولاحظت كثرة سير السيارات فيه، وهذا أمر طبيعي لأن معظم الشوارع الداخلية التي عن يمينه وشماله شوارع قديمة ضيقة، ولكن اللافت للنظر كثرة المشاة فيه، والجو بارد وقد أعلن التلفاز أن درجة الحرارة الآن هي ٨ درجات مئوية.

الجامع الذي صار من أرضه كنيسة:

عدلنا مع اخينا الدكتور غطفان العلواني إلى جهة الغرب، وهي التي يمين بالنسبة إلينا لأننا كنا نسير إلى جهة الجنوب الغربي فدخلنا في شارع قديم يشق حيّاً قديماً من أحياء غرناطة مقابلاً لحي البيازين يفصل بينهما شارع كولون.

والشارع واسع نسبياً ولذلك كان عليه الجامع الكبير في غرناطة في زمن الحكم الإسلامي، وبعد أن سقطت غرناطة باستيلاء الملكين الكاثوليكيين عليها وهما فيريناند وزوجته (ازابيلا) هدم المسجد الجامع ولا أدري بالضبط تاريخ هدمه وبنى الإسبان في مكانه كنيسة كبيرة صارت (كاتدرانية غرناطة) والمراد بالكاتدرانية في اصطلاحهم الكنيسة الرئيسية للمدينة.

وقد صارت تلك الكنيسة بتلك المثابة، ولذلك صار ملوكهم يدفنون فيها وفيها الآن عدد منهم ممن يدينون بالكاثوليكية النصرانية، أما البروتستانت فإنهم لهم كنائس أخرى كما هو معروف، ومنهم الملكان الكاثوليكيان المذكوران فيرديناند وزوجته إيزابيلا وقد استعملوا بعض أنقاض المسجد من حجارة وأجزاء من العمدة في بناء الكنيسة ولكن في غير أماكنها من المسجد، وأخبرني مرافقنا الأخ الكريم غطفان العلواني أنه رأى نقوشاً وكتابات عربية في الحفريات المجاورة للكاتدرانية هذه، بل قال: لقد رأيت عقوداً إسلامية مدفونة أي إنها سقطت ثم دفنت في مكانها، لأن ذلك أسهل من نقلها إلى مكان آخر.

بين طيات التاريخ:

المؤلف في زقاق ضيق في غرناطة القديمة

وطيات التاريخ هذه الأزقة الضيقة المرصوفة بالحجارة حتى لا تكاد السيارة الواحدة تمر فيها وطراز البناء القديم، ولا يعدم ا لمرء أن يرى فيها ساباطاً وهو كالغرفة التي تبنى على الشارع واصلة بين دارين متقابلتين على جانبيه.

المدرسة العربية:

في رأس الشارع الذي فيه الكاتدرانية وهي الكنيسة الرئيسية في المدينة التي بنيت على أنقاض المسجد الجامع الكبير في غرناطة تقع (المدرسة العربية والأوروبية لدراسات الإدارة) هكذا كتبوا اسمها عليها بالإسبانية، وهي في مبنى أثري قديم من ألطف ما رأيته فيه مما ذكرني بما كان موجوداً على الأبواب في بلادنا (المطرقة) التي يطرق بها الباب من أجل أن يفتح أهل البيت للطارق.

ومطرقة الباب كما كنا نسميها هي قسمان قسم نسميه الحلقة لكونه مستديراً يطرق به على حديدة مثبتة تحته في الباب، والثاني على هيئة مرزبة من الحديد يدها ورأسها من الحديد إلا أنها قصيرة وتضرب حديدة أسفل منها، لذلك ليكون لها صوت ينبه أهل البيت على وجود الطارق عند الباب من أجل أن يفتحوه له.

ووجدنا المطرقة على باب المدرسة الذي يبدو أثرياً كالمرزبة وليس كالحلقة مما يدل على أن المبنى كان بيتاً سرياً أو مدرسة خاصة يغلق بابه، فيضطر من يريد الدخول إليه إلى قرع هذه المطرقة.

المؤلف عند مدخل مدرسة يوسف الأول في غرناطة

الساحة الرومانية:

سرنا على أقدامنا مع شارع الجامع باعتبار أيام الإسلام أو الكاتدرائية باعتبار ما هو كائن في هذه الأيام وما قبلها من أعوام قاصدين جهة الغرب، نجتر التاريخ القديم تاريخ المسلمين في هذه المدينة التي هي آخر معاقل المسلمين في الأندلس سقوطاً في أيدي الإسبان فوصلنا إلى ميدان يعتبر واسعاً بالنسبة إلى ساحات الميادين القديمة، وإن لم يكن واسعاً فيما صرنا نعرفه الآن ويسمونه

(الميدان الروماني) ولا أشك في أنه كان له اسم آخر في العهد العربي في غرناطة ولكنني لم أجد من يعرفه الآن.

وتبدو الأبنية التي على هذا الميدان أحدث من غيرها من وسط غرناطة، وإن كانت قديمة.

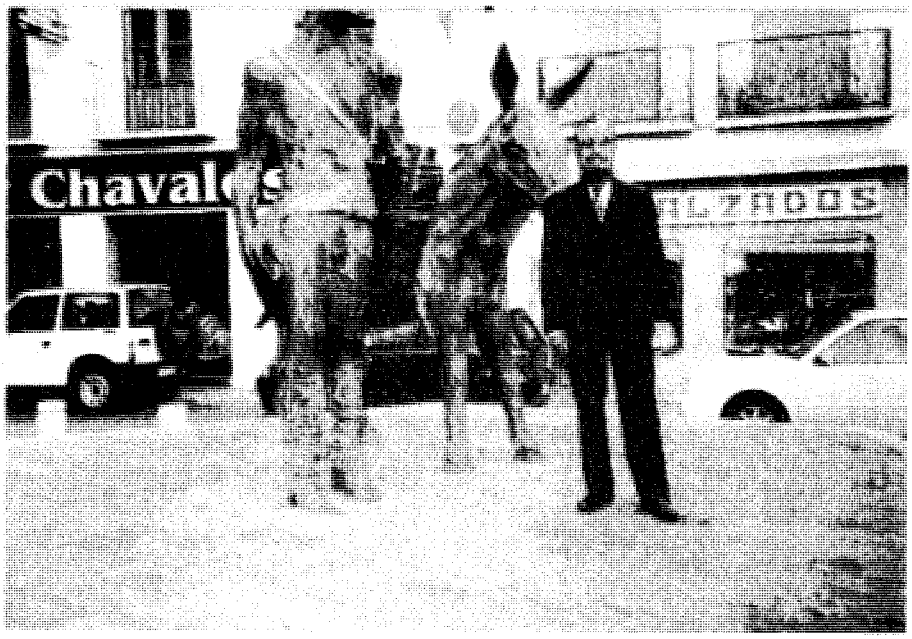

بجانب تمثال السقاء وبغله في غرناطة القديمة

ومن ألطف ما رأيناه في هذا الميدان تمثال للسقاءِ الذي يجلب الماء إلى البيوت على بغله وهم أقاموا له تمثالاً بجانب بغله فوق منصة مرتفعة تتوسط الشارع.

وهو شبيه بما كان عندنا غير أن السقائين الذين أدركناهم في بلدنا لم يكونوا يعرفون استخدام البغال، وإنما كان السقاء يجلب الماء على الحمير، إضافة إلى أن بعضهم كان يحمل القربة على ظهره، وبعض السقاءات من النساء يجلبن الماء في قدور كبيرة إلى البيوت.

ميدان باب الرملة:

عندنا إلى جهة الجنوب من (الميدان الروماني) فدخلنا زقاقاً ضيقاً قديماً أي من عهد العرب وعليه ساباط وهو السقف فوق الشارع كما قدمت ذكره، ومنه خرجنا فذهبنا إلى ميدان ليس واسعاً اسمه عربي قديم وليس كاسم (الميدان الروماني) وهو (ميدان باب الرملة) وهذا هو اسمه العربي، ولم يبعده الإسبان بنطقهم عن ذلك فأسموه (بيت الرملة) بإبدال الألف بعد الباء الأولى، ولا يزالون يسمونه بهذا الاسم، يعرفونه به، وهو ميدان واسع.

المؤلف في زقاق ضيق في غرناطة القديمة

وليس لميدان (باب الرملة) هذا من أهمية الآن إلا كونه قديماً بل تاريخياً.

ولشيء آخر يتعلق بنا نحن العرب، وإن كنا لا نملك براهين على ذلك وهو ما أشيع أن بعض الإسبان الحاقدين المتعصبين ضد العرب كانوا يحضرون الكتب العربية إلى هذا الميدان يحرقونها فيه علناً، وأن شخصاً معروفاً باسمه كان يجمع الكتب العربية المحلاة بالذهب فيحرقها أمام الناس ويستخلص منها الذهب الذي حُلِّيَتْ به.

قالوا: فجمع من ذلك ثروة أي مما اجتمع له من الذهب الذي أخذه من حلية الكتب التي أحرقها.

والواقع أن المؤرخين مجمعون على أنه حدث إتلاف وحرق لمجموعا ضخمة من الكتب في المدن الإسلامية في الاندلس، وبخاصة بعد سقوط غرناطة، ولكن ذلك لم يكن عاماً في إسبانيا كلها، بل إن بعض ملوك المناطق أو النواحي من النصارى كانت لديهم محبة للعلم، فأبقوا على تلك الكتب، بل كانوا يجمعون الكتب العربية، ويضيفونها إلى ما عندهم من أهم من فعل ذلك الحاكم الذي بقيت كتبه في دير الاسكوريال قرب مدريد، وتحوي كنوزاً من المخطوطات انتفع بها الباحثون والمحققون ولا يزالون.

وأذكر أن واحداً منها انتفعت به وهو كتاب (ذم الثقلاء) لمحمد بن عمر بن المرزبان إذْ كان أحد المراجع الرئيسية التي اعتمدت عليها في كتابي (كتاب الثقلاء) الذي طبعته الجمعية العربية السعودية للثقافة وا لفنون قبل نحو ربع قرن من الزمان، وكانت نسخة الاسكوريال هي الوحيدة التي وصل إليها علمنا بأنها باقية من هذا الكتاب في ذلك الوقت.

سوق القيسارية:

مصطلح القيسارية أو التسمية بها مصطلح شرقي مغربي فبالنسبة للمشرق لعل كثيراً منا يعرفون أنه موجود في دمشق القديمة غير بعيد من (سوق الحميدية) وهو قديم التسمية هناك حتى إ نه ورد ذكره في كتب الرجال، والتاريخ باسم (القيسارية) ولا تزال التسمية به باقية حتى الآن.

في مدخل سوق القيسارية

أما في المغرب فإنني عند ما زرت (مدينة عيون الساقية الحمراء) وهي المعروفة اختصاراً بالعيون وهي عاصمة الصحراء الغربية رأيت مجموعة من الدكاكين قد بنيت حديثاً، و كتب عليها اسمها (قيسارية أم السعد).

وإذا أردت أيها القارئ الكريم أن تطلع على ما كتبته عن زيارتي للصحراء الغربية (المغربية) فإن ذلك موجود في كتاب: (العودة إلى المغرب الأقصى بين الصحراء والأرض الخضراء)، وعندنا في الرياض (القيصرية) وهي هي الكلمة هذه ولكن حصل تغيير في اسمها وهي مجموعة من الحوانيت (الدكاكين) التي تكون داخلة عن الشارع العام وفي سوق أو أسواق يدخل من بعضها إلى بعض، أما الدكاكين التي تفتح في الشارع العابر فلا تسمى (قيسارية).

ولقيسارية غرناطة معنى آخر لأن هذا الاسم فيها مضمخ بعبق التاريخ العربي الإسلامي القديم، والقيسارية كما تعرف الآن فيها هي سوق قديم فيه دكاكين متلاصقة، وهو واقع في أجزاء من مدينة غرناطة القديمة.

دخلنا من مدخل سوق القيسارية (الغرناطية) تحت قوس كالأقواس العربية القديمة ووجدنا السوق ذا محلات قديمة ولكنها في غاية النظافة، وقد بلطت أرض السوق والأزقة المتصلة به بحجارة ملساء، ولاحظت أن بعض الأقواس القديمة قد بنوا فيها جدراناً من أجل توسعة المكان خلفها، وهذا يكون في كل الزقاق والواجهة الواحدة منه، وإلا فإنه لا يوجد ما بعضه فقط كذلك.

آخر جامعة عربية في غرناطة:

والمراد بذلك أنها آخر جامعة من الجامعات العربية في الأندلس التي كانت عامرة بالمدرسين والطلاب قبل سقوط غرناطة، وكانت تسمى في القديم مدرسة،

لأن هذا كان اصطلاحهم في تسمية المدارس الكبيرة التي تبدو كالكليات في الوقت الحاضر.

واسمها (مدرسة يوسف الأول) وهو مكتوب عليها باللغة الإسبانية بهذا المعنى، وهي فاخرة المبنى فكل أقسامها منقوشة بالفسيفساء على طراز عربي جميل.

بئر ضيقة في مدخل مدرسة يوسف الأول في غرناطة

ومع أنها فاخرة فإنني رايت في وسط فنائها بئراً وهذا أمر رأيناه في كثير من المدن الأندلسية أن يكون في المكان المسقوف من البيت بئر، بخلاف ما عليه الحال في أن يكون البئر في بيوتنا في القديم في الفناء المكشوف من البيت وهو

الحوش، وذلك أنه لم تكن لدى بني قومنا مواد مقاومة لرشاش الماء كالتي في الأمصار العربية.

وقد فوجئت عندما رأيت آباراً ضيقة في بيوت المدينة المنورة القديمة التي تكون أيضاً داخل البيت.

ولم يغير الإسبان في مبنى هذه الجامعة شيئاً ولا محراب الصلاة في جانب منها كالمسجد، إلاّ أنهم كانوا قد حجزوا المحراب بحاجز بحيث يرى ولا يوصل إليه، وربما كانوا يخشون في السابق من أن يصلي فيه أحد من المسلمين، وعلى أية حال فإنه الآن مثل سائر هذه الجامعة العربية العريقة في مبناها ومينائها مفتوح للزوار، ورأيتهم يرممون بعض النقوش.

وليست واسعة كما أن المنطقة التي تقع فيها من غرناطة ليست واسعة، لأنها في المدينة القديمة.

ساحة ايزابيلا الكاثوليكية:

و(ايزابيلا) هي الملكة زوجة الملك فرناندو التي أجهزت مع زوجها الملك على آخر بقايا الأراضي التي كانت تحت حكم المسلمين في الأندلس ومنها مدينة غرناطة عام ٨٩٢هـ.

وسميت الكاثوليكية لأنها متعصبة للمذهب الكاثوليكي الذي لم يكن كل الأسبان عليه وهذه الساحة مهمة جداً في المدينة، ولذلك نحتوا فيها تمثالاً للملكة الكاثوليكية (ايزابيلا) هذه (وهي تستقبل كولون) الذي هو كريستوفر كولومبس.

وذلك عندما كانوا يجهزون حملته البحرية لكي تنطلق غرباً للبحث عن طريق يوصل إلى الهند من جهة الغرب بدلاً من الطريق المألوف جهة الشرق.

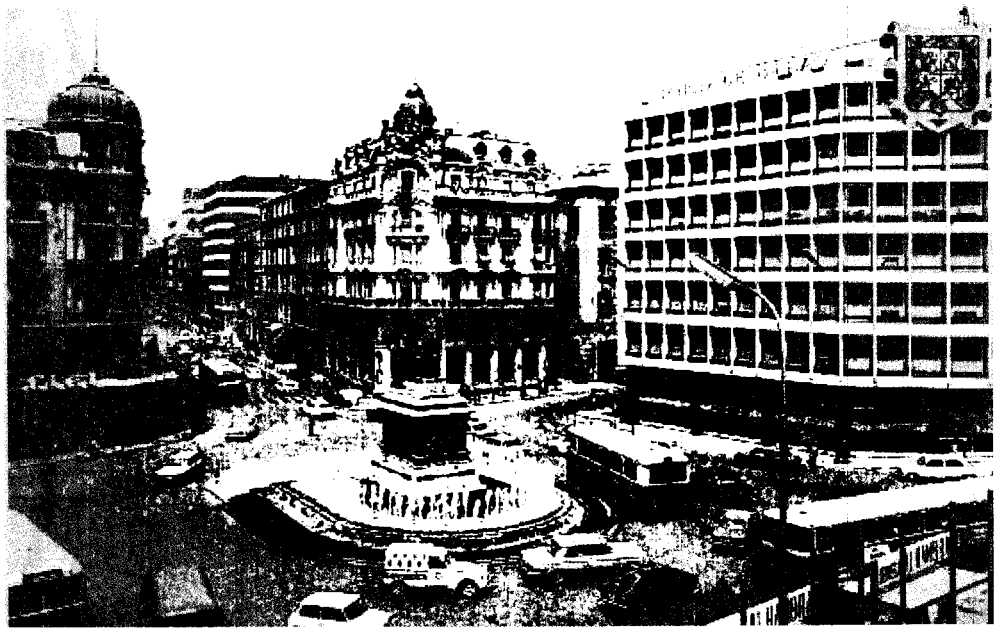

ساحة إيزابيلا الكاثوليكية في غرناطة

وقال بعض الباحثين: إن الدافع لتجهيز (كولومبس) إلى الغرب هو رغبة هذه الملكة في الدعاية للديانة المسيحية والكاثوليكية وليست الرغبة في ثروة الهند التي من أهمها التوابل، وقد جعل المثال الذي تحت تمثال (ايزابيلا) عليها التاج، لأنها ملكة بمعنى زوجة ملك.

ومن المصادفات الحسنة أننا قابلنا رئيس مرافقنا الأخ الدكتور غطفان العلواني وهو مدير القسم العربي بوكالة الأنباء الإسبانية واسمه (ماركوس ري) وقد تحدثت معه بالعربية تحت تمثال ايزابيلا وكريستوفر كولومبس، وقلت له: لقد وقفت على نتائج سفر (كولومبس) في البحر الكاريبي وأمريكا الجنوبية، وزرت أول أرض وقعت عليها عيناه من العالم الجديد وهي جزر البهاما.

وقد تبادلنا عبارات المجاملة معه.

ثم واصلنا الجولة.

مساجد غرناطة:

قال لنا الأخ الدكتور غطفان العلواني: كان يوجد في مدينة غرناطة عندما احتلت ستون مسجداً وقد ذهبت كلها، وأكثرها غير إلى كنائس أو هدم وبنيت على أرضه كنائس أو غيرت ملامحه واستعمل في أغراض أخرى.

قال ذلك عندما وصلنا إلى مبنى المحكمة الإسبانية وهو من طراز غير الطراز العربي الأندلسي، بل هو مما يسمى بطراز عصر النهضة، ويرقى تاريخ بناء هذه المحكمة إلى نحو ٣٥٠ سنة، ويقع على الساحة الجديدة التي تسمى بالإسبانية (بلاسانيوفا) بهذا المعنى.

أما الذي جر إلى الحديث في أول هذا الفصل فهو أننا رأينا على هذه الساحة المسماة بالجديدة كنيسة تسمى سانتانا كانت مسجداً فغيره الإسبان إلى كنيسة.

ومنارته صومعة أندلسية جميلة لم تغير بالبناء وإنما وضعوا عليها الصليب.

وقد بقيت المنارة هذه تدل على أن مبنى الكنيسة هذه كان مسجداً من مساجد غرناطة القديمة.

وقد رأينا شيئاً غير مألوف عندنا وهو أفواج من الطلاب الكبار من الجنسين الذكور والإناث وقد افترشوا أرض الميدان الذي يقع أمام الكنيسة من دون مقاعد أو فرش وانهمكوا في رسم هذه الكنيسة التي كانت مسجداً، وأجمل ما فيها وأظهره هذه الصومعة الأندلسية الممتازة.

الطلبة يرســمون برج كنيســة سانتانا الذي كـــان منارة مسجد في ساحة (بلاسا نيوفا) في غرناطة

وأظنهم طلاب كلية من كليات الفنون الجميلة أو طلاب ثانوية متقدمة، وقد رأيتهم وهم على غاية النظافة في الملابس والمظاهر، بل والأناقة في الهندام قد جلسوا في الأرض جماعات جماعات في بعض الاماكن كان يجلــس واحــد أو اثنان منفصلين عن جمهورهم، وربما كان مدرسوهم قد أعطوهم الحرية في ذلك، مع أنني لم أر معهم أحداً من المدرسين.

ورأيت بعضهم يرسم واقفاً وقد رفع ركبته ليضع عليها الورق.

نهر حُدرَّة:

نهر حدرة رغم عدم غزارة مياهه، وضيق مجراه نهر تاريخي بمعنى أنه مذكور في التاريخ العربي لغرناطة كثيراً.

وتقع هذه الكنيسة التي كانت مسجداً على ضفته من جهة.

ولم أكد أسمع اسمه حتى طلبت من الأخ غطفان أن أسير مع ضفته حتى أعيا، أو ينقطع مجراه هنا.

تركت الطلاب الإسبان من الكبار وعددهم يناهز ١٢٠ وهم منهمكون برسم المنارة العربية بوجه الخصوص لأنها التي يظهر للجميع أنها قديمة، بل تاريخية.

المؤلف بجانب نهر حدرَّة المواجه لحي البيازين في غرناطة

ولكننا وفقنا مباشرة عند حائط الكنيسة المذكورة على ضفة نهر حدره نستجلي التاريخ العربي القديم فهذا مدخل حي (البيازين) القديم من جهة الجنوب بينه وبين نهر (حُدُرَّه) شارع النهر تطل عليه الحمراء من فوق الجبل الذي يبدو كالواقف، فنحن الآن نقف من ناحية الموقف عكس الموقف الذي كنا فيه في قصر الحمراء حيث كان تحتنا حي البيازين.

فنحن إذاً نمسك بأطراف التاريخ العربي العريق في هذه المدينة فهذه الحمراء تطل من علو وحي البيازين يفتح بابه للداخلين ونهر حُدُرَّه التاريخي كأنما يرثي بانسيابه العرب الغابرين.

وحتى هذه الصومعة الأندلسية التي طالما ذكر اسم الله عليها تشكو من ثقل الصليب الذي استبدل به الإسبان الشهادتين، والطلاب الإسبان الذين يرسمون معجبين هذا الأثر التاريخي العربي الإسلامي النفيس.

سرنا نباري نهر حُدُرَّه ولكن عكس سيره فهو يجري منحدراً من تلك الأماكن المرتفعة ونحن نسير مرتفعين لكي نملأ عيوننا من انحداره وجريانه الذي طالما ملأ منه عيونهم قومنا الأقدمون.

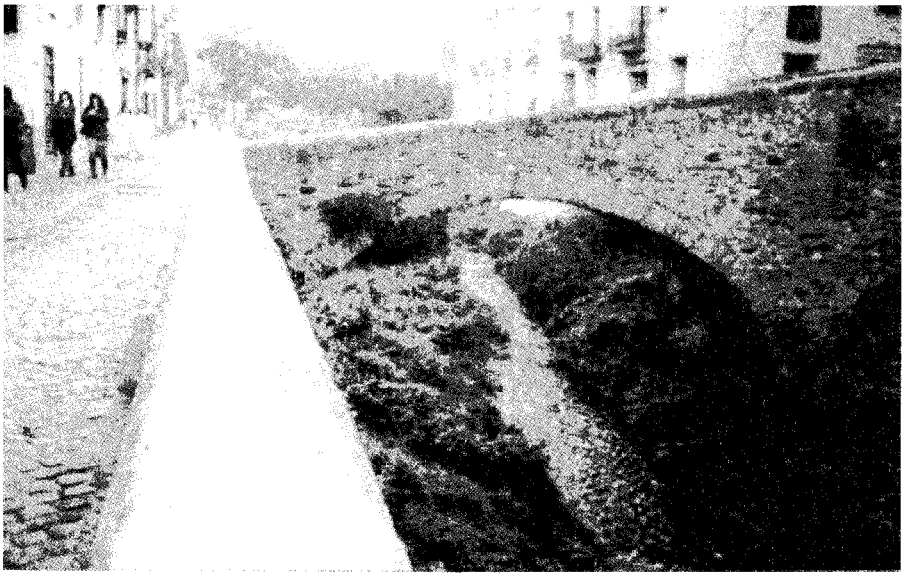

قنطرة عربية فوق نهر حدرة في غرناطة

والنهر صغير يبدو في حجم نهر بردي في دمشق أو أقل قليلاً من حجمه و مع ذلك لا يزال يجري متدفقاً وإن كان نزر المياه.

وكأنما خيل إلينا ونحن نماشي نهر حدره العميق المجرى أننا نجمع أطراف التاريخ هنا لكي نعمل بطريقة لا شعورية على أن يكون بأيدينا كما كان، وذلك أمر ليس في الإمكان.

وإذا كان فينا حياة فلنحافظ على ما بأيدينا الآن، من بلاد تحتاج إلى الكياسة في السياسة وحسن القصد في الجهد، والله المستعان.

نهر حُدرَّة في غرناطة (تصوير المؤلف)

وأخذت أصور هذه الأماكن التاريخية الحمراء من الأسفل ونهر حدره عليه العقود العربية بالآجر التي يعجب المرء منا من قدرتها على تحمل ما يسير فوقها حتى السيارات إلا أنها غير راسعة مما يجعلها تتحمل الثقل.

سرت حتى أعييت وأنا أصعد ضد مجرى نهر حدره لا أمل النظر إليه، ثم عدنا أدراجنا إلى الساحة الجديدة.

إلى نهر شينيل:

شينيل هو أحد نهري غرناطة والثاني نهر حُدُرَّه وهذا هو المشهور المنقول عن العرب، وإن كان يعرف أن نهر حدره يعتبر متفرعاً من نهر شينيل في مكان عالٍ قبل وصوله إلى غرناطة، وسوف نرى أشياء أخرى عند ما نذهب إلى نهر شينيل.

ركبنا سيارة أجرة من الساحة الجديدة حتى ضفة نهر شينيل حيث وجدنا ميداناً واسعاً، بعضه يشبه الحديقة، وهو خالٍ من الأبنية ماعدا قصراً قديماً يظهر أنه مبني حديثاً أو هو مجدد على ضفة القصر القديم ويسمى (قصر أم السلطان) يقال: إنها أم السلطان عبيد الله الصغير الذي سلم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين الإسبانيين.

ولذلك وضعوا تمثالاً للسلطان عبيدالله الصغير فيه أمامه جارية أو خادمة وكتبوا عليه: إن هذا التمثال هدية من غرناطة إلى (أبي عبيدالله الصغير) وعليه كتابة آخرى صغيرة (ذكرى غرناطة).

وذلك في هذا الميدان الواسع المسمى (ميدان نهر شينيل) أما القصر فيقال: إن أ م السلطان تأتي إليه في بعض الأحيان.

ولا يعقل أن امرأة ملكية تملك مثل قصر الحمراء تأتي إلى هذا القصر الحقير اللهم إلا إذا كان ذلك للتغيير والاستجمام لأن هذا المكان يعتبر خارج مدينة غرناطة القديمة وأن الأمر كله مبني على تحريف تاريخي متعمد أو غير متعمد.

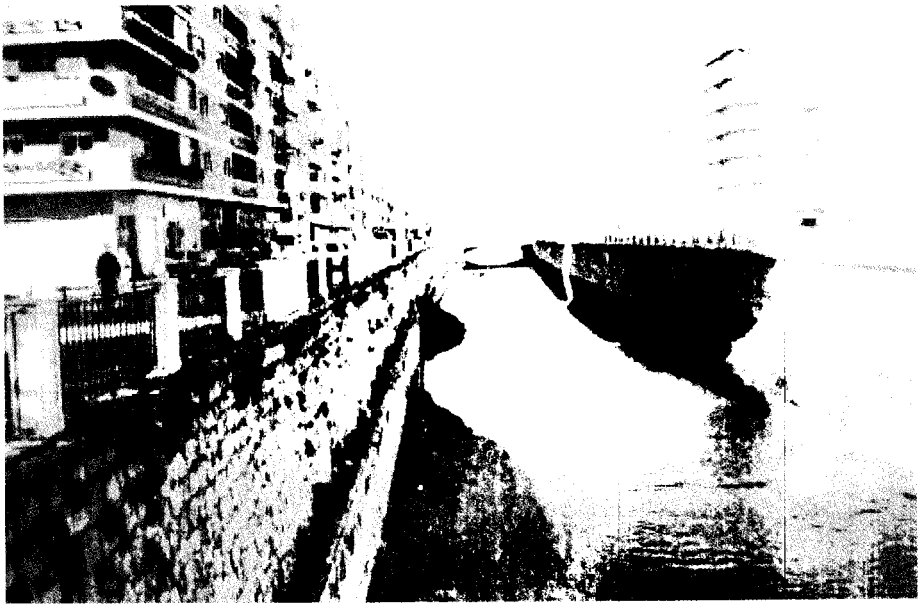

نهر شينيل في غرناطة

مسخ النهر:

أرأيت نهراً يبلط مجراه بالأسمنت؟

هذه صارت حال نهر شينيل، فقد رأيت مجراه بل قاع مجراه مطلياً بالأسمنت، ومع ذلك لم تملأ مياهه حتى هذا المجرى المبلط، رغم عمق المجرى.

وقلت في نفسي ثم لأصحابي: إنهم مسخوا نهر شينيل كما مسخوا تاريخ العرب في هذه البلاد إلا ما لا يستطيعون القضاء عليه منه، لأنهم يستفيدون منه أو لكونهم يعرفون أن العرب المحدثين لن يستفيدوا منه في تذكر مجدهم القديم.

وقال الأخ الدكتور غطفان العلواني: إنه في هذا المكان على ضفة نهر شينيل قابل المعتمد بن عباد عشيقته على ضفة نهر شينيل.

نهر شينيل في غرناطة

فقلت: لو بعث ابن عباد من مرقده في جبال الأطلس في المغرب حيث كان مات في محبسه في (إغمات) فإنه لا يمكن أن يعرف نهر شينيل، أما غرناطة وأهل غرناطة فإنه لا يتصور حالتهم الحاضرة حتى في الخيال.

كانت الشمس ساطعة والجو جيد، وقد انهزم برد الصباح والجولة مع الدكتور غطفان ليس من السهل أن يقبل المرء منا أنتهاءها ولكن الوقت داهمنا والزمن الذي أذن فيه له رئيسه قد انقضى.

بوَّابة البيرة:

المؤلف عند بوابة البيرة في غرناطة القديمة

عدنا إلى الفندق ولكنني أنا لم أدخله وإنما جعلت أصور بوابة قديمة كانت جزءاً من سور غرناطة القديمة وحافظوا عليها أو جددوها وواضح أنهم إذا كانوا قد عملوا فيها شيئاً فإنهم حافظوا على طابعها القديم.

وتقع بجانب الفندق الذي نسكن فيه واسمه (سرغرناطة) بلفظ السر واحد الاسرار هكذا ذكر لنا الإخوة الذين يعرفون الإسبانية بأنه معنى اسمه.

وسميت هذه البوابة القديمة بوابة (البيرة) لأنها التي يخرج المسافرون منها إلى مدينة البيرة على بعد ١٩ كيلومتراً فقط من غرناطة.

وقدرأيت نقل نص يوضح بعض أمرها، قال صاحب الروض المعطار:

البيرة: من كور الأندلس جليلة القدر نزلها جند دمشق من العرب وكثير من موالي الإمام عبدالرحمن بن معاوية، وهو الذي أسسها وأسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، وجامعها بناه الإمام محمد علي تأسيس حنش الصنعاني.

وحولها أنهار كثيرة، وكانت حاضرة البيرة من قواعد الاندلس الجليلة والأمصار النبيلة فخربت في الفتنة وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة فهي اليوم قاعدة كورها، وبين البيرة و غرناطة ستة أميال، ومن الغرائب أنه كان بناحية مدينة البيرة فرس قد نحت من حجر صلد قديم هناك لا يعلم واضعه فكان الغلمان يركبونه ويتلاعبون حوله إلى أن انكسر منه عضو فزعم أهل البيرة أن في تلك السنة التي حدث فيها كسره تغلب البربر على مدينة البيرة فكان أول خرابها.

ومدينة البيرة بين القبلة والشرق من قرطبة، ومنها إبراهيم بن خالد سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وسمع من سحنون وهو أحد السبعة الذين اجتمعوا في البيرة في وقت واحد من رواة سحنون، ومنها أبو إسحاق بن مسعود ا لإلبيري صاحب القصيدة الزهدية التي أولها:

تفت فؤادك الأيام فتا وتنحت جسمك الساعاتُ نحتا

وهي طويلة جداً: وهو القائل:

من ليس بالباكي ولا المتباكي لقبيح ما يأتي فليس بزاكِ

وبساحل إلبيرة كان نزول الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الداخل إلى الأندلس حين عبوره إليها.

إنتهى.

مسجد التوحيد:

و(مسجد التوحيد) هو مصلى من أماكن قليلة للصلاة في غرناطـــة، إذْ لا يوجد فيها الآن مسجد واحد على هيئة المساجد المعتادة.

ويقع (مسجد التوحيد) في حي (كرتوفا) الشمالي.

في مسجد التوحيد في غرناطة على يميني الدكتور عبدالقادر قمحية وعلى يساري الدكتور جمال الراوي

استقبلنا عنده الدكتور عبدالقادر قمحية من نابلس في فلسطين وهو طبيـــب يعمل في غرناطة والدكتور جمال الراوي وهو طبيب جراح.

فوجدنا المسجد في شقة واحدة ضيقة، حتى أنهم ذكروا أنهم لم ينشؤا فصلاً لتعليم الصغار لضيق المكان، ومع ذلك ذكروا أن المصلين يوم الجمعة قد يبلـــغ عددهم مائة مصلٍ ولا أدري كيف يتسع لهم.

وذكروا أنه أسس في عام ١٩٩٨م، وأن الحي الذي يقع فيه وهو حي (كارنوفا) الشمالي يقطنه نحو خمسمائة من المسلمين وأن كثيراً من سكان الحي هم من الطلبة.

ويسعون الآن لشراء مكان واسع، وقد أخبرتهم أن رابطة العالم الإسلامي مستعدة لمساعدتهم إذا اشتروا المكان.

وقد جلسنا معهم جلسة طيبة في هذا المسجد النظيف.

ومن الطريف أن الدكتور جمال الراوي وهو طبيب جراح ناجح يعمل في المستشفيات الحكومية أخبرنا أنه ترك الطب إلى التجارة قالاً: إنها أكثر نقوداً، وأقل مسئولية، والحي نظيف، ذو أرصفة غاية في النظافة، وتبدو عليها العناية الفائقة.

غرناطة من الأعلى:

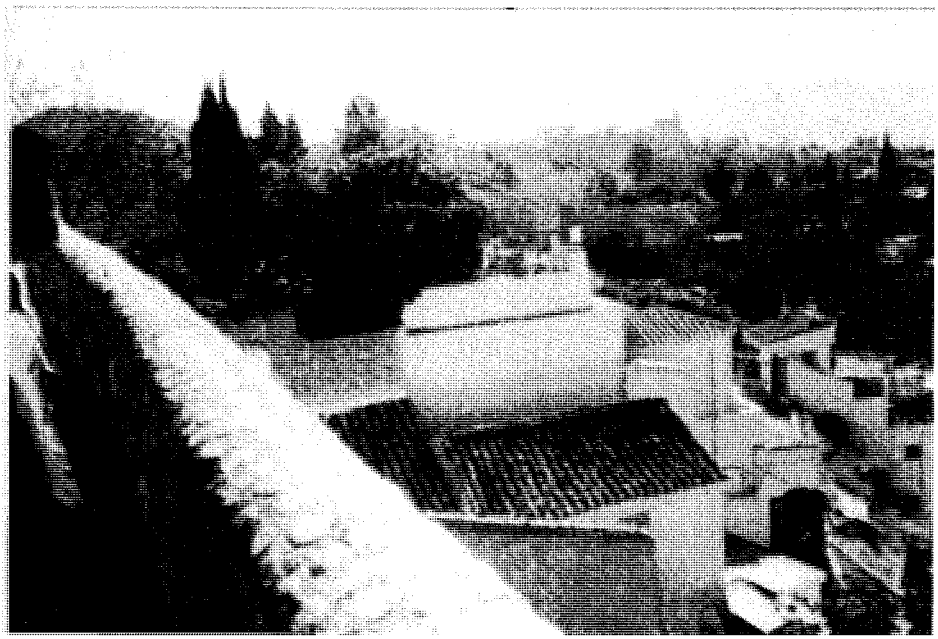

جانب من مدينة غرناطة كما يبدو من المرتفع الجبلي المطل عليها

صعدنا إلى جبل مرتفع يشرف على مدينة غرناطة، وذلك من أجل الإطلاع عليها والتقاط صور لها من هذا المكان المرتفع.

وكان ما يراه المرء من هذا المرتفع الحمراء على جبل آخر أقل ارتفاعاً، وجبل الثلج خلف المدينة قد اختلط غيمه بثلجه في النظر وهو جبل (سبرانفادا) الذي يتحلب منه نهرا غرناطة (شينيل) و(حُدُرَّه).

ويسمى المكان الذي وقفنا فيه (سان كريستوفر) وفيه مساكن ويعتبر من ضواحي مدينة غرناطة وإن كان مرتفعاً عنها.

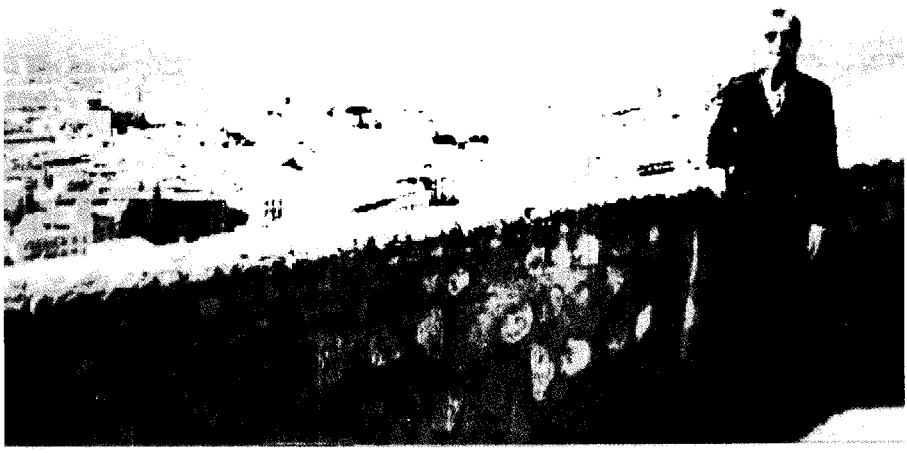

المؤلف في المرتفع المطل على غرناطة

عود إلى اليوميات:

كانت الشمس مشرقة في هذا اليوم في غرناطة والجو دافئ- كما قدمت- وبقربنا في سفح هذا الجبل وفي الأماكن الأخرى على جانبيه أشجار كثيرة من أشجار (البرشومي) وهو التين الشوكي، وقد أثلقتها ثمارها، لأن هذا أوان إثمارها وهم يأكلون ثمارها ولا أدري عن نفاسته عندهم، وإنما أذكر أنني عندما كنت في جزيرة صقلية رأيتهم يبيعونه غالياً رغم كثرة أشجاره عندهم، وربما كان ذلك إبان شح ثمره عندهم.

وقد أخبرنا أهل غرناطة أنه لا يسقى، وهذا مشاهد لأننا رأيناه متعلقاً بصخور الجبل لا يصل إليه ماء الري.

ثم انحدرنا من هذا المكان المرتفع من الجبل الذي لم نصعد إلى قمته وقصدنا متجر أخينا الدكتور جمال الراوي الذي ترك الطب إلى التجارة فألفيناه محلاً واسعاً يبيع بالتجزئة الكبيرة بمعنى أنه يشتري من المصانع بالجملة ويبيع على أصحاب المتاجر الصغيرة والمتوسطة، وقد أخبرني أنه يربح في ذلك كثيراً، لأن محله معترف به لهذا العمل وليس كل متجر يسمح له بالشراء من المصانع.

وقد اعطانا من متجره جوارب وأشياء مما فيه، وذكر أن بعض البضائع فيه تباع بضعف قيمتها من المصنع.

من غرناطة إلى مالقه:

في الساعة الواحدة والثلث غادرنا غرناطة متوجهين إلى مدينة (مالقة) التي تبعد عن غرناطة بمسافة ١٤٢ كيلومتراً حسب اللافتة المكتوبة على الطريق.

كنا مسرعين في السير لأن لدينا أماكن نريد أن نراها في بقية بلدان الأندلس ولسنا على ثقة من توفر الوقت المتبقي لنا، لذلك كان سائق سيارتنا وهو الدكتور صالح بن محمد السنيدي يسرع في السير وليس معه إلا أنا ورفيقي في الرحلة الدكتور عبدالرحمن العيفان.

بدا لنا الريف الذي سلكناه أقل خصباً من المنطقة الواقعة بين قرطبة وغرناطة إلا أن الزيتون هنا كثير حتى يخيل للمرء أن جيمع أشجار أسبانيا قد انقلبت إلى زيتون وأن أشجار الزيتون في أسبانيا إذا أثمرت كلها لن تجد من يتناولها كلها لكثرتها.

بلدة الحمة:

بلدة الحمة قديمة مشهورة عند العرب بها الاسم ذكرت في التآريخ الأندلسية واشتهرت فيها بأنها ذات مياه حارة، ولا زالت تسمى بهذا الاسم (الحمة) وكتب اسمها على لافتات الطريق إلا أنها تقرأ حسب الكتابة الإسبانية (الهامة) ولا تزال فيها عيون حارة معروفة.

ومنطقتها تعتبر جافة الآن، حتى إن العشب البري فيها يابس، ربما لكون الفصل ليس فصل المطر فيها، أو لمحل أصابها بسبب تأخر المطر عنها، ومع ذلك رأينا فيها وما حولها أشجار الزيتون صفوفاً منتظمة كأنما غرست في آن واحد، مما

يدل على أن غراسها ليس قديماً، والمراد بذلك منه هذه الأشجار التي نراها الآن، وإلا فإن ا لزيتون قديم في المنطقة وما شبهت أشجار الزيتون التي في صفوف منتظمة إلا بمقاطر النخل عندنا (جمع مقطر) وهو الصف المستقيم من النخل.

وينبغي أن نتذكر أن أشجار الزيتون هذه تعيش من دون سقي، وإنما يكفيها أن تسقى في أول غرسها، ثم يكفيها ما ينزل عليها من مطر أو طل بعد ذلك.

الحمة في الكتب:

قال أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه الموسوعي (الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية) ج٢، ص٩٠- ٩٣):

الحمة (Alhama):

وعلى مسافة ٢١٩ كيلومتراً من مجريط إلى الشرق وعلى مقربة من أريزة توجد بلدة الحمة (Alhama) حمة أراغون، فيها مياه معدنية سخنة، ومن ذلك اسمها (الحمة) وأينما وجد العرب مياها حارة تنبع من الأرض، سموها حمة)، وبقرب هذه المياه وينحدر من نهر (بيبره) (Piepra) هناك اثنا عشر خلالاً، إحداها ينصب من علو ٤٤ متراً، وفي تلك النواحي كهوف تستحق الفرجة.

وقد نقلت هذه الكلمة من أجل التعريف بمعنى الحمة وإن لم أكن على يقين من كونها تعني بلدة الحمة التي مررنا بها اليوم.

بلدة أنتي كيرا:

قرية أنتي كيرا في الطريق بين غرناطة ومالقة

لم نقف في بلدة (الحمة) رغم كونها تستحق ذلك لما ذكرته من ضيق الوقت، وإنما انطلقنا بأسرع ما نستطيع مع أراضٍ جبلية غير وعرة، ولكنها تلال جبلية بينها وديان غير نضرة ولا متسعة في بعضها حقول قمح حصيد غير واسعة، فمررنا بقرية (انتي كيرا) فوق قمة إحدى التلال.

وهذا الأمر أي وجود المدن والقرى فوق التلال تكررت رؤيته منذ أن غادرنا قرطبة وغرناطة، مما ذكرني بالعواصم التي أقامها الإسبان في أمريكا الجنوبية عندما استعمروها، فقد بنوا عواصمها كلها مرتفعة، لا شك أن السبب في ذلك أن المناطق المنخفضة حارة الهواء ومن ذلك (كيتو) عاصمة الأكوادور وبوغونا عاصمة كولومبيا (ولاباز) عاصمة بوليفيا و(سان خوزيه) عاصمة كوستاريكا.

وقد دخل الطريق في نفق غير طويل وقلت الوديان المنخفضة بعده وضاق ما بين الجبال فصارت الجبال صعبة.

أما الطريق فإنه ذو اتجاهين أحدهما للذاهب والثاني للآيب يتسع كل قسم من قسميه لسيارتين اثنتين فهو دون الطرق بين المدن الكبيرة والمتوسطة في بلادنا كالطريق بين الطائف ومكة المكرمة والطريق بين الرياض وبريدة.

مشارف مالقه:

كانت سيارتنا تنهب الأرض نهباً لا تفتر عن ذلك حتى وصلنا مشارف مدينة (مالقه) أو قربنا من ذلك فرأينا نخيلاً طويلاً، لا تثمر، وقلت الحقول الزراعية عندما أقبلنا عليها، وكان القياس أن تكثر ولكننا قربنا من شاطيء البحر الذي هو هنا البحر الأبيض المتوسط.

وغد دخل الطريق نفقاً طويلاً في جبل لأن منطقة (مالقة) جبلية، وإن لم تكن جبالها عالية، وبعد هذا النفق الطويل جسر، ثم جسر ثانٍ، ثم جسر ثالث، وكثرت السيارات في الطريق لأنه وصل إلى ضواحي (مالقة) التي رأينا موقعها سيئاً وغير جميل، بخلاف موقع غرناطة وحتى أرضها فإنها لا تبدو جميلة ولا سهلة، ولكنها مدينة مهمة لكونها ميناء كبيراً ومصيفاً أيضاً لأنها واقعة على البحر الأبيض المتوسط.

إلى مطار مالقة:

لم نقف في مدينة (مالقة) وإنما واصلنا سيرنا خارجين منها إلى مطارها الدولي، وذلك من أجل أن نسأل عن مواعيد سفر الطائرات منها إلى روما حيث

كنا حجزنا سابقاً من مدريد إليها أي روما من دون أن نـدخلها ولكـن لمجـرد الركوب من مطارها إلى جزيرة (مالطة) التي هي هدفنا بعد إسبانيا وكنا حجزنا إلى روما من مدريد، من دون أن ندخلها، وحدثنا أنفسنا أننا إذا وجـدنا وسـيلة لتعجيل السفر من مطار (مالقة) هذا إلى جزيرة مالطة أو إلى (روما) ومنها إلى مالطة فعلنا، اختصاراً للوقت ولأننا نحمل على جوازينا سمة دخول إلـى دول الاتحاد الأورو بي لعدة سفرات.

وقد سألنا الخطوط الاسبانية ثم وكيل الخطـوط الإيطاليـة فـي المطـار فأخبرونا أنه لا توجد رحلة أخرى قبل رحلتنا في روما إلى جزيرة مالطة.

لذلك عرفنا أننا سنقيم في إسبانيا غداً كله والليلة التي بعـده، فقررنـا أن نقضي هذه المدة في منطقة الأندلس التي نحن فيها الآن.

وكان هذا فضلاً من الله تعالى لأنني تمكنت من أن أرى في شاطئ الشـمس كمـا يسمونه و هو شاطئ الأندلس على البحر الأبيض المتوسط عدة مدن وقرى فيها مساجد أو أماكن للصلاة دفعنا مساعدات عاجلة لها من رابطة العالم الإسلامي.

وعندما عرفنا ذلك دخلنا مطعماً كبيراً في المطار فيه مآكل متنوعة: ثقيلة وخفيفة فطلبنا أكلة يقول الأسبان: إنها عربية الاسم والأصل يسمونها (بتية) قال لي العرب هنا: إن أصلها كلمة (بقية) وبدلت قافها بهمزة، وكانت في الأصل من بقايا طعام المائدة التي تؤكل بعد الأكلة الأولى، أما الآن فإنهـا صـارت نوعـاً مستقلاً بنفسه من المآكل الشهيرة في إسبانيا وتتألف من الأرز وبعض الأطعمـة البحرية من السمك والإربيان الذي هو الروبيان وهو الجمبري باللهجة المصرية، ولكنه قليل ومعها خضرات مطبوخة كل ذلك يجمع في صحن واحد ويقدم للآكل وجبة متكاملة.

وطلبنا معها سلطة خضراء وشراباً من عصير البرتقال الموجود هنا بكثرة، وأتبعنا ذلك بالقهوة فكانت طعاماً وراحة في هذا المطار الذي جمع فأوعى من أشكال الناس.

إلى مدينة سهيل:

صورة من الفندق لبلدة سهيل (فوني كيرولا)

مدينة سهيل: بلدة أندلسية قديمة كانت معروفة بهذا الاسم، ولذلك نسب إليها الإمام السهيلي صاحب (الروض الأنف).

وقد اشتهر بشعر المناجاة والضراعة مما أحفظه من شعره قديماً قوله:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المُعدُّ لكل ما يتوقع
يامن يرجَى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع

وقوله:

يا مـن يـرى مـد البعـوض جناحهـا ... فـي ظلمـة الليـل البهـيم الأليـل
ويـرى منـاط عروقهـا فـي نحرهـا ... والمُـخَّ فـي تلـك العظـام النُحـلّ
أمـنن علـيَّ بتوبـة تمحـو بهـا ... مـا كـان منـي فـي الزمـان الأول

ومع هذه التسمية التي ظن بعض العرب أنها عربية صحيحة وأنها لكون نجم سهيل يرى في رأس جبل عالٍ خلفها لأنه لا يرى في الأندلس لكونه نجماً جنوبياً لا يرى في النصف الشمالي من الأرض إلا فيما لا يبعد كثيراً عن خط الاستواء مثل البلدان العربية، فإنه تبين أن ذلك وَهْمٌ وأن سهيلاً لا يرى منها أبداً وأن اسمها العربي لم يكن من أجل هذه العلة وإنما هو تحريف لاسم لها إسباني قديم.

غادرنا مطار (مالقه) في الرابعة إلا الربع عصراً متجهين منه إلى مدينة سهيل التي يسميها الإسبان في الوقت الحاضر (فوين خرولا) وهذا المقطع الأخير وجد من يجر معناه بنقله من الإسبانية إلى العربية فيزعم أن (خر ولا) هي خير الله، وهذا غير صحيح كما قد يأتي فيما بعد.

والمدخل إلى سهيل أو (فوين خيرولا) من مطار (مالقة) غير بعيد حيث تركنا طريق (مالقة) من المطار إلى سهيل وسوف يأتي ذكر الذهاب من سهيل إلى مالقة فيما بعد بإذن الله، ونحو من ذلك كان الطريق من المطار إلى هذه المدينة جبلياً ولكنه ليس وعراً وتكسوه أشجار برية غير مثمرة.

أول ما رأيناه من بلدة (سهيل) منارة مسجد رشيقة شامخة آنست عيوننا وقلوبنا في هذا الفردوس المفقود، بلاد الأندلس وهي منارة المسجد الجامع في مدينة سهيل الذي هو جزء من المركز الإسلامي هناك وكلمة (الجامع) هنا ليس

لها مفهوم، فلا يوجد في هذه المدينة مسجد آخر غير هذا المسجد الذي سنتكلم عليه عندما نزوره فيما بعد بإذن الله.

ولم يستغرق الوصول إلى هذه البلدة كثيراً، وإنما لبثنا فترة نبحث عن فندق كان أحد الإخوة المسلمين في سهيل قد حجز لنا فيه، وذكر ذلك لمرافقنا الدكتور صالح السنيدي لذلك لم نصل إلى الفندق إلا في الرابعة والنصف عصراً فوجدنا في استقبالنا أحد الأخوة المغاربة من سكان المنطقة فانزلونا في الطابق التاسع من فندق جيد وإن لم يكن فاخراً يطل على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ليس بينهما إلا شارع الشاطئ الذي هو ضيق ومع ذلك مزدحم بالسيارات.

وتطل غرفتي في الطابق التاسع على قسم كبير من مدينة سهيل كما ننظر إلى مسافات بعيدة من البحر الأبيض المتوسط، وإن لم يكن في تلك السمافات ما يسترعى الإنتباه.

ولقد تعجبت كثيراً من ضيق طريق البحر وهو الشارع الذي يماشي البحر، وكأنما الذين خططوه لأول مرة لم يتصوروا أن السيارات التي تستعمله ستكون بهذه الكثرة.

قلعة سهيل:

جاء إلينا أخونا الكريم الشيخ عمر بن محمد الفاروق وهو مغربي وظيفته إمام مسجد السلام في (مالقة) وقد جاء ليصحبنا إلى المناطق السياحية على هذا الساحل الإسباني المعمور بالسيارات وبالأناسي، وحتى بالبيوت وإن تكن البيوت الداخلية فيها ليست جيدة وشوارعها إما ضيقة أو غير معتنى بها، بخلاف شارع البحر وما جاوره فإنه نظيف مرتب ومعتنى به لانه مقام السياح ومرادهم- بفتح الميم.

المؤلف واقف عند قلعة سهيل

بدأنا أول الأمر بالإطلاع على (قلعة سهيل) وهي قلعة عربية قديمةواقعة على قمة تلة جبلية غير عالية على العادة المتبعة في القلاع أن تكون في مكان مرتفع يشرف من يكون فيه على مناطق شاسعة مما حوله.

وهذه القلعة تشرف على البر وعلى البحر إلى مسافات بعيدة.

صعدنا إلى القلعة، مع طريق جبلي أملس أي ليس فيه درج ولكنه طويل عالٍ إلا أنه يتدرج تدرجاً في الارتفاع من مستوى الشارع الذي يرتفع قليلاً عن البحر إلى القلعة حيث قمة التلة التي بنيت فوقها.

ووجدت أن طريقها طويل وكنا ظننا أن كونه لا درج فيه يجعله سهل الصعود فوجدنا الأمر خلاف ذلك.

وتبعد القلعة ٣٠ كيلومتراً إلى جهة الشرق من مدينة (مالقة).

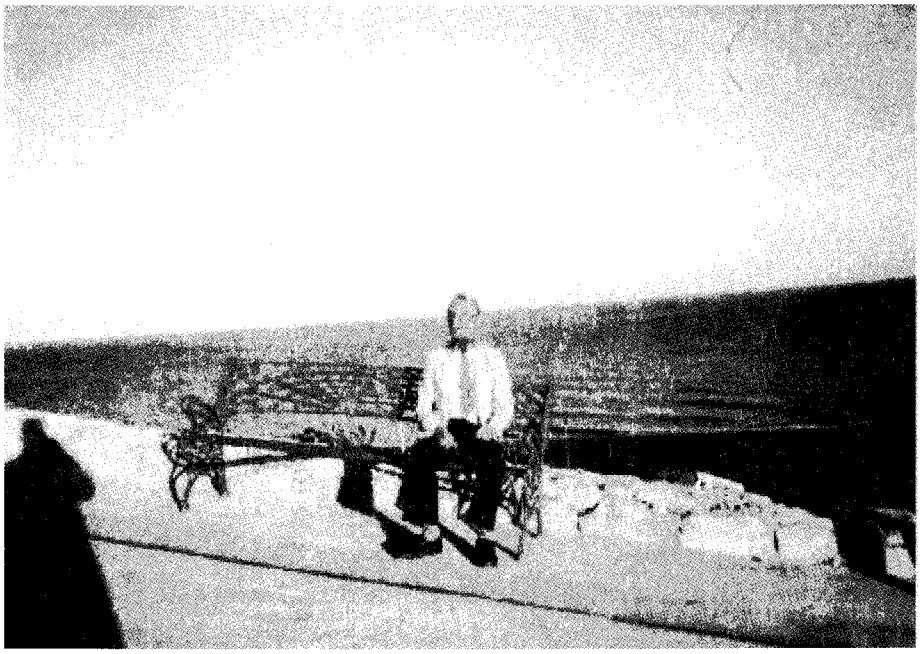

المؤلف جالس في المرتفع الذي تقع عليه قلعة سهيل (فوني كيرولا)

وعندما صعدنا إلى حيث القلعة شاهدنا كثرة السيارات التي تسير على شارع الشاطئ ذاهبة غرباً إلى (مالقة) أو شرقاً إلى (ماربيلية) وما بينهما لأن الشاطئ كله معمور بالمنازل وبالناس.

وجدنا القلعة مغلقة فاجتلينا المنطقة من حولها ووجدنا فيها مقاعد مستطيلة معدة للاستراحة فجلسنا فيها جلسة ممتعة لأن المرء يرى البحر أمامه لا يحد من رؤيته شيء والشاطيء أسفل منه.

أما القلعة فإنها حسبما هو مكتوب عليها أنها عربية كما هي عليه الآن غير أن بعض الناس يشكون في ذلك ويقولون: إن الإسبان الأوائل كانوا هدموها ثم بناها الإسبان على طرازها العربي بعد ذلك.

ولا أعرف من هذا شيئاً إلا أنها الآن تبدو كما تبدو القلاع العربية الأخرى في الأندلس، ورأينا بلدة بجانب مدينة سهيل (فوين خيرولا) اسمها منجاس ولا يميزها عن هذه المدينة شيء لمن لا يعرفها فالتقطنا لها صورة.

وقال الأخ الشيخ عمر بن محمد الفاروق: أنا لا استبعد أن تكون هذه القلعة قد تهدمت في وقت من الأوقات بعد عهد العرب، لأن الإسبان لم يكونوا يلقون بالاً للآثار العربية في أول حكمهم أي الأسبان، ولكنهم وجدوا أنها ثمينة ليس من أجل العلم والمعرفة فحسب، وإنما من أجل المال أيضاً فهذه الآثار هي التي تجلب السياح الذين ينفقون الأموال وهذا صحيح فيما يتعلق بالآثار العربية على وجه العموم، أما ما يتعلق بالقلعة هذه فإنني لا أعلم عنها شيئاً.

ولكن الشيء المؤكد أنه لا توجد الآن آثار عربية قائمة في مدينة سهيل، ومحيطها إلا هذه القلعة ولا شك في أن السبب هو أن الإسبان كانوا هدموها أو أنها هي ليست من المباني المقاومة للزمن أو أنها مساجد ومدارس إسلامية أراد الإسبان محوها وإعفاء آثارها لأنهم كانوا يعيشون فترة من التعصب الفظيع آنذاك.

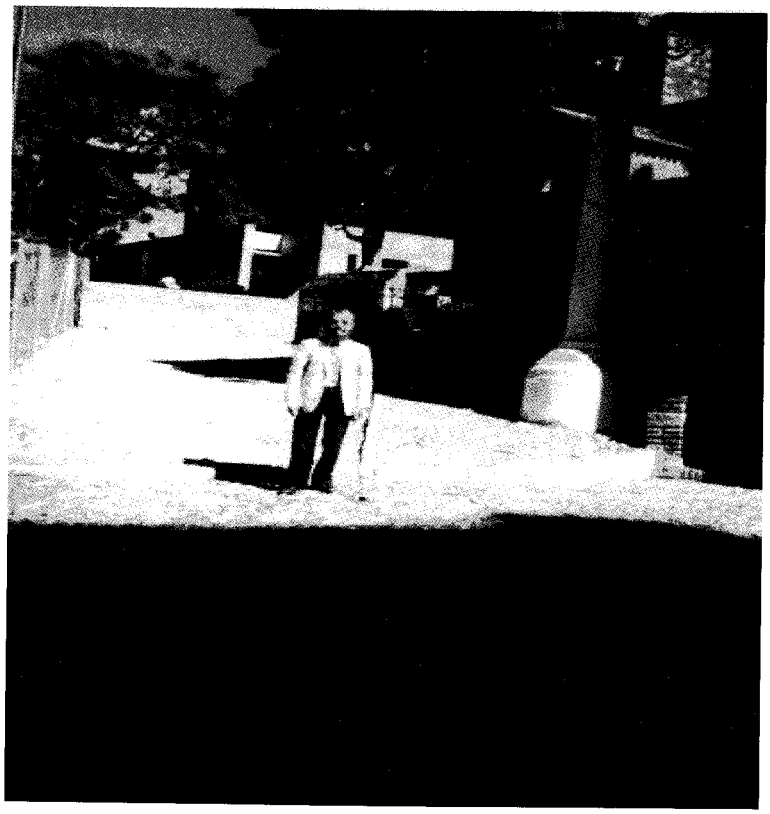

المؤلف في أعتاب القلعة العربية في مالقة

المسلمون في سهيل:

لا تعرف سهيل الآن عند الإسبان إلا بالاسم الإسباني (فوين كورولا) فلا تعرف بسهيل إلاّ عند المتعلمين العرب، ومعنى (فوين كورولا) العين الدوارة، والمراد بالعين هنا عين الماء فكلمة (فوين) هي عين الماء و(كورولا) دوّارة عندهم.

قال لنا الشيخ عمر بن محمد الفاروق ونحن جالسون عند هذه القلعة العربية: إن عدد المسلمين في سهيل وحدها يقدر بألفي مسلم، وفي المنطقة كلها

التي هي ماربيله (ماربيا) ومالقه وفوين كورولا أربعة آلاف نسمة، وليس فيها أي في هذه المنطقة كلها إلاّ مركز إسلامي واحد هو مركز سهيل.

وفيها مسجد الملك عبدالعزيز في ماربيله (ماربيا) ولكن توجد مصليات عدة، وذكر أن نحو ٢٥% من المسلمين قد حصلوا على الجنسية الإسبانية.

والشيخ عمر من المهتمين بأحوال المسلمين في هذا الساحل الإسباني ولذلك يعتبر كلامه محل اعتبار، غير أننا حصلنا بعد ذلك على تقرير شامل في هذا الموضوع من مركز سهيل عن المسلمين في هذه المنطقة سنورده فيما بعد بإذن الله.

وذكر الشيخ الفاروق أن المسلمين يزيدون سواء زيادة معتادة عن طريق دخول أعداد من المسلمين أو بزيادة نوعية وهي أن بعض المسلمين المفرطين في دينهم صاروا يعودون للعمل بالدين وللصلاة في المساجد.

أما دخول الكفار من الإسبان في الإسلام فإنه قليل حسبما ذكره.

وسألته عما عرفته من دخول النساء أكثر من الرجال في الإسلام فذكر أن الإسبانيات تحب الواحدة منهن العرب للصداقة، وأما الدخول في الدين الإسلامي فإن العرب الذين يتعرفون عليهن هم في الغالب من غير المبالين بالإسلام، وبعضهم يتزوج بإسبانية من أجل الحصول على الإقامة، فيحصل له ذلك، ولكن كثيراً ما تدب الخلافات بينه وبين تلك الزوجة، وأما الزواج الذي ينشأ عن حب بين مسلم وإمرأة إسبانية وغالباً ما يكون الزوجان شابين أو على الأقل غير كبيرين في السن فإن التجارب أثبتت أنه قلما يصمد للنهاية، لأن اختلاف النشأة والتقاليد تؤثر فيه.

معلومات عن مركز سهيل وما بقربه من الأماكن:

أعطاني مركز سهيل المسمى (مؤسسة سهيل عبدالعزيز) نشرة مهمة عن نشأة المركز وعمله واسمه الكامل وهو (مؤسسة سهيل- عبدالعزيز للبحوث والدراسات الإسلامية) فنخرولا مالقة- إسبانيا.

ثم ابتدأت النشرة بالتقديم:

افتتح المسجد عملياً في ديسمبر عام ١٩٩٢- ١٤١٣هـ ورسمياً كان افتتاحه في أكتوبر ١٩٩٣، الموافق ١٨ ربيع الثاني ١٤١٤هـ تحت رعاية صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله.

قد كان المركز قبل سنوات من إنشائه حلماً يملأ فكر ووجدان سعادة السفير محمد بشير كردي سفير المملكة العربية السعودية يسر به ويعلنه، ثم ما لبثت الفكرة أن امتدت جذورها إلى نفر صالح من المسلمين القاطنين في ساحل الشمس، وغيرهم ممن يقصد المكان للاستجمام والراحة، وكان في مقدمتهم العلامة محمد أسد الباحث الإسلامي رحمه الله، ومعالي الشيخ عبدالعزيز الرفاعي المستشار بالديوان الملكي سابقاً رحمه الله وسعادة الأستاذ عبدالله مراد سفير الكويت في أسبانيا رحمه الله وسعادة الأستاذ عبدالله بكير القنصل العالم لفنخرويلا في مالقة رحمه الله وسعادة الشيخ موفق جميل ميداني رحمه الله والسيد فرنسيسكو اجوارا الإسباني المسلم وعمدة فونخرولا الذي كان أصدر القرار بمنح أرض المركز للجالية الإسلامية.

وغيرهم كثيرون ممن استشعروا أهمية وجود مركز يصون وجود المسلمين، فجاء المركز ثمرة تضافر جهود متعددة وتجارب تمازجت وتعاونت لتجعل من

المركز منار إشعاع حضاري وفكري واجتماعي، وقد حرص الجميع منذ البداية على وضع خطة واضحة تجمع ولا تفرق، وترقى بالجالية على كافة الأصعدة وجميع المستويات ولذا فإن القائمين عليه اهتموا بكل تفاصيله ودقائق تكوينه بدءاً من المكان واختياره والبناء وهندسة احتياجاته بما يتناسب مع وضع المسلمين في ساحل الشمس سواء الجالية المقيمة أو الجالية الزائرة.

وكان لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز آل سعود سلمه الله الفضل الأكبر والنصيب الأوفر في إثراء دور المركز وتأكيد هويته، فقد تبنى الكثير من نشاطاته فأسس قواعدها وزكى أصولها ورعى ثمارها ثم توج ذلك الأثر المبارك بعطفته الكريمة التي جعلت المركز راية في سماء الأندلس خفاقة، وبوأه درجة من الخير مرموقة معطاءة، ومكن له في النفوس منزلاً من المحبة كريماً، ومرتكزاً من الفضل عميقاً، فسقى من نبعه البادي والحاضر، وارتوى من فيضه الوارد والصادر، واهتدى بنوره المقيم والعابر، فجزى الله تعالى سموه أكرم الجزاء، وأعظم له الأجر وحسن المثوبة ما شدت إلى مكة الرحال، وما ارتفع للحق صوت على تتابع الأجيال.

وكذا نخص بالشكر والتقدير العميقين سعادة الأستاذ خالد بن ناصر العساف لما أولى المركز من رعاية واهتمام، ولما يبذله من جهد متواصل وعطاء غير منقطع مماكان له أثر فاعل في دفع حركة المركز إلى الأمام.

ولا يفوتنا في هذه العجالة أن نقدم الشكر وافراً لسعادة السفير محمد بشير كردي، الذي هيأ وأسس قواعد المركز وملحقاته في ساحل الشمس وترك بصمته ا لتي نرجو الله تعالى أن يجزيه عليها أكرم الجزاء ووافر الثواب.

ولفضيلة الدكتور صالح بن محمد السنيدي الذي استطاع بحسن إدارته وعميق فكرته وثاقب رؤيته وحكمة تعامله ومتابعته المستمرة أن يعين العاملين بالمركز على القيام بمسئوليتهم وأداء دورهم المنوط بهم في أ تم صورة وأروع بيان بما يتناسب وحجم الدور الريادي للمركز.

وفضيلة الشيخ سعد بن عبدالله البريك لما يسديه من جهد كريم ونصح رشيد للمركزوالعاملين فيه مما يعكس مدى اهتمامه وتقديره لدور المركز في خدمة الجالية.

والله تعالى من وراء القصد، وهو الهادي إلى سبيل الرشد، فله الشكر وعظم الحمد.

سكرتير المؤسسة

محمد كمال مصطفى

النشاطات العامة بالمسجد:

أولاً: إقامة الشعائر الدينية وصلاة الجمعة.

ثانياً: الدروس والمواعظ الدورية وغير الدورية.

موعظة مختصرة يومياً بعد صلاة المغرب تتناول آية كريمة من آي القرآن وحديثاً شريفاً أو قدسياً.

ندوة مفتوحة يوم الأربعاء من كل أسبوع بالمشاركة مع بعض الإخوة المسلمين المثقفين المقيمين أو الزائرين.

دروس خاصة لتعليم الإسلام للأسرة المختلطة يوم الجمعة قبل أوبعد صلاة المغرب.

محاضرات غير دورية يلقيها العلماء المسلمون الزائرون.

الرد على الاستفسارات والأسئلة عبر الهاتف أو من خلال المقابلات الشخصية أو المكاتبة.

حلقة تعليم القرآن الكريم وتفسيره يومياً بين صلاتي المغرب والعشاء.

ترجمة خطب الجمعة وبعض الدروس والمواعظ والكتيبات الإسلامية إلى الإسبانية.

النشاطات الخاصة:

أولاً: أنشطة رمضان الدينية:

- الدروس اليومية عقب كل صلاة.
- دروس خاصة بالنساء مرتين في الأسبوع.

- حلقات تعليم القرآن الكريم بعد العصر وصلاة التراويح.
- صلاة التراويح وقيام الليل.
- ترجمة درس ديني مطبوع يومياً خلال الشهر.
- التهجد في العشر الأواخر والاعتكاف طيلة الشهر.
- حلقات سيرة السلف الصالح وقصص الأنبياء والتائبين بعد التراويح في العشر الأواخر.

ثانياً: النشاطات الاجتماعية:

- تقديم وجبات إفطار كاملة يومياً للمسلمين من جميع الجنسيات.
- تقديم وجبات سحور كاملة للمعتكفين والمتهجدين.
- توزيع صدقات عينية ومادية خلال الشهر.
- مساعدة بعض مساجد ا لأندلس بتقديم مساعدات عينية خلال الشهر.
- الاحتفال بالعيد والاهتمام بالطفولة مع إقامة حفلة خاصة وتوزيع لعب وهدايا على أطفال المسلمين.
- توزيع زكاة الفطر ولحوم الأضاحي.

النشاطات الاجتماعية:

إبرام العقود الاجتماعية:

أولاً: عقود الزواج التي تم إبرامها منذ ٢٠٠٠/٨/١ لغاية ٢٠٠١/٥/٢٤ بلغت ٣٥ زيجة.

ثانياً: عقود الطلاق خلال المدة السالفة الذكر بلغت أربع حالات.

ثالثاً: عقود الرجعة خلال نفس الحيز الزمني بلغت ثلاث حالات.

المساعدات المادية:

أولاً: المساعدات السريعة.

ثانياً: لجنة حصر صندوق الصدقات ويرأسها مدير المركز واثنان من العاملين بالمركز.

ثالثاً: لجنة توزيع الصدقات والتبرعات تتكون من اثنين من العاملين بالمركز وأربعة من غيرهم، وقد بلغت المساعدات قرابة ٤٥٠ حالة.

رابعاً: توزيع الزكاة الخاصة بعيد الفطر على أصحابها من المحتاجين وأبناء السبيل.

خامساً: توزيع الأضاحي في عيد الأضحى.

مساعدات المرضى:

أولاً: المساعدة المباشرة سواء عن طريق دفع تكاليف التطبب أو شراء الدواء، وقد بلغت حالات المساعدة أكثر من عشرين حالة تتراوح بين التطبيب العادي وبين إجراء العمليات الجراحية ومنها حالة سرطان عظام وحالة عيون.

وكذا الاتصال بالأطباء المسلمين للمساعدة في التمريض وإجراء الفحوصات وتأمين تغطية العلاج بتقديم الأدوية.

ثانياً: مساعدة المرضى السياح والزائرين من المسلمين سواء بإرشادهم إلى المستشفيات والمصحات المختصة أو بتسهيل الاتصال بذوي الاختصاص من الأطباء.

النشاطات الثقافية:

أولاً: المحاضرات والندوات: ومن ذلك محاضرات حول قانون الأجانب مع تعديلاته الجديدة لإعلام الجالية الإسلامية بحقوقها وواجباتها وفق القوانين السارية.

ثانياً: الندوات الصحية: سواء ما كان منها دينياً صرفاً أو اجتماعياً.

المشاركة في المؤتمرات:

أولاً: إلقاء محاضرتين بجامعة ولبا.

ثانياً: المشاركة في مائدة مستديرة نظمتها بلدية كامبانيا (محافظة ولبا) عن الأديان ودورها في تحديد النظم الأخلاقية في المجتمعات الإنسانية، بمشاركة أسقف ولبا ورئيس كرتا وممثل الحزب اليساري وأستاذ الديانات في جامعة ولبا.

ثالثاً: المشاركة في المؤتمر الوطني الطبي الثاني عشر ببرشلونة والذي خصص لموضوع الصحة في منظور الثقافات غير المسيحية.

رابعاً: تنظيم حفل تقديم مصحة قرطبة لطب العيون وذلك في صالة احتفالات المركز.

خامساً: التعاون مع الباحثين الإسبان والأجانب والمستعربين والمشاركة في تأطير بعض البحوث العلمية ذات الصلة بالثقافة الإسلامية في مختلف تجلياتها، ومن ذلك مساعدة السيدة بونسي في رسالة الدكتوراه الخاصة عن البروتكول في الإسلام، إضافة إلى مساعدة طلاب المدارس الثانوية والإعدادية في عمل بحوث عن الإسلام وتاريخ المسلمين في الأندلس.

سادساً: المشاركة الفعلية أو الرمزية في المعارض والمنتديات المحلية والإقليمية لإثبات الوجود المسلم ومن ذلك:

- مهرجان مدينة الشرقية.
- معرض مدرسة سهيل.
- مهرجان قلعة سهيل السنوي.

الزيارات المعرفية للمعاهد والمدارس الابتدائية والثانوية:

استقبال الطلبة وا لتلاميذ وأساتذتهم، وقد استقبلنا هذا العم ثماني عشرة مدرسة.

ويتمثل برنامج الاستقبال فيما يلي:

أولاً: تقديم فكرة مقتضبة عن الإسلام وسماحته وتاريخ المسلمين في الأندلس.

ثانياً: عرض مبسط لقواعد الإسلام وتاريخ مكة المكرمة والمدينة عبر الصور المعروضة في صالات المركز.

ثالثاً: الإجابة على أسئلة واستفسارات الطلاب.

رابعاً: توزيع كتب ومطويات إسلامية باللغة الإسبانية أو الفرنسية أو الإنكليزية على المدرسين والطلاب البالغين.

ثم أعطانا المركز ملحقاً بالنشرة عن مركز سهيل عبدالعزيز هو من الأهمية بمكان بالنسبة إلينا لأنه يتكلم على المدن الواقعة فيما يسمى بساحل الشمس الإسباني.

وهذه بطبيعة الحال تسمية محدثة، بل هي دعاية سياحية للأقوام المحرومين من ظهور الشمس عليهم مشرقة في أكثر الدهر.

وقد رأيت أثبات هذا الملحق عن المدن الأندلسية بالساحل هذا كما أعطانا أياها المركز لأن الملحق مكتوب بلغة عربية مفهومة للجميع.

أهم المدن الأندلسية في ساحل الشمس:

مالقـــة: يقول عنها أبن الخطيب: الدرة الوسيطة وفردوس هذه البسيطة، تبعث لها بالسلام مدينة السلام بغداد وتلقي لها يد الاستسلام محاسن بلاد الإســـلام، أي دار وقطب مدار، كرسي ملك عتيق ومدرج مسك فنيق، وإيوان أكاسرة، ومرقب عقـــاب كاسرة.

يقول عنها المقري صاحب فتح الطيب، إحدى قواعد الأندلس، وبلادهـــا الحسان، جامعة بين مرافقة البر والبحر، أسندت إلى جبـــل الرحمـــة ظهرهـــا، واستقبلت ملعبها ونهرها، فزكت ورودها وزهرها وعظم قدرها وارتفع شأنها.

مالقة (Malaga): يعود بناؤها إلى الفينيقيين منذ ما يقارب ١٢٠٠ سنة ق م، وكانت عرفت باسم (Malaca) ويعني بها المملح، لأنهـــا اشـــتهرت بتملـــيح الأسماك، وقال أحد الباحثين أن اسمها الفينيقي يعني الملكة، وذكر بعض العلماء أن اسمها القديم رية وبه اشتهر نوع من تينها يسمى التين الري ولعلـــه يقابـــل بالأسبانية اليوم (Brevas).

وهي مدينة ساحلية تقع في الوسط من غرناطة علـــى بعـــد ١٤٠ ك م، وعلى بعد ١٨٠ ك م من الجزيرة الخضراء.

ولم يبق بها من الآثار سوى قصر القصبة حيث كان المحفل الرســـمي للاجتماعـــات وفي هذا القصر يوجد المسجد الذي بناه ا لفقيه المحدث معاوية بن صالح الحمصي.

اشتهرت بالزراعة خاصة بالرمان والتين حتى قيل فيها الفاكهة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وكفى برمانها حقاق ياقوت، وأمير قوت، كما قيل في تينها الأشعار:

مالقـــــة حييـــــت يـــــا تينهـــــا الفلـــــك مـــــن أجلـــــك ياتينهـــــا

وقد اشتهر أهلها بالكرم والخلق وحسن الضيافة وقد ذكر من ذلك أن المرأة منهم تبرز ولا ملك لها فتعطي سواريها كرماً منها لفك العاني والأسير، كما اشتهر أهلها بالتدين وتوقير ذوي العلم.

سهيل (فونخرولا): بلفظ الكوكب المعروف، وهو مصغر سهل، جبل سهيل: بالأندلس من أعمال رية (أي محافظة مالقة)، لا يرى سهيل في شيء من أعمال الأندلس إلا فيه، ووادي سهيل أيضاً: بالأندلس من كورة مالقة فيه قرى، من إحدى هذه القرى عبدالرحمن السهيلي مصنف شرح السيرة المسمى بالروض الأنف) قاله ياقوت الحموي.

ذكر ابن الخطيب في كتاب (المعيار في ذكر المعاهد والديار) واصفاً فونخرولا (سهيل):

حسن حصين، يضيق عن مثله هند وصين، ويقضي بفضله كل ذي عقل رصين، سبب عزه متين، ومادة قوته شعير وتين، قدم علم أهله مشربهم، وأمنوا مهربهم، وأسهلت بين يديه قراه وجاد بالسمك واديه وبالحب ثراه، وعرف شأنه بأرض النوب، ومنه يظهر سهيل من كواكب الجنوب.

لم نجد فيما بين أ يدينا من المراجع العربية غير هذين النصين تعرضاً للحديث عن سهيل (فونخرولا)، ومن خلال الاستقراء لهما يمكننا القول بأن سهيل قد حباها الله تعالى طبيعة غنية وأرضاً خصبة وماء وفيراً، مما جعل الأمراء في يتخذونها مراعي لأغنامهم ومواشيهم.

وأما شهرة زراعتها فقد بلغت الآفاق حتى ضرب المثل بحلاوة تينها ووفرة شعيرها وجودة سمكها.

كلمة فونخرولا كلمة رومانية – قوطية ذات أصول لاتينية مكونة من مقطعين (Fuen - Girola)، أما كلمة (Fuen) فهي اختصار كلمة (Fuente) أي عين الماء ثم اختصرت بعد ذلك كما هو الحال مع كثير من أسماء ا لقرى في إسبانيا، أو هي اختصار (Fuerte) وهي القلعة، وأما (Girola) فهي الدوارة وعلى وجه الدقة أي التي تدار في اتجاهات عديدة، وأصلها كلمة إيطالية ويعني بها مكان الدوران.

وربما سميت بذلك لتوسط فونخورلا الجغرافي لشاطئ ساحل الشمس أو لأن طريقها فيه منحنى يدار حوله، والأصل أن اسم تلك البلدة قبل الإسلام (Suail) سويل، ثم تغير اسمها في العهد الإسلامي إلى سهيل لما سبق وذكره الحموي عن رؤية نجم سهيل من أكوارها.

وقيل ظل هذا الاسم يطلق عليها حتى أواخر القرن الرابع عشر، وبدايات القرن الخامس عشر حيث جاء إليها بحارة من مدينة جِرُّولا في إيطاليا ومعهم شباك خاصة لصيد الأسماك فأطلق على البلدة اسم تلك الشباك مضافاً إلى قلعتها أو مضافاً إلى عين مائها.

وقد بقي اليوم من آثارها قلعة مشهورة قد جددتها البلدية بمساعدة بعض الجمعيات والمؤسسات، كان لمؤسسة مركز سهيل- عبدالعزيز للبحوث والدراسات الإسلامية مساهمتها الكريمة، تأكيداً لدور المركز في توثيق العلاقات مع كافة الهيئات والمؤسسات الرسمية والشعبية.

ميخاسا: كلمة قوطية الأصل، وكانت تنطق الميشا (Al- micha)، ولما كانت هذه المنطقة في العهد الإسلامي مرعى للماشية الأميرية كما ذكر ابن الخطيب، فقد ظن بعض الباحثين أن اسمها الماشية وقيل الممشى بين الجبال،

والصواب في أصلها ما ذكرنا، ثم تغير النطق كما معروف عند علماء التاريخ اللغوي من الشين إلى الخاء وأضيفت السين للجمع أو لسهولة النطق.

ماربيا: من كان يظن أن تلك القرية النائية في أعماق التاريخ العربي سوف تعود بعد سنوات طوال لتعتلي عرش الجمال الطبيعي، وتصير مقصد السياح ومضرب المثل لمن أراد الاستجمام والراحة، تلك المدينة التي لم تكن في ذاكرة التاريخ سوى قرية تابعة لأعمال مدينة قبرة، قرية ممتدة على ساحل الشمس تمثل مع نظيراتها روعة من السهول الفاتنة، والمرتفعات الخلابة الساحرة، التي جذبت إليها أرواح العرب بسكونها وهدأتها وتمازج نغمها الحالم بين أطلال الماضي وبين صحو الحاضر.

وحتى نتعرف على ماربيا (مربلة) الاسم القديم لتلك المدينة لابد من فتح وكاء التاريخ واستخراج طواياه وخباياه حتى يتكامل بين أ يدينا رسم دقيق لماربيا.

قرية بديعة التكوين حباها الله بطبيعة غنية من جبال تكاد تكسوها الخضرة طوال العام، إلى شواطيء رملية تأخذ ببداعتها العقول والأبصار، وطقس هو بميزان كأن ساكنه يعدله كما شاء فليس ثم سوى الراحة والاسترخاء.

لم تعرف ماربيا في التاريخ القديم بأكثر من قرية للزراعة والصيد، خصوبة أرض وغنى ساحل.

يقول عنها ابن الخطيب في كتابه المعيار، ص٨٥:

(بلدة التأذين على السردين) أي لكثرته فيكفي استدعاؤه والنداء، و(محل الدعاء والتأمين لمطعم الحوت السمين) لوفرة سمكها، فالراغب لأي نوع من الأسماك يجده بها على أتمه دون كد أو بذل جهد أو رهق.

وأما زراعتها فشهرتها بالعنب دون سواه مع وجود غيره من الحاصلات.

أما ساحلها فالشأن فيه كسائر المنطقة بسبب الامتداد والطول يصعب السيطرة عليه فقد كان مقصد القراصنة والفارين إما هروباً من عدو أو قصد إيذاء وضر.

ولم تخل ماربيا كمثيلاتها من المدن الأندلسية من أطلال وآثار تشهد بالحضارة العربية فوق أرضها لقرون تتابعت ترك خلالها العرب روحاً منهم في شتى المجالات، ودليلاً على حضارة لا زالت بقاياها تدفع عنها ستر النسيان، تلمح ذلك بين شوارعها القديمة وأزقتها العتيقة و مسحة الفن العربي المتماوج مع غيره من حضارات أخرى كالرومانية والقوطية والإسبانية.

وإذا خرجنا من مدينة الماضي والتي لازالت بشذاها تشدك إليها وتدلك على بداعتها إلى الحاضر الناضر والزمن المعاصر لوقفت مشدوهاً أمام قرية خرجت إليك من عباءة التاريخ فجأة بلا مقدمات وفي وقت غير محسوب لتستوي بجلال واقتدار على عرش السياحة في القرن العشرين.

توريمولينوس: وهي كلمة إسبانية مكونة من مقطعين: (Torre) برج و(Molinos) طواحين، أي برج الطواحين، ولم يبق بها من الآثار الإسلامية ما يمكن زيارته اليوم.

إنتهى ما ذكره مركز سهيل.

ونعو إلى المشاهدات، فنقول:

بلدة بنا المدينة:

تركنا بلدة سهيل متجهين جهة مدينة مالقة على الشاطيء ولكننا لن نذهب إلى (مالقه) نفسها وإنما سنذهب إلى أماكن على شاطيء البحر دونها فكان أول

ذلك (بنا المدينة) وهي قرية كبيرة أو بلدة صغيرة واقعة على شاطئ البحر يسميها الأسبان بهذا الاسم العربي: (بنا المدينة) بكسر الباء وهي لفظة المصدر من بنى يبني من دون ألف المد، و المدينة هو اللفظ العربي لـ (مدينة) يعني بلدة من دون تغيير.

وذكر لنا الأخ عمر الفاروق أنها هي بلدة ابن البيطار ولم يعرف عن تاريخها القديم أكثر من ذلك.

المؤلف في مرتفع يطل على بلدة (بنا المدينة)

رأينا البلدة ونحن في مكان مرتفع عن شاطئ البحر والتقطنا لها صوراً واضحة، وبجانبها منفصلاً عنها تجمع للبيوت منها قرية صغيرة اسمها بالإسبانية (الرّيُو دي لاميل) ومعناه: (نهير العسل) فالرِّيوُ معناه: نهير وهو النهر الصغير

وميل: عسل، ولا نعرف اسمها العربي القديم، وربما كانت محدثة بخلاف (بنا المدينة) الذي يعرف أنها قديمة، ويدل على ذلك اسمها العربي.

وذكر الأخ الفاروق أن المسلمين في (بنا المدينة) أو (نهير العسل) يبلغ عددهم مائتي نسمة وليس فيها مسجد.

وتبعد (بنا المدينة) عن مدينة (مالقة) بـ ١٨ كيلومتراً فقط.

برج الطاحونة:

المؤلف في شارع تروي مولينوس بعد غروب الشمس

انتقلنا بعد ذلك إلى بلدة اسمها (تروي مولينوس) ومعناه: (برج الطاحونة) وهي واقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ولها بلدية خاصة بمعنى أنها ليست تابعة لأية مدينة أخرى، رغم كثرة القرى والتجمعات السكنية على هذا الساحل.

وصلناها مع غروب الشمس والتقطنا صورة في شارعها ورأينا شوارعها والحوانيت فيها وحركة السيارات كأنما هي في مدينة كبيرة حتى إن الموقف في وسطها يصعب الحصول عليه للسيارات ثم أسرعنا إلى:

مسجد المحسنين:

و(مسجد المحسنين) واقع في هذه البلدة وهي (تروي مينولوس) رأينا لافتة المسجد (مسجد المحسنين) مكتوبة بالخط العربي، ودخلنا للمسجد مع جماعات من المصلين كانوا يتقاطرون على المسجد مما أعجبني وأطربني أن أرى هؤلاء الإخوة يتجمعون في هذا البيت من بيوت الله، فهو وإن لم يكن له مظهر المسجد من الخارج من قبة ومنارة فإنه في الداخل كالمسجد المكتمل، ويتبعه فناء يصلون فيه الجمعة مع المسجد الذي لا يتسع لكل المصلين وهو أيضاً مملوك للمسجد إن صح التعبير فليس مستأجراً.

وقد وصلنا إليهم قبل إقامة الصلاة وقد بلغت الصفوف فيه ثلاثة ولكن المسجد ليس عريضاً طبقاً لما كان المسلمون يعملون في السابق من كون المصلين في مثل هذه البلاد التي يكون المسلمون فيها أ قلية متفرقة في منازلها في بلدة أو مدينة أو حتى قرية كبيرة فلا يكونون قريباً من المسجد في العادة، وإذا وجدت بيوت بعضهم قريبة من المسجد، فإن البيوت الآخرى تكون بعيدة عنه.

وقد أقيمت صلاة المغرب والصفوف ثلاثة وعندما سلمنا رأيناها صارت أربعة، إذْ دخل بعضهم في الصلاة بعد الإقامة.

وقد بلغ مجموع المصلين معنا ٥٢ مصلياً، وهذا عدد جيد، إذا عرفنا أن كثيراً من المسلمين ليست لديهم بصيرة في الدين، ولذلك لا يجدون من يحثهم على الالتحاق بصلاة الجماعة، إما لتفرقهم أو لعدم مبالاتهم.

في محراب مسجد المحسنين مع إمامه الشيخ محمد الصَّرَّاخ

والشيء الذي لاحظته ظاهراً فيهم هو الخشوع والطمأنينة البادیان علـــى وجوههم، وذلك لانهم جاءوا إلى المسجد من تلقاء أنفسهم محبة في الخير وليس من أجل دواع اجتماعية، فضلاً عن أن يكون ذلك لرياء أو سمعة.

وبعض المصلين عليهم الملابس المغربية الأصـــيلة، وبعضـــهم علـــيهم الملابس الإفريقية مع أنهم من أهل المغرب، لأن أكثر جماعة المسجد هم مـــن المغرب، ورأيت بعضهم عليه قميص طويل كالقميص العربي ولكـــن أكمامـــه قصيرة كما يلبس المغاربة.

وبعد الصلاة جلسنا مع إمام المسجد الشيخ (محمد الصرَّوخ) وعَلَّل اســـم أسرته الصرَّوخ بأن جده كان كثير الصراخ وهو صغير فسمي (الصروخ) ومن ثم لحقهم اللقب، وهو مغربي من بلدة العرائش على الساحل المغربي.

وقد جلس معنا بعض الإخوة من أهل المسجد فحدثونا عن هذا المسجد أنه أسس عام ١٩٨٤م، على نفقة المحسنين الذين اشتروه أي اشتروا المبنى الـــذي يشغله، ولم يريدوا أن يذكروا لنا أسماء أولئك المحســـنين، إمـــا لكـــونهم غيـــر معروفين لكثرتهم أو لكونهم لا يريدون أن يعرف عملهم، لـــئلا يـــنقص ذلـــك أجرهم، كما يعتقد بعض الناس في مثل هذا، وظنـــي أن الاول هـــو الصـــحيح، وتوجد أرض ملاصقة للمسجد هي تابعة للمسجد أيضاً يتوسعون بها ليصلي فيها الذين لا يتسع لهم المسجد لكثرتهم وضيقه.

وقد ذكر الإمام وبعض جماعة المسجد يسمعون أن عدد المصلين في صلاة الجمعة ٢٨٠ مصلياً وهذا عدد جيد يدل على كثرة عدد المسلمين في البلدة ومـــا حولها أو على أن أكثرهم ملتزمون بأداء الصلاة.

في محراب مسجد المحسنين في تروي مولينوس وإمام المسجد الشيخ محمد الصراخ في أيسر الصورة

وتتبع المسجد ملاحق أو لنقل ملحق رأينا منه مكتباً للإمام فيه مكتبة لا بأس بعدد الكتب فيها، فيها أيضاً لوحات عربية، ومكاناً لصلاة النساء وبينهن بين الرجال ما يشبه الشباك الضيق الأعين.

ورأيت في حائط المسجد الخلفي بياناً بالنفقات الشهرية المتكررة التي يحتاجها المسجد وقد ذكروها مفصلة وأنها ٩١٠ يورو أي نحو ٩٢٠ دولاراً أمريكياً أو ما يعادل ثلاثة آلاف وخمسمائة ريال وهذا مبلغ ليس كثيراً ولكن جمعه من متبرعين من العمال ونحوهم فيه صعوبة، و إن كان الإمام قال: إنه لا صعوبة فيه، والإخوة يقبلون على التبرع للمسجد، كل بحسب حاله وقدرته.

وحول بلديتهم هذه التي ترجمة اسمها (برج الطاحونة) كرروا بأن لها بلدية خاصة وأنها من مضافات (مالقة).

فأعطينا إمام المسجد بحضور المؤذن واثنين من كبار جمعية المسجد مساعدة عاجلة قليلة من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بمثابة المساعدة على النفقات المتكررة، كما أعطينا الإمام مساعدة خاصة له، وغادرناهم عائدين إلى فندقنا في (فوين كورولا) أو مدينة (سهيل).

كان الشيخ عمر الفاروق يقود سيارته بنا فأضاع الطريق في أماكن مسكونة ولكنها سيئة الخدمات، فالأنوار في شوارعها وأزقتها قليلة والحفر في شوارعها كثيرة، لأن بعضها قد بعد عهده بالتزفيت، أو بإعادة التزفيت، ولم يدر ماذا يصنع ولا كيف يخرج من هذه المنطقة المظلمة التي ليس فيها شوارع مستقيمة، بل شوارعها متعرجة.

وبينما كنا كذلك إذا بسيارة يقودها رجل بجانبه امرأة شابة مترفة تقف وتنزل منها المرأة معها كيس فترفع غطاء صندوق للقمامة وتلقي ما معها فيه ثم ترد غطاءه الذي هو متصل به عليه، فأسرع الأخ عمر يخبرهم بأننا قد أضعنا الطريق إلى (فوين كورولا) ويرجو أن يرشدوه إلى الطريق الذي يوصل إليها، فكان جوابهما فعلاً لا قولاً، بأن أشارا إلينا أن نتبعهم، وقد ساروا في تلك الأزقة المظلمة والحارة غير المستقيمة الشوارع، ونحن نتبعهم حتى أوصلونا إلى شارع البحر الذي يقع عليه فندقنا وانصرفوا.

وفي المساء أقام المكرز لنا حفلة عشاء فخمة حضرها قنصل المملكة العربية السعودية في هذه المنطقة وعدد من أعيان السعوديين فيها، وكانت مأدبة سخية حافلة بالأطعمة البحرية الغالية.

يوم السبت ١٤٢٣/٨/٦هـ:

إلى ماربيله:

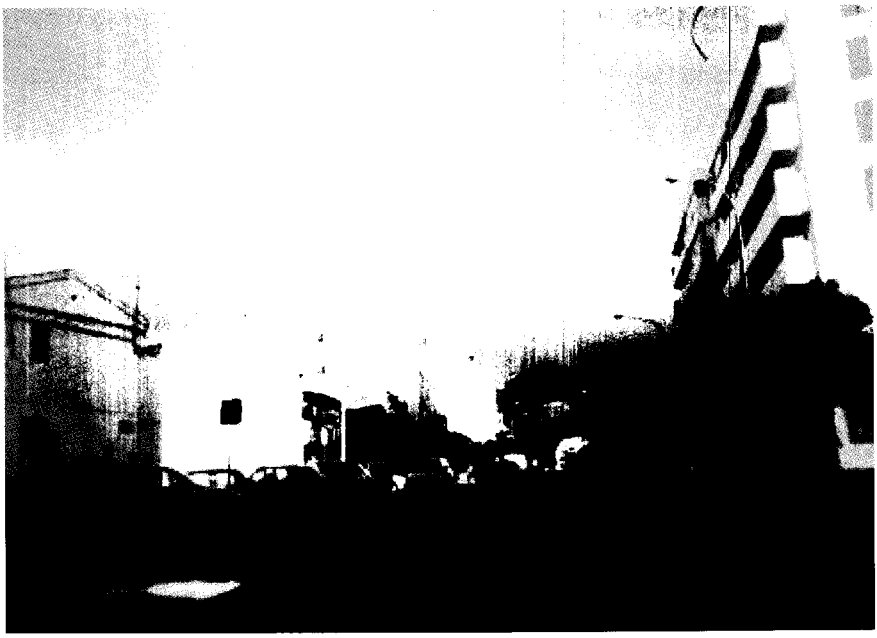

شارع في ماربله

و(ماربيلة) هي التي صار قومنا يسمونها (ماربيا) أخذاً من لفظ الإسبان باسمها (ماربيا) مع أنهم يكتبونه (ماربيلا) وهي بلدة معروفة في التاريخ العربي الأندلسي باسم (ماربيله) الذي كتبته هكذا تفاؤلاً بالتسمية العربية القديمة.

وتقع ماربيله على بعد ٣٠ كيلومتراً من بلدة سهيل أو (فوين خورولا) التي نحن فيها جهة الشرق أي إنها عكس (مالقه) في الاتجاه فمالقة جهة المغرب من (سهيل).

قول عن ماربيله:

قال الحميري:

مَرْبَلَة: بالأندلس يقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة، ومربلة مدينة صغيرة مسوّرة من بناء الأول محكمة العمل ممتنعة المرام، وهناك جبل منيف عالٍ يزعم أهل تلك الناحية أ ن النجم المسمَّى سهيلاً يرى من أعلاه، ولذلك سمي أبو القاسم الِأستاذ الحافظ مؤلف (الروض الأنف) السهيلي[1].

سرنا مع شارع الشاطء: شاطئ البحر الأبيض المتوسط في شمس مشرقة، وتحقق لنا بذلك اسمه (شاطئ الشمس) كما يسميه الإسبان وقد تظرف أحد الإخوة بقوله: إنه سمي بشاطئ الشمس لأنه مقابل لها بمعنى أن الشاطئ كله يقع مقابلاً للشمس لأنه على الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، وذلك صحيح من جهة الموقع أما من جهة وضع الشمس فإن ذلك غير صحيح، لأنه توجد شواطئ عديدة متجهة جهة الشمس، ومع ذلك لا تكون الشمس فيها مشرقة أكثر الأيام، و ذلك في النصف الشمالي من الكرة الأرضية الذي يبدأ من جنوب أوروبا حتى القطب الشمالي.

وتسقط الأمطار على هذا الشاطئ المشرق في الصيف ولكن سحابه يكون كسحاب الصيف الذي عن قليل ينقشع.

ومن مميزات هذا الشاطئ أنه يكون دافئاً في الشتاء ربما كان ذلك لأن الجبال التي تقع جهة الشمال منه على طول الشاطئ وهي جبال الأندلس تحول بينه و بين أن تهب عليه الريح الشمالية الباردة بصفة مباشرة.

---

(١) الروض المعطار، ص٥٣٤.

ومنذ أن فارقنا بلدة سهيل قاصدين (ماربيله) ونحن نسير في البيوت والقرى، فهي تكاد تكون متصلة ولكن لا يلمح المرء منها ما عليه آثار القدم، بل أكثرها يبدو حديثاً لأنها صالحة لقضاء الصيف، وكذلك لقضاء الشتاء للمتقاعدين الذين لا يقوون على نوبات البرد الشديد في أوروبا.

الشارع الرئيسي في ماربله

كان معنا الشيخ عمر فاروق بل نحن معه، فالسيارة سيارته، وهو يقودها بنفسه، وقد ليبس ثوباً عربياً وليس بدلة أو نحوها، والغريب أن لبس الثوب لا يستقرب هنا حسبما رأيته، ربما كان ذلك لكثرة العرب الذين يأتون لقضاء الصيف في هذا الساحل الإسباني، ولكثرة المغاربة الذين يلبسون في أحيان كثيرة ملابسهم المغربية المميزة.

وذلك خلاف ما رأينا إمام مسجد التقوى في غرناطة الذي كان يرتدي الملابس المغربية وهو يؤم بالمصلين صلاة العشاء وغير لباسه إلى الأفرنجي عندما أراد الخروج من المسجد بعد الصلاة، وربما كان ذلك طلباً للأمن.

مسجد الخيرات:

دخلنا ماربيله أو (ماربيا) في التاسعة والربع بسرعة لم نكن نتوقعها وذلك لقربها وقلة السيارات في الطريق قلة نسبية في هذاالوقت من الصباح.

ورأيت (ماربيله) هذا اليوم خلاف ما كنت رأيتها عليه في المرة الماضية التي رأيتها فيها إذْ كنت وصلت إليها مع زوجتي واثنتين من بناتي في عام ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، في فصل الصيف فررأيناها مزدحمة إلى درجة التشبع، بل الغثيان، حتى إننا لم نكد نجد غرفاً في فندق من الفنادق فاضطررنا آنذاك إلى أن نستأجر شقة كاملة لليلتين فيها.

أما الآن فإنها رائقة ليس فيها زحام، ولا مضايقات وإن لم تكن خالية، فالسيارات فيها موجودة وكثير من المتاجر مفتوحة، ولكن شتان بين حالتها الآن وحالتها في الصيف!

ذهبنا مباشرة إلى (مسجد الخيرات) الذي يقع في وسطها الغالي المهم وهو مصلى وليس مسجداً له مظهر المسجد.

وجدنا فيه إمامه الأخ الشيخ (المفضل بن محمد احليال) وهو مغربي من مدينة (شفشاون) قرب تطوان.

عند باب مسجد الخيرات في ماربيله (ماربيةً) مع إمامه الشيخ المفضل

جلسنا هنيهة في المسجد مع إمامه واثنين من المسلمين حضرا إلى المسجد ربما لكونهما رأياه مفتوحاً في وقت لا يكون فيه مفتوحاً فيه في العادة.

ذكر الأخ (المفضل بن محمد) إمام المسجد بأنه إمام لهذا المسجد منذ سنتين وثلاثة أشهر، وذكر مما ذكره أن المسجد لا تصلى فيه الجمعة.

وإنما يكثر المصلون فيه يومي السبت والأحد حيث يبلغ عددهم ما بين ٦٠ إلى ٨٠ مصلياً، وذلك أن الناس يصلون الجمعة في جامع الملك عبدالعزيز الذي يأتي الكلام عليه بعد هذا.

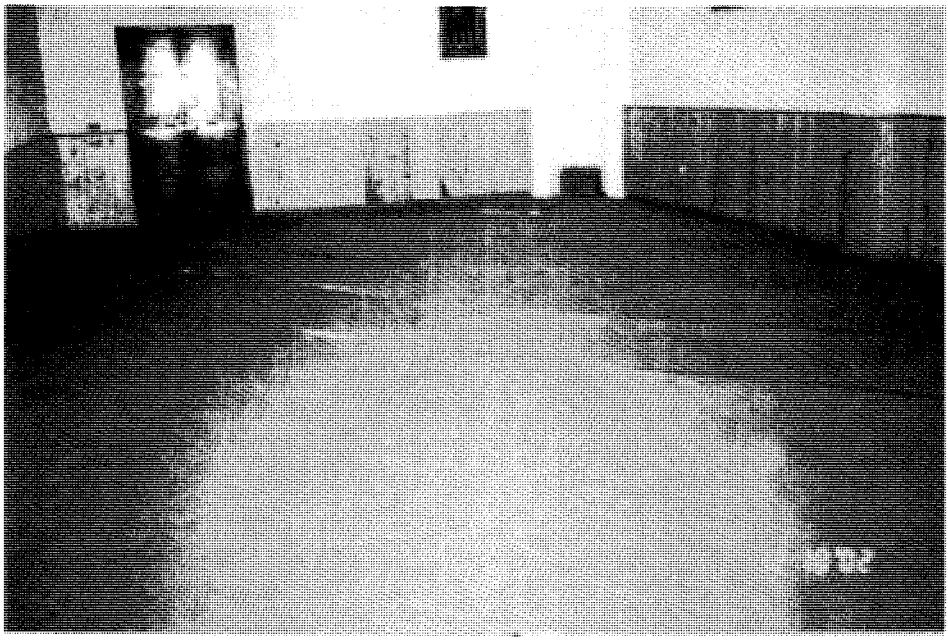

داخل مَصلَّى الخيرات في ماربله

وجدنا المسجد ليس واسعاً وقد نوه الإمام بأن الذي تبرع به أي أوقف المبنى على المسجد والمراد الطابق الأرضي الذي فيه المسجد هو ابن شمسان من المملكة العربية السعودية ولم يعرف بقية اسمه، ولكنه ذكر أنه من مدينة جدة وأنه عضو دائم في الجمعية الإسلامية.

ويقع المسجد كما قلنا في الطابق الأرضي من مبنى مؤلف من ست طبقات و مكانه مهم لأنه في وسط المدينة، حيث البيع والشراء والفنادق الواقعة على الشاطئ التي يأتي إليها المصطافون من البلدان الإسلامية.

وهو نظيف جداً، وفي آخره المعاكس للقبلة غرفة يسكنها الإمام دون أولاده الذين ليسوا معه وعددهم عشرة كما قال، وكان إماماً لمسجد في مدينة (مليله): المدينة المغربية التي احتلها الإسبان منذ قرون ولا يزالون فيها حتى الآن.

وعلى المسجد لافتة بالخط المغربي (مسجد الخيرات) وقد ركز الإمام على الحاجة إلى سكن لإمام المسجد وذكر أن بجانبه بيتاً يمكن أن يلحق به ويوسع منه المسجد لأنه صغير وأن قيمة هذا البيت (٢٠٠) ألف دولار لأنه من طابق أو طابقين.

وهذه فيما عرفته من أقيام العقار هنا قيمة رخيصة والمسجد محتاج إليها.

وقد عرفنا أن هذا الأخ الإمام يحفظ القرآن الكريم.

وقد ودعنا بعد أن دفعنا إليه مساعدة رمزية شخصية له، أما المسجد فإنه مكتمل ولم نره يحتاج لشيء.

وودعناه فانطلقنا في جولة عاجلة على هذه المدينة التي كانت الجولة عليها في الصيف متعبة للزحام، ووجدناها الآن شبه خالية، ولذلك اتضحت معالمها بأنها مدينة إسبانية معتادة، إلا أنها مجملة معتنى بها والذي زانها أنها واقعة على ربى غير عالية، يصعد الإنسان منها إلى ربوة ثم يهبط هبوطاً غير حاد، ثم في ربوة آخرى و رأينا قصور المترفين والأثرياء خالية الآن لكونها تكون عامرة بهم في فصل الصيف.

جامع الملك عبدالعزيز:

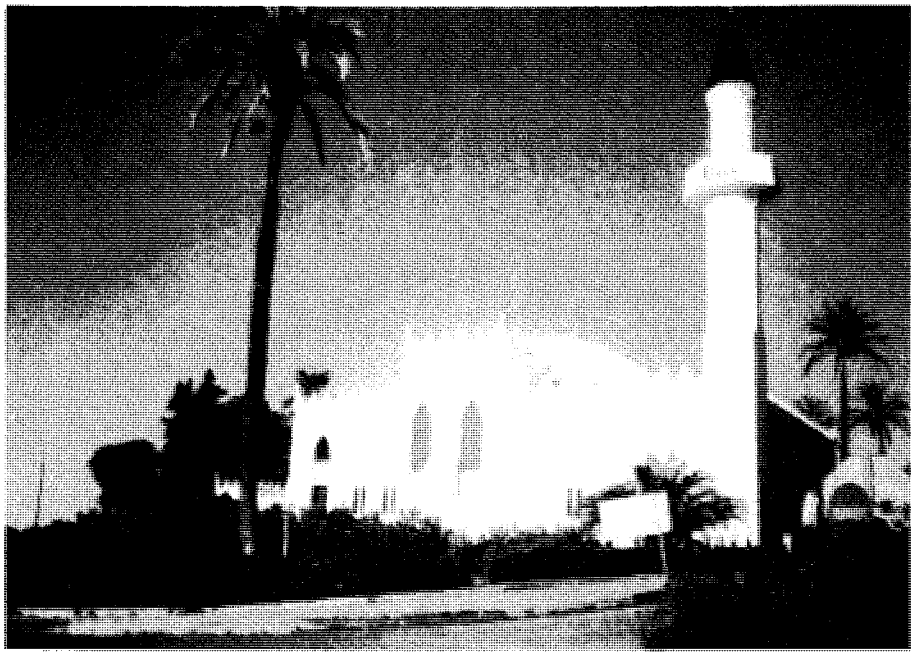

مسجد الملك عبدالعزيز في ماربله (ماربيا) في إسبانيا

قصدنا جامع الملك عبدالعزيز في ماربيله فخرجنا من قلب المدينة إلى ضاحية قريبة مرتفعة عن وسط المدينة، ورأينا المسجد مهيباً جميل المظهر، بل رائع المظهر، لأنه أبيض الطلاء، ترتفع منارته الرشيقة إلى عنان السماء وكأنها الأصبع الذي يرفع الكف الذي يتخيل المرء أنه المسجد يشير بالشهادة إلى أعلى: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وكذلك ملحقات المسجد كلها بيض الطلاء، بل بياضها ناصع يرمز إلى نقاء الإسلام وطهره، وبعده عن الدنس.

وعلى المسجد اللافتة بالعربية بخط جميل (مسجد الملك عبدالعزيز آل سعود).

وهو على طراز عربي له شرفات نجدية بيض.

وحوله نخلات من نخلنا العربي باسقات لها طلع نضيد، ولكنه غير نضيج فطلع النخل في إسبانيا لا يصلح تمراً، لأنه لا يوجد فيها فصل صيفي حار يطبخ التمر- كما يعبر العامة عن ذلك- يريدون به أن الحر ينضج التمر وهذا هو الذي نعرفه من حاله ونقول ذلك.

وتلك النخلات صارت مميزة للمسجد بين الأشجار التي نمت في المنطقة سواء في الشوارع أو القصور والدارات الواسعة (الفيلات) الموجودة في هذه المنطقة الراقية من مدينة (ماربيله).

وطلع النخل الذي رأيناه أصفر كما يكون عليه التمر قبل نضجه، ولكن النضج لن يأتي إليه لما قلناه.

وللمسجد صحن مكشوف جميل نظيف جداً فيه فسقية وهي البركة التي تكون في الأبنية المعتنى بها وقد جللت تلك الفسقية بفسيفساء أندلسية زرقاء، وتحيط بهذا الصحن الجميل أروقة نجدية بيض تعلوها شرفات نجدية تحيط بها نخلات، ربما كانت نجدية الأصل أيضاً، وإذا لم تكن نجدية النسب فإنها مغربية الأصل من المغرب العربي الشقيق أو من الجزائر.

ثم دخلنا إلى داخل المسجد فاجتزنا هذا الصحن الجميل إلى المسجد الرئيسي وهو المصلى ومعنا إمام المسجد الشيخ (علال أحمد البشير الإدريسي).

رأينا المسجد فوق أن يوصف بأنه جميل ونظيف ومرتب وقد ذكروا اسم مهندسه وهو (خوان مورد اورفانو)

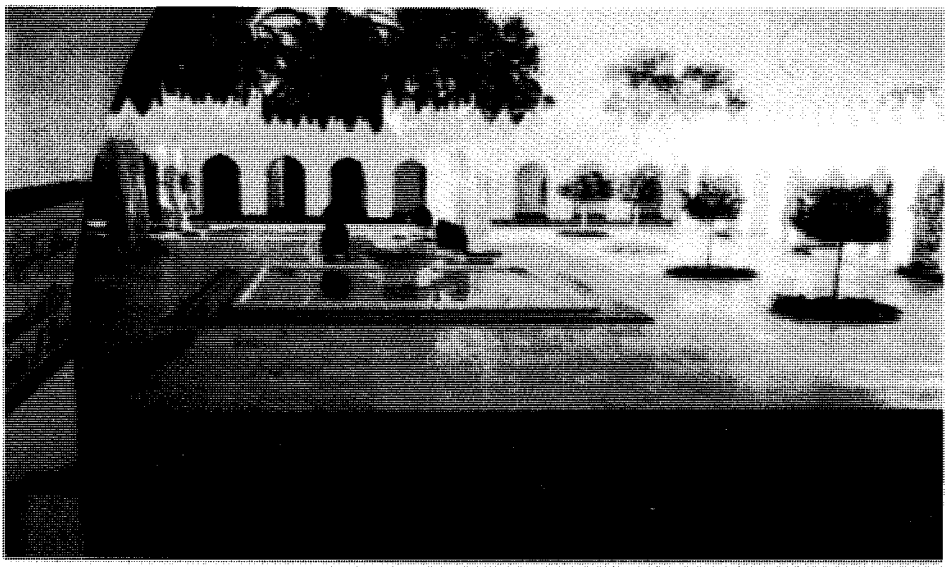

الصحن المكشوف لجامع الملك عبدالعزيز في ماربلّه

ومع أن المسجد يبدو لنا وأمثالنا من غير المختصين بمعرفة أطـــرزة المبـــاني عربي الطراز فقد ذكروا أنه متأثر بطراز البناء الروماني والقوطي والأندلسي بمعنى أن المهندس الذي أشرف عليه جعله عربياً فيه مسحة من الأطرزة المذكورة.

ويقوم المصلى الرئيسي على أعمدة أندلسية تحمل قبته الأنيقة.

لوحة المسجد:

كتبت على حائط المسجد اللوحة التي تبين تاريخه ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، شيد هذا المسجد عام ١٤٠١للهجرة الموافـــق لعـــام ١٩٨١ميلادي على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود وافتتح يوم الجمعة لصلاة عيد الفطر الموافق ٣٠ يوليو من العام المذكور).

هذا ويقع المسجد وملحقاته على تلة مرتفعة لذلك يرى من مسافة بعيدة ببياضه الناصع وسط الخضرة الكثيفة التي تضرب إلى السواد لشدة اخضرارها وترفرف عليها فروع النخيل الريانة، وذات الفروع الكثة والقوام الرشيق.

وإلى الجنوب من هذا المسجد بل الجامع الجميل يقع منزل الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود باني الجامع وهو قصر ذو أفنية واسعة على هيئة حديقة منظمة.

في محراب جامع الملك عبدالعزيز في ماربلّه مع إمامه

ثم قصر الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود ويسميه بعضهم قصر (النَّدَى) وقصر الملك لم ندخله، وإنما رأينا اسواره الممتدة غير مألوفة في هذه المنطقة، وربما كان السبب في ذلك أنه لا توجد قصور للملوك أمثاله فيها.

وعلى أية حال فإن هذا القصر لافت للانتباه، ويمكن أن يتبرع الملك حفظه الله ببعض أرض هذا القصر لكلية إسلامية أو لجامعة من الجامعات أو حتى بأن تباع بعض هذه الأرض الزائدة عن الحاجة وتقسم قيمتها على الأماكن التي ليست فيها مساجد، لاسيما أن الملك الآن لا يأتي لهذا القصر لمرضه شفاه الله.

وتسمى هذه المنطقة: منطقة الزهراء، نوه الأخ المرافق الشيخ عمر الفاروق بأنها سميت بهذا الاسم عندما جاء أغنياء العرب إلى هذه المنطقة.

كما يمكن نقله بمعنى بيعه أو اهداوه وإنشاء قصر على الشاطئ المغربي للبحر الأبيض المتوسط الذي هو الشاطئ الجنوبي مثلما كان فعل الأمير عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء الذي اتخذ قصره على شاطئ البحر في الدار البيضاء وبنى بجانبه مسجداً، وحسناً فعل جزاه الله خيراً.

ولاشك أن مثل هذه النفقات المتسعة حدثت إبان طفرة المال في بلادنا نتيجة لارتفاع أسعار النفط المعروفة السبب، وينبغي التكيف الآن مع الظروف التي تحيط بالبلاد، وحاجتها إلى القيام ببعض النفقات الضرورية.

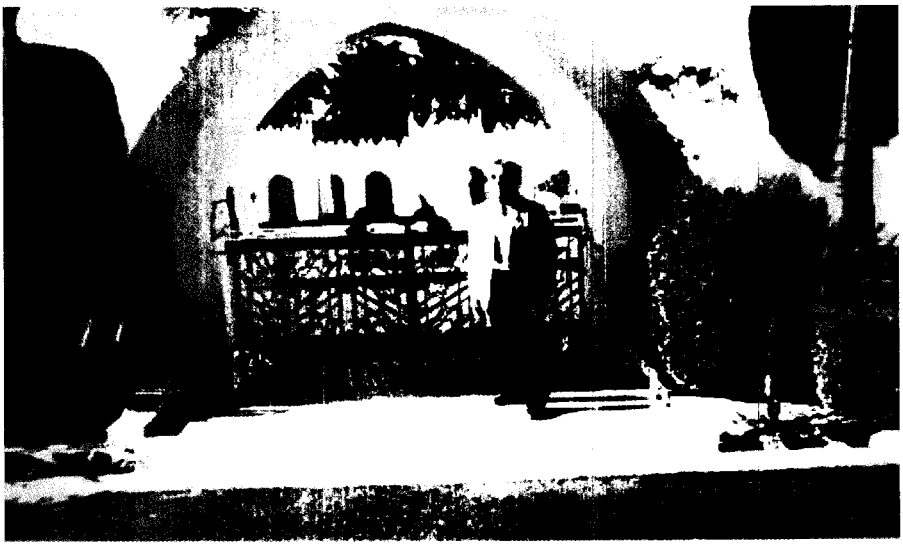

المؤلف عند الباب الخارجي لجامع الملك عبدالعزيز في ماربلّه

إن منطقة الزهراء هذه من ماربيلة أو (ماربيا) هي جميلة لأنها تشرف من بعد على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من جهة الجنوب، وتشرف عليها هي جبال غير عالية من جهة الشمال، أو أنها خضر ولكن تلك الجبال خلفها من جهة الشمال جبال أعلى منها جرداء ليس فيها اخضرار.

ولذلك يخيل لمن يزورها بعد غرناطة أن غرناطة أخصب أرضاً ولكن (ماربيله) هذه أجمل موقعاً وهي إلى ذلك شاطئ بحري مقصود.

زيارة مركز سهيل الإسلامي:

برحنا ماربيله (ماربيا) بسرعة عائدين إلى مدينة سهيل (فوين كورولا) ولم نعرج على شيء في هذا الرجوع لأن لنا موعداً لزيارة المركز الإسلامي فيها وهو المركز الإسلامي الوحيد الذي فيه مسجد شامخ المنارة، واضح المظهر- بعد مسجد الملك عبدالعزيز في (ماربيله).

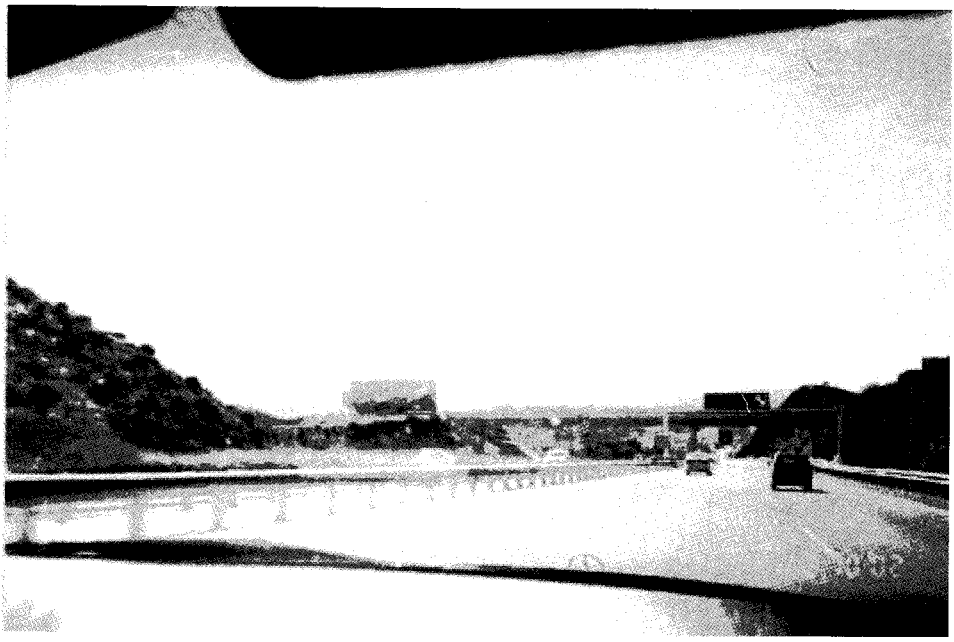

في الطريق قبيل الوصول إلى مدينة سهيل

ومركز سهيل الإسلامي تابع لمؤسسة (سهيل عبدالعزيز للبحوث والدراسات) وهو كما قلت ذو مظهر مشرق ومنارة عربية مشرقية لا أثر للهندسة المغربية أو الأندلسية فيها، وحسناً فعل بانوه أو مخططوه، لأنها بذلك أضافت مع المسجد ومرافقه إضافة هندسية جميلة إلى هذه المنطقة الأندلسية، وعرفت بشكلها المميز أنها مركز إسلامي حديث.

وجدنا في الاستقبال في المركز الأخ الشيخ محمد كمال مصطفى وهو مصري متخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام ١٤٠٤هـ وهو مدير المركز.

وقد أنشأ هذا المركز واتفق عليه وما يزال ينفق مكتب الأمير عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز وزير الدولة، وعضو مجلس الوزراء ورئيس ديوان رئاسة مجلس الوزراء.

وهو من المهتمين بأمور المسلمين في الخارج،وطالما أمر بإيجاد ملتقيات إسلامية، ودعا أعداداً من المسلمين في الخارج وبخاصة من بلاد الأقليات للحج على نفقة الملك فهد بن عبدالعزيز.

جلسنا مع الإخوة العاملين في المركز وعلى رأسهم الأخ محمد كمال مصطفى مديره وبعض العاملين فيه ومنهم الأخ محمد بشير كردي وحدثونا عن انشائه وعن سير العمل فيه.

ذكروا أنه أنشيء في عام ١٤١٢هـ أي منذ إحدى عشرة سنة وفتح فور إكماله في آخر عام ١٩٩٢م.

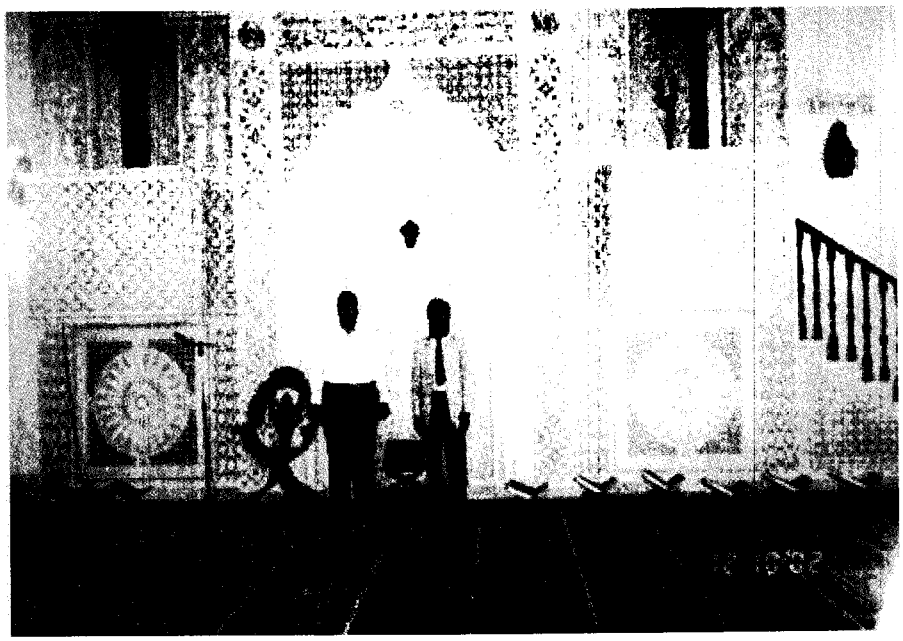

في محراب مسجد سهيل مع مديره الأخ محمد كمال

وذكروا أن معظم المصلين فيه من الإخوة المغاربة إلا في فصل الصيف، حيث يكثر المصلون من بلدان المشرق العربي.

ويبلغ عدد الذين يؤدون صلاة الجمعة في الأيام المعتادة ما بين أربعمائة وخمسمائة، أما في الصيف فإنهم- حسب ما قالوه- يزيد عددهم على ألف مصلٍ.

وهذا خير كثير، ووجود هذا المركز هنا بمظهره المتميز ومعناه الأهم من ذلك هو إظهار لوجود المسلمين ولو كانوا على هيئة عمال حتى على هيئة أقلية بين المواطنين الأسبان.

وذلك يرفع من معنويات المسلمين، ويلبي حاجة من يريدون أن يعرفوا شيئاً عن الإسلام سوءا أكانوا من المسلمين الذين فرط أهلهم فلم يعلموهم تعليماً إسلامياً في بلد مسلم أم كانوا من أبناء المسلمين الذين ولدوا في البلدان العربية ولم يستطيعوا بحكم تربيتهم الحصول على المعرفة الكافية بالإسلام، بل إنه يلبي حاجات غير المسلمين الذين كثر إقبالهم على معرفة الإسلام في السنين الأخيرة، نتيجة للاحتكاك بالمسلمين في أوروبا وأمريكا، ونتيجة لما حصل في ١١ سبتمر عام ٢٠٠١م في نيويورك وواشنطن من حوادث الانتحار بالطائرات وتخريب مركز التجارة ا لعالمي ومقر وزارة الدفاع الأمريكية.

ثم قمنا بجولة على المركز فوجدنا فيه مكتبة كبيرة وقاعة احتفال مناسبة، ومطعماً كبيراً ومدرسة دينية لا تعترف الحكومة الإسبانية بشهاداتها لأن برامجها إسلامية لا تراعي برامج التعليم الإسبانية.

ولا شك في أنه لو أنشئت فيه مدرسة متكاملة توضع فيها أغلب المواد العلمية التي تدرس في المدارس الحكومية، والمدارس التي تراعي المنهج الحكومي إلى جانب مواد التربية الدينية والتربية الدينية العملية لسدت فراغاً عظيماً يعاني منه المسلمون في هذه البلاد، ولا ينبغي أن يفت في عضد القائمين

عليه ما يحتاج إليه ذلك من نفقات كثيرة فهو يستحق ذلك ويمكن التخفيف منه بفرض رسوم مخفضة على الطلاب القادرين، مثلما هو موجود في المدارس السعودية في بعض أنحاء العالم.

وقاعة من قاعات المركز رأيناهم خصصوها لدراسة الحاسب الآلي والتمرين عليه، وفيها عدد من الأجهزة.

قبة مسجد سهيل من الداخل

وفي المركز قاعة كبيرة للاحتفالات ومنها إقامة حفلات الزواج للمسلمين وقد نوهوا بأنهم لا يتقاضون أجراً على حفلات الزواج للمسلمين إذا أقاموها في هذه القاعة.

كما يستعملون هذه القاعة لموائد إفطار الصائمين في شهر رمضان حيث يقدم لهم المركز طعام الإفطار بالمجان.

ويتبع هذه القاعة مطبخ كبير لمثل هذه المناسبات.

ونعود إلى ذكر القاعة المخصصة للتدريب على معرفة الحاسب الآلي فنقول: إننا شاهدنا فيها ١٧ جهازاً للحاسب الآلي (الكمبيوتر) وهي لتدريب الكبار والصغار عليه، سواء في أيام العطلات أو غيرها، ويتقاضون عن ذلك أجرة مخفضة حسبما ذكروه أي إنه لا يتم بالمجان.

مسجد المركز:

يستحق هذا الجامع العظيم في هذه البقعة المهمة التي صارت ترتادها طوائف من المسلمين أ همهم- من حيث العدد- طائفتان أولاهما العمال من المغاربة والجزائريين بل ومن إفريقية الغربية فيجدون مثل هذا المركز الإسلامي الذي يؤدون فيه شعائر دينهم، فتطمئن قلوبهم ويحافظون على ما يريدون المحافظة عليه من ذلك.

وثانيهما: طائفة الأغنياء المترفين من المسلمين الذين عمادهم عرب المشرق العربي حيث يجدون شعار المسلمين ممثلاً في هذا المركز أول ما يرونه ثم يجدون هذا الجامع الرحب ذا المظهر الجيد والأثاث الممتاز، مع ما يكون فيه من دروس أو خطب ومحاضرات.

مسجد مركز سهيل

ولا نظير لهذا المسجد في الساحل الجنوبي لإسبانيا بعد (مسجد الملك عبدالعزيز) في ماربيله (ماربيا) كما أنه يمثل أنموذجاً للمساجد في المشرق العربي ذكر مدير المركز أن طوائف من السياح يزورونهم ولا أدري أذلك لكون وزارة السياحة أو السلطات المحلية الحكومية تضع زيارة هذا المسجد بين الأماكن التي تستحق أن يزورها السياح في هذه المنطقة أم إن زيارة السياح تكون بمبادرة انفرادية منهم أو من المشرفين على جولاتهم.

عند الباب الخارجي لمسجد سهيل مع مدرس القرآن فيه

وقابلنا في المسجد الأخ الشيخ الصادق بن برهون من المملكة المغربية وهو الذي يشرف ويلاحظ حلقات تحفيظ القرآن بالمركز، وقالوا: لدينا ٥٥ شخصاً ممن يترددون على هذه الحلقات في المسجد.

مدينة مالقة:

قال الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق، في إختراق الآفاق):

ومدينة مالقة مدينة حسنة حصينة ويعلوها جبل يسمى جبل قاره ولها قصبة منيعة وربضان لا أسوار لهما وبهما فنادق وحمامات وبها من شجر التين ما ليس

بأرض وهو التين المنسوب إلى رية مالقة قاعدة رية ومن مالقة إلى قرطبة في جهة الشمال أربعة أيام ومن مالقة أيضاً إلى إغرناطة ثمانون ميلاً، ومن مالقة إلى الجزيرة الخضراء مائة ميل، ومن مالقة إلى إشبيلية خمس مراحل، ومن مالقة إلى مربيلة في طريق الجزيرة أربعون ميلاً ومربيلة مدينة صغيرة متحضرة ولها عمارات وأشجار تين كثيرة، وفي الشمال منها قلعة ببشتر وهي قلعة في نهاية الامتناع والتحصين والصعود إليها على طريق صعب.

وأما ما بين مالقة وقرطبة من الحصون العامرة التي هي حواضر في تلك النواحي فمنها مدينة ارشذونه وانتقيرة وبينهما وبين مالقة خمسة وثلاثون ميلاً، وكانت ارشذونة هذه وانتقيرة مدينتين أخلتهما فتن الثوار بالأندلس بعد دولة ابن أبي عامر القائم بدولة بني أمية.

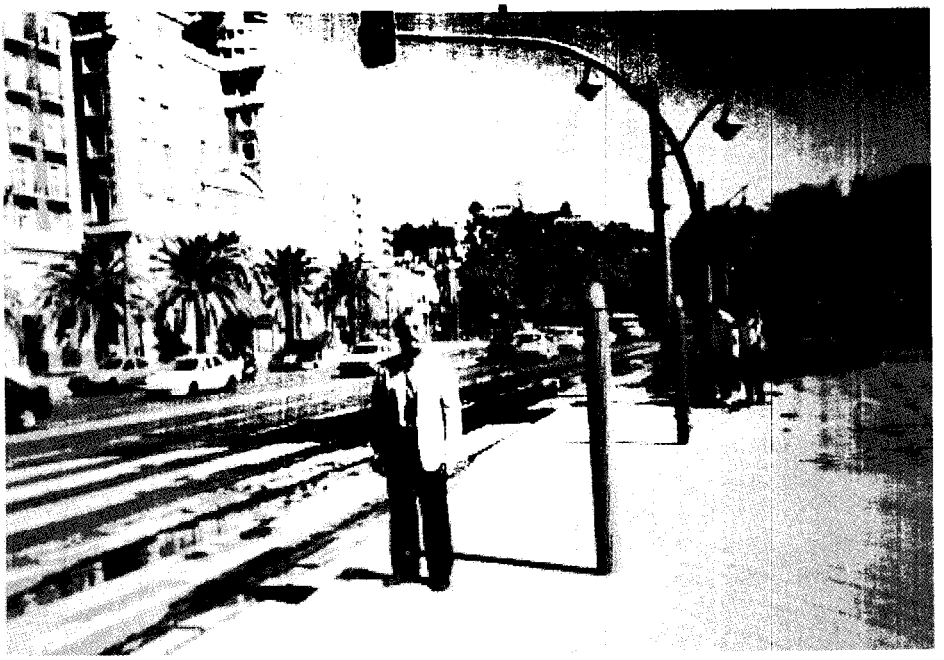

المؤلف في قلب مالقه

و قال صاحب الروض المعطار:

مالقة: بالأندلس، مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخر، والبحر في قبليها.

وهي حسنة عامرة آهلة كثيرة الديار، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهو يحمل إلى مصر والشام و العراق، وربما وصل إلى الهند، وهو (من) أحسن التين طيباً وعذوبة، ولها ربضان كبيران، وشرب أهلها من الآبار، ولها واد يجري في زمان الشتاء وليس بدائم الجري.

وهي (من) تأسيس الأول، وأكثر المدينة على جسرين من بناء الاول، والجسر داخل في البحيرتين هناك، قد بني بصخر كأنوف الجبال.

وقصبتها في شرقي مدينتها عليها سور صخر، وهي في غاية الحصانة والمنعة، وفي هذه القصبة مسجد بناه الفقيه المحدّث معاوية بن صالح الحمصي، وكان ممن حضر وقعة مروان بن محمد ليلة بوصير فأنجاه الفرار ولجأ إلى الأندلس فرقاً من المسوّدة، ومات بها، وله روايات وتقدم في السنة والعلم.

وجامع مدينة مالقة بالمدينة، وهو خمس بلاطات، ولها خمسة أبواب: بابان منها إلى البحر، وباب شرقي يعرف بباب القصبة، وباب غربي يعرف بباب الوادي، وباب جوفي يعرف بباب الخوخة، وبها مبان فخمة وحمّامات حسنة وأسواق جامعة كثيرة في الربض والمدينة.

وذكرها الأول في كتبهم فقالوا: مدينة مالق، لا بأس عليها ولا فَرَق، آمنة من جوع وسبي ودم، مكتوب ذلك في العلم الذي يكتب، وقد قيل: إن هذه الكلمات وجدت في بعض حجارتها نقشاً بالقلم الإغريقي، قالوا: وجميع هذه الآثار التي أمنها منها وبقاؤها عنها قد لحقت بها وجمعت لها في سنة تسع وخمسين

وأربعمائة بمحاصرة عباد بن عباد لها، واستطالة برابر قصبتها على أهلها، فشملهم الضرّ وعمهم الفقر، ثم استحلت حرماتهم وسفكت مهجاتهم، فما نجا في البحر إلا الشريد ولا تخلّص إلا السعيد، فخلت ديارهم وتغيرت آثارهم، وكذلك عندما نشأت الفتنة في آخر أيام الملثمين وصدراً من دولة الموحدين بقيام ابن حسون فيها، وبعدما قتل فيها من قتل وغرب من غرب قتل نفسه عند قيام أهل البلد عليه، فسبيت حرمه ومزقوا في البلاد كل ممزق: وآسفت حاله، ولله الحكمة البالغة.

ومن مالقة إلى أرشذونة ثمانية وعشرون ميلاً، ومرسى مالقة صيفي يكن بالغربي وبازائه مما يلي المدينة الجسر الذي ذكرناه، ينكسر عليه الموج.

ولما ولي ا لقاضي المحدث الشهير أبو محمد عبدالله بن سليمان ابن حوط الله الأنصاري، قضاء مالقة وقدم عليها، خرج طلبتها إلى لقائه فأنشدهم[1]:

مالقة حييت يا تينها ... الفلك من أجلك ياتينها

نهي طبيبي عنك في علتي ... ما لطبيبي عن حياتي نهى

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار، ٥١٧- ٥١٨.

من سهيل إلى مالقة:

غادرنا مدينة سهيل في الثانية عشرة والنصف ظهراً متوجهين إلى مدينة (مالقة) الكبيرة الشهيرة في التاريخ العربي الأندلسي القديم وهي الآن مدينة مزدهرة رغم ضيق موقعها وسؤ المنطقة التي تقع فيها بالنسبة إلى ما يريده السياح إلا أنها ميناء كبير، وفيها صناعة مزدهرة.

من ضواحي مالقه

وتقع مدينة (مالقة) إلى الغرب من مدينة سهيل لذلك كان سيرنا مع شارع الشاطئ متجهين إلى الغرب.

ورأينا شيئاً مهماً هناك وهو حديقة ذكر المرافقون بشيء من الاستغراب أن هذه الحديقة التي رأيتموها قالوا ذلك وهم يشيرون إلى ما يشبه الحديقة في لحف الجبل إنها القمامة!

ولما استفسرت منهم عن إيضاح ذلك قالوا: لعلكم لا حظتم أن إسبانيا تجعل براميل القمامة ثلاثة أقسام كل قسم من هذه البراميل أو كل برميل منها له لون خاص به، وعليه رقم خاص فواحد منها ترمى فيه نفايات الحديد والمعادن، والثاني للمواد (البلاستيكية) والثالث للزجاج.

وقد دربوا الأهالي على أن يميزوا بين هذه الأوعية (البراميل) وذلك بقية سهولة فرز هذه المواد بعضها عن بعض.

وقد طمروا بعض مواد القمامة وأحرقوا بعضها في هذا المكان النآئي عن المنازل ثم طمروها وزرعوا ما كان فوقها.

وكنا لاحظنا هذا التفريق بين أوعية القمامة والنفايات في جميع أنحاء إسبانيا الذي لم يقتصر على تمييزها بالكتابة وإنما كان ذلك با للون فيستطيع الشخص أن يعرف محتوى ذلك الوعاء وما هو مخصص له من مواد من مجرد النظر إلى لونه.

وكل هذه الأوعية مطلية بطلاء بَرَّاق، ومغطاة بغطاء مثلها يطلى طلاءً جميلاً، حتى لا يشعر الذي لا يعرفها بأنها أوعية للقمامة أو النفايات، وذلك خلاف ما عليه الحال في بعض الأمصار المتخلفة بالإدارة التي يكون مجمع القمائم فيها وعاء واحداً كثيراً ما يكون هو مستحقاً لكي يلقى في قمامة لأنه يكون قذراً أو مكسراً أو ملطخاً بالأقذار وأردأ منه من يستعملونه، إذْ غالباً ما يتركون إلقاء القمامة فيه مع أن ذلك لا يكلف فتحاً ولا إطباقاً كما في البلدان المتقدمة فيتركون القمامة بجانبه في الشارع، ويأتي عمال البلدية ليكملوا ما نقص من القذارة بعدم الاستقصاء عليها في الحمل، بل وتبديد بعضها فيما حول ذلك الوعاء، وربما أ بعد منه من الشارع.

وصلنا ضاحية من ضواحي (مالقة) في الواحدة والربع ظهراً، واستقبلتنا المدينة من تلك الضاحية بأبنية عالية متعددة الطبقات (عمايز).

شارع في مدينة مالقه

وموقعها ليس جيداً والمدينة رغم الطابع الإسباني المحلي عليها إلا أن غرناطة وقرطبة أجمل منها، وفي شوارعها نخيل قد أثقله البسر في قنوانه وقد اصفر ولكنه لا يرطب أبداً.

ثم رأينا مجموعات من النخيل قرب البحر في أحد الميادين.

ولا شك أن لأقبالهم على غراس النخيل العربي أنه وإن لم يتمر فإن شجرته جميلة نظيفة فلا يسقط منها ورق، ولا تلوث الشارع أو الطريق، بل ولا الميدان الذي تكون فيه.

مسجد السلام:

لافتة مسجد السلام في مالقه والدكتور صالح بن محمد السنيدي عندها

قصدنا رأساً (مسجد السلام) الذي معنا إمامه وهو الشيخ عمر بن محمد الفاروق الذي سبق أن رافقنا في هذه المنطقة من جنوب إسبانيا منذ الأمس.

قرأنا اللافتة التي رفعت على المسجد وهي صغيرة (مسجد السلام) بالعربية وفوقها اسمه بالإسبانية.

ويقع في الدور الأرضي من مبنى مكون من عدة أدوار (طبقات) وهو مستأجر ذكر لنا إمامه الشيخ عمر الفاروق أ ن أ جرته الشهرية ٧٥٠ يورو ومساوٍ تقريباً للدولار.

وجدنا في المسجد ثلاثة أشخاص من المسلمين جاوءا إليه قبل حلول وقت الظهر، فالظهر لم يؤذن لها بعد، مثلما كنا وجدنا في مسجد المحسنين البارحة عدداً قليلاً من المصلين الذين حضروا إلى المسجد قبل آذان المغرب.

و(مسجد السلام) هذا مصلى إذْ ليس في (مالقة) مسجد وإنما فيها مصلى آخر اسمه (مسجد التوبة) يعرف بأنه للمسلمين الجدد من الإسبان ولا يزال يصلي فيه الإسبان الجدد لكنه انضم إليهم غيرهم من سائر المسلمين.

جولة في مالقة:

قمت مع الأخ عمر الفاروق بجولة سريعة على مدينة (مالقة) وهو بها خبير لأنه من المقيمين فيها فكان أول ما رأيناه منها حيّاً يسمى بوابة البحر، وبالإسبانية (بويرتا دي مار) لهذا المعنى، وهذا الاسم له دلالة جغرافية مهمة بالنسبة للمدينة، فباب البحر القديم كان موجوداً هنا ولكن المكان الآن بر وليس بحراً، مما يحمل على الاعتقاد بأن البحر انحسر عن المكان نتيجة دفن المنطقة أو لعوامل أخرى، وقد رأينا دليلاً على ذلك في أثر عربي قديم احتفوا به وذلك أنهم عثروا على حيطان الميناء الذي كان على البحر في منطقته وهي الآن يابسة، وقد أبعدوا التراب عن هذا الميناء العربي الإسلامي وحافظوا على الحيطان التي وجدوها فيه وجعلوا له درجاً ينزل إلى الأسفل رؤيته متاحة لمن شاء من المواطنين بدون رسم، وإنما على من يريد أن يراه أن ينزل من هذا

الدرج إلى مستوى مترين أو نحو ذلك حيث يجد حائطين متقابلين هما بقايا الميناء العربي القديم.

عند جدار البناء القديم السقوف في مالقه

وزادوا من الاحتفاء به بأن جعلوا سقفه الذي هو وسط الشارع الآن من الزجاج السميك بحيث يمر فوقه الناس فيرون من الشارع ذلك الميناء الأثري بدون أن ينزلوا إليه، إذا كانوا سيكتفون بذلك عن النزول، والذي فوق الميناء وهو سقف الزجاج واقع في رصيف للشارع عريض وليس في المكان الذي تسلكه السيارات منه.

وقد نزلنا مع الدرج لرؤية الميناء، فوجدنا أن الموجود منه حائطان قويان من الحجارة وتبين أن المنطقة التي فيها الميناء القديم قد ردمت بالتراب حتى طمرت في عهد من العهود.

ويلاحظ أن البحر وفيه الميناء لا يبعد كثيراً عن هذا المكان ولكن بينهما فراغ من الأرض اليابسة، فيه شوارع وميادين وأبنية متعددة الطوابق.

ونعود إلى البوابة البحرية فنقول الآن لم يبق من البحر عندها إلاّ الاسم.

وانتقلنا بالسيارة إلى منطقة أخرى غير بعيدة لأن الآثار المهمة لنا هي في مدينة (مالقة) القديمة أو قل: إنها الأقسام القديمة منها، فدخلنا نفقاً فوقه هضبة (الفارو) وقد شق النفق تحتها محافظة عليها لأنها مذكورة في التاريخ القديم.

ساحة الظلم:

ساحة العدل في مالقه

هكذا أسمى الأخ عمر الفاروق ساحة يسميها الأسبان (ساحة العدل)، وبالإسبانية (بلاسادي لا مرسين) كان الأسبان بعد أن احتلوا البلاد واستعادوها من العرب المسلمين يقبضون على المسلمين فيحاكمونهم ويقتلونهم هنا، وكانوا يبيعون بعضهم هنا فيمن يزيد، لأن الرق لم يكن قد حرم في أوروبا في تلك العهود.

ولا شك أن ما عملوه بالمسلمين هنا وفي غيرها لا يمت إلى العدل بصلة، فالمسلمون حكموا مدينة مالقة هذه ثمانية قرون، ولم يصنعوا بالنصارى مثل هذا، بل أبقوهم على دينهم شرط أداء الجزية، وهي مبلغ قليل، بل ضئيل بالنسبة للضرائب التي تأخذها الدول الحديثة من سكان البلاد التي تحتلها، بل إن المسلمين أبقوا على كنائسهم.

وهؤلاء النصارى أجبروا المسلمين على التنصر ثم صاروا لا يقنعون منهم بذلك، بل أجبروهم على مغادرة البلاد، وصاروا يفتشون عنهم ومن وجدوه باقياً في البلاد قتلوه.

فأين عدلهم المزعوم؟

قصبة مالقة:

القصبة في المغرب العربي أصطلاحاً: القسم المرتفع القديم من المدينة فهناك الآن (القصبة) في مدينة الجزائر والقصبة في مدينة طنجة، وهذا اصطلاح قديم، أما (قصبة) مالقة التي لا تزال تسمى بهذا الاسم حتى الآن فإنها تلة صخرية عليها مساكن، وتسمى (جبل فارد) الذي كان العرب يسمونه بهذا الاسم، حرف الأسبان اسمه بما لم يبعد به كثيراً عن أصله وهو كما ينطقون به الآن (جبر الفارو).

وفي (القصبة) هذه قلعة عربية كتبوا عليها بأنها عربية، وذلك واضح من منظرها وهي في عرض الجبل يصعد إليها من درج حجري، وهي الآن مقصد للسياح لكونها من الآثار العربية الباقية.

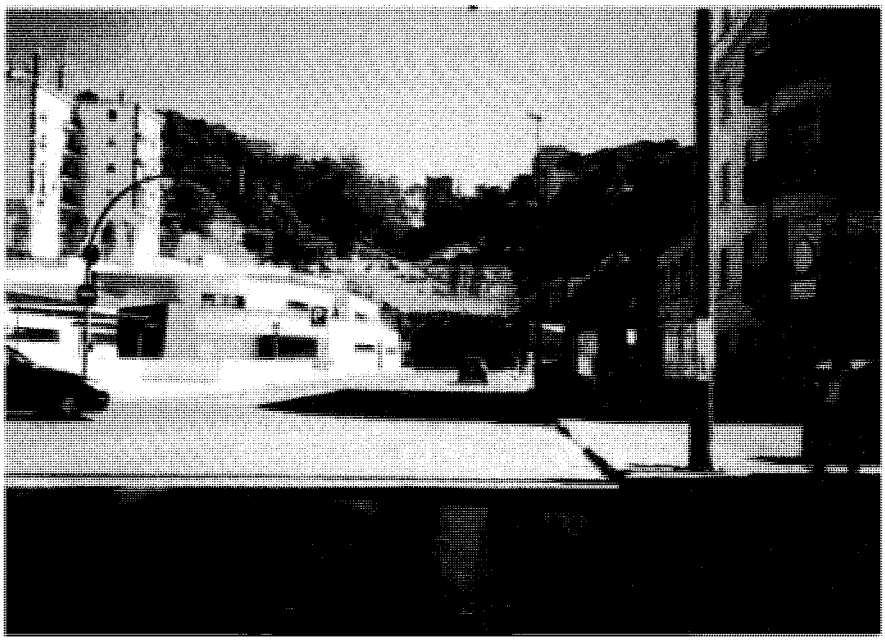

القلعة العربية في مالقه تحتها النفق

وحتى الشارع الذي يقع إلى الغرب من القصبة قد استفادوا منه سياحياً فرأيت صاحب عربة يجرها حصان (عربة حنطور) كما يسميها المصريون ويريدون بها عربة تحمل الأشخاص، أما التي تحمل الأحمال الثقيلة فاسمها عند المصريين (عربة كارو) وكل هذه ألفاظ مستوردة.

ولكن الشيء الظاهر لنا الآن المؤسف حق الأسف أنهم قضوا على الحي العربي القديم الواقع في القصبة، ولم يبق منه إلا هذه القلعة.

وقد استنكر هذا حتى علماء الأسبان قائلين: ماذا لو أبقوا على الحي العربي القديم في (القصبة) التي تتوجها القلعة؟ ألا يكون ذلك مكسباً للمدينة وللتاريخ؟

وذكر لي الأخ الفاروق أنه عرف وهو من سكان مالقة أن أكثر الآثار العربية قد محيت محواً من مالقة، ومن أماكنها تحتاج إلى دراسة لمعرفتها وأما أعيانها فإنها لم يبق منها عين ولا أثر.

العودة إلى مسجد السلام:

كنت خلّفت صاحبي في مسجد السلام ليستريحا، وذهبت وحدي مع الأخ الفاروق، وهو إمام مسجد السلام لذا عدنا إلى المسجد لصلاة الظهر فيه.

وقد صلى معنا من جماعة المسجد ٢١ شخصاً وصلينا نحن العصر بعد الظهر جمعاً.

ما حول القصبة في مالقه

مغادرة مالقة:

غادرنا (مالقة) في الثالثة والنصف، ولم أشف غليلاً من رؤيتها والتجول فيها بسبب ضيق الوقت، لأننا سوف نسافر فجر غد إلى مالطة عن طريق روما من مدريد، وعلينا أن نعود إلى مدريد الآن.

وتبلغ المسافة من (مالقة) إلى مدريد ٤٦٢ كيلومتراً للقاصد الذي يذهب إليها مع الطريق الذي جئنا منه وهو الذي يمر بغرناطة دون قرطبة.

خرجنا مع ضواحي (مالقة) في تلال سيئة المنظر وعرة الموقع، ترتفع منها جبال دهم وهي التي لونها بين السواد والحمرة، ولكنها سمرة غبراء، تشبه جبال الصحراء.

ولم نقف حتى ولا وقفة تأمل في الطريق بين (مالقة) وغرناطة فوصلنا غرناطة في الرابعة والنصف ووقفنا للغداء عند مطعم يرتاده كثير من عرب المغرب، لذلك وجدنا الذين يخدمون الموائد فيه من المغرب، وأعطونا قائمة للطعام بالعربية كلها ليس معها شيء من الإسبانية، وأخبرونا أن لديهم نسخة منها بالإسبانية.

والمطعم في محطة للحافلات لابد من أن يمر بها من يأتي من أوروبا بالسيارات من أوروبا إلى المغرب ولذا كنا رأينا الإسبان كتبوا أسماء بعض بلدانهم التي يمر بها المغاربة بسياراتهم عابرين من أوروبا إلى المغرب بالعربية مثل (الجزيرة) و(جبل طارق).

وقد رأينا بالفعل عند هذا المطعم حافلة كبيرة مليئة بالركاب العابرين إلى المغرب وهم الإخوة المغاربة من بين رجال ونساء، ولو أنه خيل إلينا أنهم قد ازدادوا سمرة وما ذلك إلا لكونهم في هذا الجو الأوروبي الأبيض.

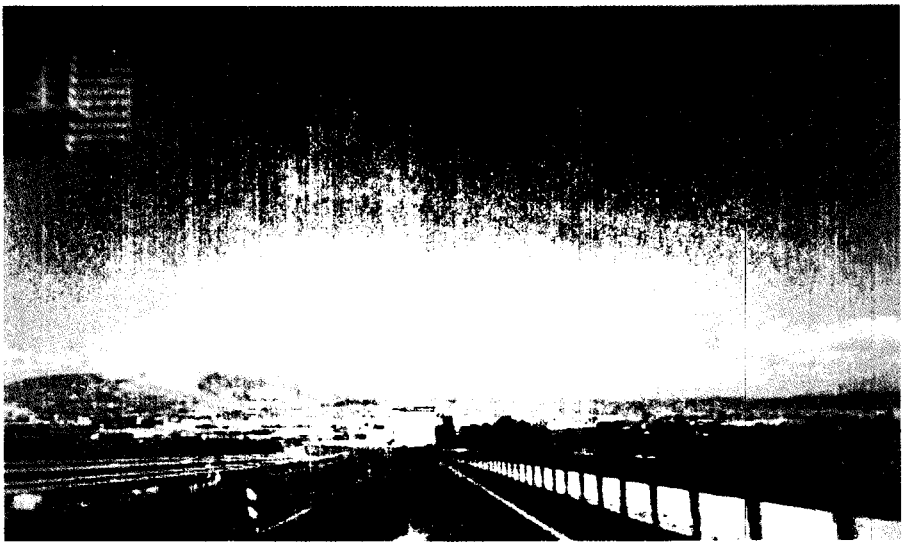

عند الإنصراف من مالقه

وقد تناولنا في مطعم المحطة هذه ويصح أن نسميها محطة غرناطة لأنها في ضاحية من ضواحيها أطعمة جيدة النوع ورخيصة الثمن فيها ثلاثة أنواع من الزيتون حسب إعداده في هذه المنطقة التي تنتج الزيتون بكثرة، بل بإسراف.

الرجوع إلى مدريد:

انطلقنا بسيارتنا لا نلوي على شيء وتبعد عن غرناطة للقاصد إلى مدريد ٣٩٢ كيلومتراً كما كتبوا ذلك على لافتة الطريق.

ولم تقف السيارة لأخذ المحروقات لأنها قد تزودت بها من قبل، وإنما قطعنا الطريق بالقصص والحكايات التي كنا نخرج من نوع فيها إلى نوع آخر لمناسبة وبدون مناسبة.

فوصلنا فندقنا الذي كنا نسكن فيه قبل السفر إلى الأندلس وهو (نوفتيل) بجانب المركز الإسلامي في مدريد.

وقد وصلنا إلى مدريد في العاشرة ليلاً ونمنا بسرعة.

ثم استيقظنا في الثالثة والنصف قبل الفجر حيث غادرنا الفندق في الرابعة إلى مطار مدريد فطرنا منه إلى مطار روما ومنه إلى جزيرة (مالطة) والحديث عن زيارة مالطة وجزيرة كربت بعدها في كتاب: (جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط) والله المستعان.

رثاء الأندلس:

نظم شعراء الأندلس وغيرهم منظومات، وسطروا قصائد فاضت بها قرائحهم في رثاء الأندلس، وأكثر من فعلوا ذلك هم أهل الأندلس، ولكن حتى الذين جاءوا من بعدهم فعلوا الشيء نفسه.

وكنت عزمت على أن اختار طائفة من مراثي الأندلس المذكورة غير أنني عثرت على قصيدة للشاعر السوداني المعاصر الأستاذ محمد أحمد المحجوب فرأيت الإكتفاء بإيرادها هنا.

قال:

الفردوس المفقود في رثاء الأندلس:

نزلتُ شَطكِ، بعدَ البينِ ولهانا ... فذقتُ فيكِ من التبريح ألوانا
وسِرتُ فيكِ، غريباً ضلَّ سامرُهُ ... داراً وشوْقاً وأحباباً وإخوانا
فلا اللسانُ لسانُ العُرْب نَعْرِفُهُ ... ولا الزمانُ كما كنّا وما كانا
ولا الخمائلُ تُشْجينا بلابِلُها ... ولا النخيلُ، سقاهُ الطَّلُّ، يلقانا

ولا المساجدُ يسعى في مآذِنِهـا مع العشيّاتِ صوتُ اللهِ رَيّانـا

* * * *

كم فارسٍ فيكِ أوْفى المجدَ شرعتَهُ وأوردَ الخيـلَ وديانـاً وشـطآنا
وشاد للعُـرْبِ أمجـاداً مؤثّلـةً دانتْ لسطوتِهِ الدنيا ومـا دَانـا
وهَلْهلَ الشعرَ، رفزافاً مقاطِعُـهُ وفجّرَ الروضَ: أطيافـاً وألحانـا
يسعى إلى اللهِ في محرابِهِ وَرِعاً وللجمالِ يَمـدُّ الـروحَ قُربانـا
لمَ يَبقَ منكِ: سوى ذكرى تُؤرّقُنا وغيرُ دارٍ هوىً أصْغتْ لنجوانـا

* * * *

أكادُ أسمعُ فيها همـسَ واجفـةٍ من الرقيبِ، تَمنّى طيـبَ لُقيانـا
اللهُ أكبرُ هـذا الحسـنُ أعرفُـهُ ريّانَ يضحكُ أعطافـاً وأجفانـا
أثار فِيَّ شُجوناً، كنـتُ أكتمُهـا عَقّاً وأذكرُ وادي النيـل هَيْمانـا
فللعيـونِ جمـالٌ سِـحرُهُ قـدَرٌ وللقـدودِ إبـاءٌ يفضـحُ البانـا
فتلك دَعْدٌ، سوادُ الشَـعْرِ كلّلَهـا أختي: لقيتُكِ بَعْدَ الهجرِ أزْمانـا
أختي لقيتُكِ، لكنْ أيْـنَ سـامرُنا في السالفاتِ ؟ فهذا البعدُ أشقانا
أختي لقيتُ: ولكنْ ليس تَعْرِفُنـي فقد تباعدَ، بعـد القُـربِ حيَّانـا
طُفنا بقرطبةَ الفيحـاءَ نَسْـألها عن الجدودِ.. وعن آثارِ مَرْوانـا
عن المساجد، قد طالت منائرُهـا تُعانق السُحبَ تسبيحاً وعرفانـا
وعن ملاعبَ كانتْ للهوى قُدُساً وعن مسارح حُسنٍ كُنَّ بسْـتانا
وعن حبيبٍ، يزينُ التاجَ مِفْرقُـهُ والعِقدُ جال على النّهدين ظمآنـا
أبو الوليد تَغنّـى فـي مرابِعِهـا وأجَّجَ الشَوقَ: نيراناً وأشْـجانا
لم يُنْسِهِ السجنُ أعطافاً مُرنَّحـةً ولا حبيباً بخمـرِ الـدَّلّ نَشْـوانا

فما تَغـرّبَ، إلاّ عـن ديـارهمُ ... والقلبُ ظلَّ بذاك الحـبِّ ولهانـا
فكم تَذكّرَ أيّـامَ الهـوى شَـرقاً ... وكـم تَـذكّرَ: أعطافـاً وأردانـا
قد هاجَ منه هوى ولادةٍ شَـجَناً ... بَرْحاً وشوْقاً، وتغريداً وتَحْنانـا
فأسْمَعَ الكونَ شِعْراً بالهوى عَطِـراً ... ولقّنَ الطيـرَ شـكواه فأشـجانا
وعاشَ للحُسنِ يرعى الحسنَ في ولَهٍ ... وعاش للمجدِ يبني المجدَ ألوانـا
تلكَ السماواتُ كُنّاهـا نُجمّلُهـا ... بالحُبِّ حينـاً وبالعليـاء أحيانـا
فرْدَوسُ مجدٍ أضاعَ الخَلْفُ رَوْعَتَهُ ... من بعدِ ما كانَ للإسلامِ عنوانـا

* * * *

أبا الوليدِ أعِنّـي ضـاعَ تالـدُنا ... وقد تَنـاوحَ أحجـاراً وجُـدرانا
هذي فلسطينُ كادتْ، والوغى دولٌ ... تكونُ أندلسـاً أخـرى وأحزانـا
كنّا سُراةً تُخيف الكونَ وحـدتُنا ... واليومَ صرنّا لأهلِ الشركِ عُبدانا
نغدو على الذلِّ، أحزاباً مُفرّقـةً ... ونحن كنّا لحـزب اللهِ فرسـانا
رماحُنا في جبين الشمس مُشـرَعةٌ ... والأرضُ كانت لخيلِ العُرب ميدانا
أبا الوليدِ، عَقدْنا العـزمَ أنّ لنـا ... في غمرةِ الثأرِ ميعاداً وبرهانـا
الجرحُ وحّـدَنا، والثـأرُ جَمّعنـا ... للنصـر فيـه إراداتٍ ووجـدانا
لهفي على «القدس» في البأساء داميةً ... نفديكِ يا قدسُ أرواحـاً وأبـدانا
سنجعل الأرضَ بركانـاً نُفجّـرهُ ... في وجه باغٍ بـراه اللهُ شـيطانا
ويُنتسى العارُ في رأد الضحى قَنَرى ... أنَّ العروبةَ تبني مجـدَها الآنـا

واللهُ غالبٌ على أمرهِ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمون

لا غالبَ إلا الله

عائدون إليك يا أمّنا الأندلس

الشاعر محمد أحمد المحجوب:

- ولد عام ١٩٠٨م بمدينة الدويم بولاية النيل الأبيض
- تخرج في كلية الهندسة بكلية غردون التذكارية عام ١٩٢٩م.
- نال الاجازة في الحقوق عام ١٩٣٨م
- عمل في مجال القضاء حتى استقال عام ١٩٤٦م ، ليعمل بالمحاماة عام ١٩٤٧م.
- انتخب عضواً بالجمعية التشريعية واستقال منها عام ١٩٤٨م .
- تولى منصب وزارة الخارجية عام ١٩٥٧م وفي حكومة أكتوبر
- تولى منصب وزارة الخارجية في عام ١٩٦٤ م.
- تولى منصب رئيس الوزراء عام ١٩٦٧م وفي فترة الديمقراطية الثانية.
- تولى المنصب مرة أخرى عام ١٩٦٨م إلى جانب مهام وزير الخارجية.
- من مؤلفاته مقالات في صحيفة النهضة وفي مجلة الفجر وكتاب (الحكومة المحلية).
- اشترك مع الدكتور عبد الحليم محمد في كتاب (موت دنيا).
- له كتاب (الديمقراطية في الميزان) باللغة الإنجليزية.
- وله أشعار كثيرة وديوان (الفردوس المفقود) .
- توفي عام ١٩٧٦م.

الفهرس

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف ٥
مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات ١٥
المقدمة ٢١
إسبانية أو الأندلس؟ ٢٦
الأندلس في المصادر العربية القديمة ٢٧
قبل الوصول إلى إسبانيا ٣٧
لمحة عن إسبانيا ٣٩
تقرير عن الأقلية المسلمة في إسبانيا ٤٥
موقع الإسلام في قانون الدولة ٤٦
الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ٤٧
الأوضاع التعليمية ٤٨
الأوضاع الدينية والثقافية ٥٣
الأوضاع الثقافية ٥٦
الأوضاع السياسية ٥٦
صورة الهجرة المسلمة في الإعلام الإسباني ٥٧
المشكلات والعقبات ٥٨
الحلول المقترحة للنهوض بمستوى الأقلية المسلمة في إسبانيا . . . ٦٠
توصية مهمة ٦١
حدود النشاط الإسلامي في إسبانيا وفقاً للدستور والتشريعات السائدة. . . ٦٢
حدود الحرية الدينية والثقافية للمسلمين في إسبانيا ٦٥

التركيبة الاجتماعية للجالية المسلمة في إسبانيا ٦٦
وضعية المسلمين الثقافية في إسبانيا ٦٧
وضع المركز الثقافي الإسلامي بمدريد ٧٠
يوميات الرحلة ٧٣
من لشبونة إلى مدريد ٧٥
في مدينة مدريد ٨٢
صباح مدريد ٨٦
جولة في المركز الإسلامي ٨٧
تلاميذ المدارس في المركز ٨٨
وطلاب مدرسة إعدادية ٩٢
زيارة خريجي أكاديمية الشرطة ٩٨
العبودي العراقي ٩٩
قاعة حمزة بن عبدالمطلب ١٠٠
قاعة المحاضرات ١٠٣
النادي النسائي ١٠٤
قاعة المعارض ١٠٤
مكتبة المركز ١٠٦
المدرسة السعودية ١٠٧
القهوة والسكري والضب ١٠٩
الكلمات العربية في الإسبانية ١١١
مأدبة عربية ١١١
أهم أعمال المركز الإسلامي ١١٢
جولة في مدريد ١١٨

بدايات مدريد ١٢٢
معنى مدريد ١٢٤
وادي الحجارة ١٢٨
من انتسب من العلماء إلى وادي الحجارة ١٣٠
عودة إلى ساحة الشمس ١٣٠
حديقة الرسام ١٣٤
عاصمة فخمة ١٣٧
واسم رسام آخر ١٣٩
ساحة كريستوفر كولومبس ١٤٠
من الكلام على (قشتالة) في الكتب ١٤٧
أقوال للقدماء في مدريد ١٤٨
وقال صاحب الروض المعطار ١٤٨
منطقة الأندلس ١٥١
منطقة الأندلس ١٥٣
من مدريد إلى قرطبة ١٥٣
مواصلة السير ١٦٠
منطقة وادي بيتا ١٦١
المدينة الملكية ١٦١
أول منطقة الأندلس ١٦٤
لافتة عربية ١٦٦
قرية مجرى النهر ١٦٨
هذه قرطبة ١٦٩
البحث عن المسجد ١٧٠

فندق الأمويين ١٧٢
الجامع العظيم ١٧٤
ظلم عظيم ١٧٧
محراب الجامع ١٨٠
أكبرمن كنائس ١٨٢
ما حول الجامع ١٨٦
المطعم الأندلسي ١٨٧
وكاتب الشهادتين على الملابس ١٨٩
والمنارة المحجوبة ١٨٩
قصر الملك ١٩٢
البيت الأندلسي ١٩٤
رأس ابن رشد ١٩٥
البيت نفسه تحفة أثرية ١٩٩
باب المدوّر ١٩٩
مسجد المرابط ٢٠٠
أول مسجد نصلي فيه في قرطبة ٢٠٤
المسلمون في قرطبة ٢٠٦
عودة إلى المدينة القديمة ٢٠٩
قول قديم في جامع قرطبة ٢١١
مدينة قرطبة أعاده الله دار إسلام ٢٢٣
قول حديث ٢٣٤
المسجد الجامع بقرطبة ٢٣٤
مواصلة الجولة ٢٣٨

اللغة الإسبانية ٢٣٩
اللغة العربية وتأثيرها في اللغة الإسبانية ٢٤٠
فائدة الآثار الإسلامية ٢٤٥
الوادي الكبير ٢٤٦
القلعة الحرة ٢٤٨
صورة إسرافيل ٢٥١
العودة إلى الجامع ٢٥٢
اسم قرطبة ٢٥٣
سرحة الجامع ٢٥٤
المنارة المغطاة ٢٥٨
العودة إلى قرطبة القديمة ٢٥٩
الصليب فوق قصر الخليفة ٢٦٠
مغادرة قرطبة ٢٦٢
المزيد من الزيتون ٢٦٣
بلدة قصر النهر ٢٦٤
بلدة بيتا ٢٦٥
تكاثف الزيتون ٢٦٧
بلدة الكاوديت ٢٦٨
حدود ولاية غرناطة ٢٦٩
هذه غرناطة ٢٧٢
الاسم الشاعري ٢٧٣
حمراء غرناطة ٢٧٤
المأدبة التي أفسدت البرنامج ٢٧٧

منظر الجبل الثالج ٢٧٩
الدخول إلى الحمراء ٢٨٠
المشور ٢٨١
ساحة الغرفة الذهبية ٢٨٤
فناء الرياحين ٢٨٥
قاعة السفراء ٢٨٧
الروازن الفنية ٢٨٨
فناء الأسود ٢٨٩
قاعة ابن السراج ٢٩١
قاعة العدل ٢٩٣
قاعة الأختين ٢٩٤
الذي نوه بالحمراء ٢٩٧
قصر الحمراء في غرناطة ٢٩٨
مدينة حمراء غرناطة أعاده الله دار إسلام ٣٠٠
رجع إلى ذكر مدينة الحمراء ٣٠٥
إطلالة على حي البيازين ٣١١
حمام القصر ٣١٣
الصوت المتردد ٣١٣
حوض السباحة ٣١٥
برج الأميرات ٣١٥
الحدائق الصيفية ٣١٦
حي البيازين ٣١٨
مسجد التقوى ٣١٩

جلسة في المسجد ٣٢٢
جولة في غرناطة ٣٢٤
شارع كولون ٣٢٤
الجامع الذي صار من أرضه كنيسة ٣٢٧
بين طيات التاريخ ٣٢٨
المدرسة العربية ٣٢٩
الساحة الرومانية ٣٣٠
ميدان باب الرملة ٣٣٢
سوق القيسارية ٣٣٤
آخر جامعة عربية في غرناطة ٣٣٥
ساحة إيزابيلا الكاثوليكية ٣٣٧
مساجد غرناطة ٣٣٩
نهر حدرة ٣٤٠
إلى نهر شينيل ٣٤٥
مسخ النهر ٣٤٦
بوابة البيرة ٣٤٨
مسجد التوحيد ٣٥٠
غرناطة من الأعلى ٣٥١
عود إلى اليوميات ٣٥٣
من غرناطة إلى مالقه ٣٥٤
بلدة الحمة ٣٥٤
الحمة في الكتب ٣٥٥
بلد انتي كيرا ٣٥٦

مشارف مالقه ٣٥٧
إلى مطار مالقه ٣٥٧
إلى مدينة سهيل ٣٥٩
قلعة سهيل ٣٦١
المسلمون في سهيل ٣٦٥
معلومات عن مركز سهيل وما بقربه من الآماكن ٣٦٧
النشاطات العامة بالمسجد ٣٧٠
النشاطات الخاصة ٣٧٠
النشاطات الاجتماعية ٣٧٢
المساعدات المادية ٣٧٢
مساعدات المرضى ٣٧٢
النشاطات الثقافية ٣٧٣
المشاركة في المؤتمرات ٣٧٤
الزيارات المعرفية للمعاهد والمدارس الابتدائية والثانوية ٣٧٥
أهم المدن الأندلسية في ساحل الشمس ٣٧٦
بلدة بنا المدينة ٣٨٠
برج الطاحونة ٣٨٢
مسجد المحسنين ٣٨٣
إلى ماربيله ٣٨٨
قول عن ماربيله+ ٣٨٩
مسجد الخيرات ٣٩١
جامع الملك عبدالعزيز ٣٩٥
لوحة المسجد ٣٩٧

زيارة مركز سهيل الإسلامي ٤٠٠
مسجد المركز ٤٠٥
مدينة مالقة ٤٠٧
من سهيل إلى مالقة ٤١١
مسجد السلام ٤١٤
جولة في مالقة ٤١٥
ساحة الظلم ٤١٧
قصبة مالقة ٤١٨
العودة إلى مسجد السلام ٤٢٠
مغادرة مالقة ٤٢١
الرجوع إلى مدريد ٤٢٢
رثاء الأندلس ٤٢٣
الشاعر محمد أحمد المحجوب ٤٢٦
الفهرس ٤٢٧